

کتاب

الجزء الثاني

تأليف

کتاب

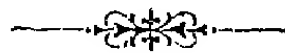
رئيس المجمع العلمي العربي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

كتاب
خِطِّ الشَّيْخِ



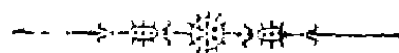
الجزء الثاني



تأليف

محمد عبد الحليم

رئيس المجمع العلمي العربي



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الدولة النورية

« من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩ »



فئة الاسماعيلية (لم يكف الشام تفرق كلمة امرائه واستصفاء الفرنج لسوا حله ووقعة دمشق) في الربع الاول من القرن السادس ، حتى مني بعدو داخلي يقاتل اهله في عقردارهم ويستنجد بالفرنج على ارهاقه ، ويغتال امرائه اخيارهم واشرارهم ، ونعني بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديماً ويسمون في هذا الدور بالباطنية او الاسماعيلية . فقد انتشر مذهبهم في كل بلد وكثر الدعاة اليه ، وكانت دار الدعوة في حلب ولكن دمشق كانت موطن التنفيذ والعمل . فان ابناء هذا المذهب ودوا لو يؤسسون دولة في العراق او الشام ولكنهم اخفقوا غير مرة ، ولما شعروا بضعف امراء الشام وتشتتهم ، واشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين ، ايقنوا ان الفرصة قد سحبت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام ودعا بدمشق الى مذهبه فتبعه خلق كثير من العوام وسفهاء الجبال والفلاحين ، وواثقه الوزير ابو يعلى طاهر بن سعد المزدقاني فأظهر دعوته علناً ، بعد ان كان يخفي ويطوف البلاد والمعاقل ولا يعلم به احد ، فعظمت به وبشيعة المصيبة . وسكت عن هؤلاء الباطنية العلماء وحملة الشريعة خوفاً من بطشهم ، ولما استفحل امرهم في حلب ودمشق اضطر صاحب دمشق ظهير الدين طغتكين ان يسلمهم قلعة بانياس دفعاً لشرهم ليسلطهم على الفرنج ويقطع تسلطهم على مسلمين ، فعدّ الناس ذلك من غلطاته .

عظم امر بهرام بالشام وملك عدة حصون بالجبال وقاتل اهل وادي التيم وكان سكانه من النصرانية والدروز والمجوس وغيرهم واسم أميرهم الضحالك بن جندل ، ثم قتل بهرام وقام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه اسماعيل ، وأقام الوزير المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلاً اسمه ابو الوفا ، وعظم ابو الوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكتب الفرنج ليسلم اليهم دمشق ويعوضوه بصور وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليجمع أصحابه على باب الجامع وعلم صاحب دمشق بالامر فقتل الوزير المزدقاني وامر الناس نثاروا بالاسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف اسماعيلي (٥٢٣) وقال سبط ابن الجوزي : وكان عدة من قتل من الاسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل ولم يتعرضوا لحرقهم ولا لاموالهم ، ووصل الفرنج في الميعاد وحاصروا دمشق فلم يظفروا بشيء ، واشتد الشتاء فرحلوا كل المنهزمين وتبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة كثيرة منهم ، وسلم اسماعيل الباطني قلعة بانياس الى الفرنج وصار معهم .

قال ابن الاثير : ولما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا على دمشق اذ لم يتم لهم ملكها فاجتمعوا كلهم صاحب القدس وصاحب انطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقامصتهم ، ومن وصل اليهم من البحر للتجارة والزيرة في خلق عظيم نحو الف فارس ، واما الراجل فلا يحصى . وروى ابن القلانسي : انهم يزيدون على ستين ألفاً فارساً وراجلاً وساروا الى دمشق ليحصروها ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والترك فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس ووصل الفرنج فنازلوا البلد وارسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاذارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً قد ساروا الى حوران لتهيبه واحضار الميرة كما تهيب صاحب القدس (٥٢١) وادي موسى وسبي اهله وشردهم ، سير اليهم اميراً من امرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين فلقوا الفرنج فواقعهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوه فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه اربعون رجلاً ، واخذوا ما معهم وعادوا الى دمشق لم يتسبهم قرح ، فلما علم من عليها من الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم .

ولما استولى الفرنج على قلعة بانياس بنزل صاحبها الباطني عنها وانضمامه اليهم سقطت بأيديهم ايضاً قلعة القدموس وكانت للباطنية . و باحراز هاتين القلعتين قوي امر الفرنج وان عظمت خسائرهم المادية وعاد الناس فأمنوا وخرجوا بعد فشل الصليبيين افي فتح دمشق وايقنوا : « ان الفرنج لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل لقضاء بطالم واجتياح رجالهم وذهاب اثقالهم » .

دخول آل (كانت مملكة حلب للبرسقي وبها ولده مسعود فلما قتل البرسقي
زنكي الشام) استخلف مسعود الامير قياز بحلب وسار الى الموصل ثم استخلف
على حلب قتلغ ابه السلطاني فاساء السيرة ومد يده الى اموال الناس لاسيما التركات
فانه اخذها وتقرب اليه الاشهر فنفرت قلوب الناس منه . وكان سليمان بن عبد الجبار
ابن أرتق الذي كان صاحبها اولاً مقيماً بحلب فاجتمع اليه احداؤها وملكوه المدينة
وقتلغ في القلعة وسمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلين صاحب انطاكية فصافوه بمال
فرحل بعد ان خندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها من ظاهر
البلد واشرف الناس على الخطر العظيم ، وارسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل
عسكراً مع القائد قراقوش الى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فاجاب اهل
حلب اليه وتقدم عسكر زنكي الى سليمان وقتلغ بالمسير الى زنكي فاجابا فلما وصلوا الموصل
اصلى زنكي بين سليمان وقتلغ ولم يرد واحداً منها الى حلب ، وسار زنكي الى حلب
وملك في طريقه منبج وبزاعة وتلقاه اهل حلب ودخل ورتب الامور وملكها وقلعتها
(٥٢٢) . قال ابن الاثير : ولولا ان الله تعالى قد منّ على المسلمين بملك اتابك لبلاد
الشام لملكها الفرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية .

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد وارسل صاحب دمشق يلتمس منه المعونة على
حرب الفرنج وبادر الى تجريد وجوه عسكره ، وكتب الى ولده بهاء الدين سونج
بحاجة بأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ، فخرج من حماه الى
مخيم عماد الدين اتابك فاحسن لقاءه ثم غدر به وقبض عماد الدين على سونج وعلى جماعة
المقدمين واعنقهم في حلب ، وزحف من يومه على حماة وهي خالية من حماتها فملكها ،

ورحل الى حمص وكان صاحبها قيرخان بن قراجة معه ، وطلب منه تسليم حمص
فراسل نوابه وولده فيها فلم يلتفتوا الى مقاله ، فاقام عماد الدين عليها مدة طويلة ببالغ
في محاربة اهلها فلم يتهياً له ما اراد فرحل عنها الى الموصل .

وطلب صاحب دمشق الى صاحب الموصل ان يطلق ولده ومن اعتقلهم من
الامراء والمقدمين فطلب عنهم خمسين الف دينار ، فأجاب تاج الملوك الى تحصيلها ،
ولم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج ومن معه من الامراء الا في سنة ٥٢٥ .
ومات الخصي صاحب صرخد فاستولت سر يته على قلعته ، وارسلت الى ديبس بن صدقة
صاحب الحلة تستدعيه من العراق للتزوج به ، وتسليم صرخد بما فيها من مال وغيره
اليه ، فسار ديبس الى الشام فضل به الادلاء بنواحي دمشق فنزل بناس من كلب
كانوا شرقي الغوطة فحملوه الى صاحب دمشق تاج الملوك ، ولما سمع عماد الدين زكي
بأمر ديبس ارسل الى تاج الملوك يطلبه و يبذل له اطلاق ولده سونج ومن معه من
الامراء فأجابه تاج الملوك الى ذلك واطلق عماد الدين سونج ورفاقه .

وفي سنة ٥٢٤ جمع عماد الدين عساكره وسار من الموصل الى الشام وقصد
حصن الاثارب ، وكان اهل على اتصال بالفرنج يقاسمون الحلبين على جميع اعمال
حلب الغربية ، فالتقوا وعسكر عماد الدين واشتد القتال وانصر المسلمون وانهمز
الفرنج ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وكثر القتل فيهم ، واخذ المسلمون الاثارب
عنوة وقتلوا واسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين .

بينما كانت دمشق مغتربة بتاج الملوك بوري
اشجاعته ، وقد سد مسدابه في كفايته وكفاحه ،
ناداه الاجل سنة ٥٢٦ عقيب جرح كان به من
الباطنية ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسماعيل ووصى بعلبك واعمالها لولده
شمس الدولة محمد . ولما استقر اسماعيل بن بوري في ملك دمشق واستقر اخوه في
بعلبك استولى محمد على حصن الرأس وحصن اللبوة فكاتب اسماعيل اخاه في اعادتهما
فلم يقبل ، فسار صاحب دمشق وفتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس وقرر امرهما ،

استنجد بعض الصليبيين
بالمسلمين واستقرار حال
دمشق

ثم حصر اخاه في بعلبك فسأله الصلح فأجابته اليه ، واعاد عليه بعلبك واعمالها واستقرت امورهما .

ودخلت سنة ٥٢٧ فصار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق على غفلة من الفرنج الى حصن بانياس وفتح ذلك لما بلغه من عندهم على نقض المواعدة المستقرة ، وهال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس واكثروا التعجب من تسهل الامر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في اقرب مدة . وفتح شمس الملوك حماة وقلعتها وقتل من كان بها ، وحصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حملة اليه . وفي هذه السنة اجتمعت التراكين وقصدوا طرابلس فخرج من بها من الفرنج اليهم واقتتلوا فانهمز الفرنج وسار القومص صاحب طرابلس ومن في صحبته فانحصروا في قلعة بعين حصرهم التركان بها ، ثم هرب القومص من القلعة وخلي قلعة بعين . ثم جمع الفرنج جمعهم وقصدوا التركان ليرحلوهم عن بعين فاقتتلوا وانحاز الفرنج الى نحو ريفية وعاد التركان عنهم .

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت الحرب بينهم وقتل منهم جماعة والسبب في ذلك اختلاف طفيف نشأ بين امرائهم حدا بصاحب يافا ان يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعدوه حتى خربت البلاد الى حدود مدينة ارسوف ، وعقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فجاء صاحب القدس وحاصره ، ولكن المسلمين اهتموا الغرة فحاصروا خلال ديار الفرنج واخذوا يناوشونهم القتال ، فخاف صاحب بيت المقدس العاقبة واراد مشاغلة المسلمين فأغار على اطراف حلب ، فنهض اليه الامير سوار النائب في عسكر حلب ومن انضاف اليه من التركمان وتجاربوا اياماً وتطاردوا الى ان وصلوا الى ارض قنسرين فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة ، فعاد سوار النهوض اليهم في من بقي من عسكره والأتراك فلقوا فريقاً من الفرنج فأوقعوا به وكسروه ، فانكفأت الفرنج الى بلادها مهزومة ، وانتهى الى سوار خبر خيل الرها فنهض وحسان البعلبيكي فأوقعوا بهم وقتلواهم عن آخرهم وأغار سوار على الفرنج في تل باشر فقتل منهم الف فارس وراجل وقاتلهم ايضاً في موضع يعرف بنوار في عسكر حلب وما انضاف اليه من التركمان وكانت

الحرب بين الفريقين سجالاً . واشترى الاسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون وصعدوا اليها وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم .

وفي سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك الى شقيف تيرون وانتزعه من ابن ضحاك بن جندل التيمي المتغلب عليه . وانتهى الى شمس الملوك ان الفرنج اعتزموا على نقض المستقر من الهدنة وقصد اعمال دمشق ، وشرعوا باخرا بامهات الضياع في حوران ، فوقع التطارد بين الفريقين عدة ايام ثم اغنلهم شمس الملوك وقصد بلادهم عكا والناصرية وطبرية وما جاورها فظفر وغنم وسبي ورجع سالماً على طريق الشعراء في نفسه وجملته ، فذل الفرنج وطلبوا تقرير الصلح بينهم . وفي هذه السنة أوقع صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم .

خيانة صاحب دمشق } ومما خدم عماد الدين زنكي ابن شمس الملوك
وقتل امه له } اسمعيل صاحب دمشق كان لاول جلوسه على عرش
ابيه اقر الولاية على حالم وسار بسيرته مدة فنفس من خناق البلاد وساعده اختلاف
الصلبيين ثم تغيرت نيته وكثرت قبائحه ومصادرة المتصرفين والاخير المستورين
بنفون قبيحة في العقوبات ، واضمر السوء لاصحاب ابيه وقبض على خواصهم واركان
دولته فنفرت القلوب منه . وكان (٥٢٧) وثب عليه احد ممالك جده طغتكين وهو
في الصيد بناحية صيدنايا وجبة عسال من عمل جبل سنير فاخطأه ، وقرره شمس
الملوك فقال : ما اردت الا راحة المسلمين من شرك وظلمك ثم اقر على جماعة من شدة
الضرب فضرب شمس الملوك اعناقهم من غير تحقيق وقتل اخاه الاكبر سونج صاحب
حماة الذي كان في اسر عماد الدين قتله بالجوع في بيت فعظم ذلك على الناس ونفر
من ظلمه المساكين والضعفاء والصناع والمتعيشون والفلاحون وامتهن العسكرية والرعية .
واهم ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتآمروا عليه ورأوا السبيل
الى النيل منه خصوصاً لما بعث الى عماد الدين زنكي حين عرف اعتزاه على قصد
دمشق لمنازلتها ببعثه على سرعة الوصول اليها ويمكنه من الانتقام من كل من يكرهه

من المتقدمين والامراء والاعيان باهلا كههم واخذ اموالهم واخراجهم من منازلهم وكتب اليه انه اذا تأخر استدعى الفرنج من بلادهم وسلم اليهم دمشق بما فيها ، واسر ذلك في نفسه ولم يبد له احد من وجوه دولته واهل بطانته ، وشرع في نقل المال والمتاع الى حصن صرخد . فاجتمع اعيان الدولة وانهوا الحال الى والدته الخاتون صفوة الملك ، فدبرت عليه من قتله من غلمانها ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده ، لما عرفت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته . ونودي بشعار اخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك . وجاء عماد الدين زنكي وخيم بارض عذراء فلما طال الامر راسل عماد الدين في طلب الصلح على ان يخرج الامير شهاب الدين محمود اليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه ويخلع عليه ويعيده الى بلده فلم يجب الى ذلك ، وتقررت الحال على خروج اخيه تاج الملوك بهرام شاه .

قتل شمس الملوك باتفاق رأي والدته مع ار باب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه واستصراخه الا لفرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي ، وكان جده طغتكين مثلاً سائراً في غزوه لهم المرة بعد المرة ، ومداراتهم احياناً بالحيلة ، وجمع شمل امراء الشام على قصدهم ابداً ، ومصانعة خائء بغداد وخذاء مصر حتى ينجدوا البلاد المحتلة ولو بالقليل من قوتهم المادية والمعنوية ، ولكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته امه ورجال دولته . وقد قيل لولا اربع صلح امر الناس « جهل غالب ، وامل كذب ، وحرص دائب ، وهوى جاذب » . وكانت هذه الاعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون الا على مصلحتهم الخاصة واذا تأثرت اقل تأثر عمدوا الى وضع ايديهم في ايدي اعدائهم — من موجبات بقاء الا لفرنج في ثغور الشام وانطاكية والرها وطبرية والناصرية والقدس واستيلائهم على كثير من معاقل البلاد . ولولم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الاربع دمشق وحماة وحمص وحلب بالنظر لخلل الدول المستولية عليها ، واضطرارها الى قتال اعدائها من المسلمين واعدائها من الصليبيين بل واعدائها الداخلين امثال شمس الملوك . وللناقد البصير بعد هذا ان يقول ان دولة اتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب في اولها فاصبحت ذليلة وععباً ثقيلاً على الشام بعد بطنين من مؤسسها .

توحيد الحكم على يد زنكي { بعد ثقلبل امر آل طغتكين اخذت روح آل
وقضاؤه على اماره صليبية } زنكي تسري في البلاد ، فنهض الامير مسعود
سوار نائب زنكي في حلب سنة ٥٣٠ هـ فممن انضم اليه من التركمان ، وجرد جيشه
على الاعمال الفرنجية فاستولى على اكثرها ، وغزا اللاذقية واعمالها بغتة وعاد من هذه
الغزاة الى شيزر ومعه زيادة عن سبعة آلاف اسير بين رجل وامرأة وصبي وصبيبة
ومائة الف دابة ، وحاز او اجتاح اكثر من مائة قرية كبيرة وصغيرة فامتلأت
الشام من الاسارى ورجعوا بهم الى حلب وديار بكر والجزيرة .

هذا ما وقع من الاحداث في العقد الثالث من القرن السادس ، واهم ما حدث
ظهور دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل في حلب وايقانه انه لا سبيل الى دفع
الصليبيين عن الشام الا اذا كان امر المسلمين يرجع الى ملك واحد ، وانه اذا تقدم
بجيشه قليلاً بعد اخذه حلب استولى على دمشق ، وانقذ البلاد من فوضى آل اتابك
طغتكين وضعفهم ، فقد كثر هجوم عماد الدين زنكي على حمص (٥٣٠) فتسلمها
صاحب دمشق من اولاد قبرخان بن قراجة وعوضهم عنها تدمر ، فتابع عسكر زنكي
بحلب وحماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها الى صاحب دمشق ، فأرسل هذا الى
عماد الدين في الصلح فاستقر بينهما . وكف عسكر عماد الدين عن حمص وحدثت
فتنة بدمشق بين صاحبها والجند وعاد عماد الدين فنازل حمص (٥٣١) وبها صاحبها
معين الدين اتسر فلم يظفر بها ، فرحل عنها الى بعين وحصر قلعتها وهي للفرنج
وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا الى زنكي ليرحلوه عن بعين
فلما وصلوا اليه جرى بينهم قتال شديد فانهمزمت الفرنج ، وعاد عماد الدين حصار الحصن
فطلب الفرنج الامان ، فقرر عليهم تسليم الحصن وخمسين الف دينار فأجابوا الى
ذلك ، وكانت زنكي في مدة مقامه على حصار بعين قد فتح من الفرنج المعرة
وكفر طاب ومنع اتابك زنكي في هذه الواقعة عن الفرنج كل شيء حتى الاخبار
فكان من بحصن بعين منهم لا يعلم شيئاً من اخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق
وهيبته على جنوده . وملك عماد الدين (٥٣٢) زنكي حصن المجدل وكان لصاحب
دمشق ، ودخل مستحفظ بانياس ابراهيم بن طرغت تحت طاعته ، وسار الى حمص

وحصرها ثم رحل عنها الى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب ، ثم عاد الى حمص فسلمت اليه المدينة وقلعتها وكان شرع اهل حلب في تحصينها وحفر خنادقها والتحصن من الروم بها ، واغارت خيل الصليبيين على اطراف حلب ، وتملكوا حصن بزاعة ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت اليهم فرقة وافرة من احدث حلب فقالتهم وظفرت بهم ، ونهض الامير سوار في عسكر حلب وادرك الصليبيين في الاثارب فاوقع بهم وقورهم ونزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة وحاصرها حتى ملكها بالامان واسر من فيها ثم عذبهم ونادى مناديه من ثنصر فهو آمن ومن ابى فهو مقتول او مأسور فثنصر منهم نحو اربعمائة انسان منهم القاضي والشهود ثم رحل عنها الى شيزر وترك فيها والياً يحفظها مع جماعة واقام عشرة ايام يدخن على مغارات اخفى فيها جماعة فهلكوا بالابخان وكان سكان بزاعة خمسة آلاف وثمانمائة نسمة ، وعاد عماد الدين وحاصرها حتى ملكها في المحرم سنة ٥٣٣ وخرب الحصن والبلد عامر . وفي سنة ٥٣٣ سار من مصر عسكر الى وادي موسى فحاصر حصن الوعية ثمانية ايام وعاد بعد ما توجه الى الشوبك واغار عليها وترك هناك اميرين على الحصار . وتزوج عماد الدين ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك اسمعيل وذلك طمعاً من عماد الدين في الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة في الدولة . وكثيراً ما حدث ان كان في بعض الدول كلمة نافذة للنساء من آل بيت الدولة وغيره صادقة في كف خصائنها عنها ووقايتها من السقوط .

وكان ممالك الروم خرج في السنة الفائتة واشتغل بقتال الارمن وصاحب انطاكية وغيره من الفرنج وعمر ميناء الاسكندرونة ثم سار الى بزاعة وملكها وغدر باهلها ثم رحل عنها الى حلب فجري بينه وبين اهلها قتال كثير فعاد عنها الى الاثارب وملكها وسار نحو شيزر وحاصرها اربعة وعشرين يوماً فانجدها عماد الدين حتى اضطر ممالك الروم الى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم . وكان زكي يرسل الى ملك الروم يوهمة بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً ، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها . ونهض هذه السنة الامير

بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي والتركيات الى ناحية طرابلس فظهر اليه قومصها والنقيسا فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الاحمر وغيره . ونهض ابن صلاح والي حماة في رجاله الى حصن الخربة فملكه .

قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب وحماة وحمص والمرة وكفرطاب وبعليك وغيرها ، والحاشه القتل في الفرنج واستيلائه على بعض معاقلهم ، فلم يسع شهاب الدين محموداً صاحب دمشق الا مهادئته على قاعدة احكت بينهما ، واصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام . اما الفرنج في انطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم وصالحوه على ما اشترط ، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة المستقرة بين عماد الدين وبينهم وقبضوا في انطاكية خمسمائة رجل من تجار المسلمين واهل حلب والسفار .

وبينا كان عماد الدين يدبر ويفكر ويهتم لاخذ دمشق نعى النسايعي (٥٣٣) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين اتاك ، قتله غلمان في فراشه فتولى بعده اخوه الامير جمال الدين محمد بن تاج الملوك صاحب بعليك فبعثت والدته الخاتون صفوة الملك والددة الامير شهاب الدين الى زوجها عماد الدين زنكي ، وهو على الموصل ، تبعت همته على النهوض لطلب الثأر ، فجاء وفتح الاثارب وبعليك . وقال بعض المؤرخين : ان زنكي آمن قلعة بعليك وتسلمها ثم غدر باهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه .

ولما رأى جمال الدين صاحب دمشق ان دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل اليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين ، فسار هذا طالباً للقاء الفرنج ان قربوا منه ثم عاد الى الغوطة ونزل بعذراء فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة الى حرستا التين ورحل متثاقلاً . وكان الشرط بين الفرنج وصاحب دمشق ان يكون في جملة المبدول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت ، فانفق ابن نهض هذا الى ناحية صور للاغارة عليها ، فصادفه ريمند صاحب انطاكية واصلاً في الفرنج على انجاد اهل دمشق ، فالتقيسا فكسره وقتل في الوقعة ومعه نفر يسير من اصحابه ، وعاد من بقي منهم الى بانياس

فتحصنوا بها وجمعوا اليها رجال وادي التيم فنهض اليها الامير معين الدين اتسر سيفه
عسكر دمشق وحارب بانياس بالمنجنيقات ومعه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها
وسلمها اليهم .

وجاء عماد الدين بعسكره هذه السنة ايضاً الى دمشق وقرب من السور ، وكان
قد فرق عسكره في حوران والغوطة والمرج وسائر الاطراف للغارة ، ونشبت الحرب
بينه وبين عسكر دمشق ، ثم سار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة . وساراتابك
الشهيد الى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا اليه . وفي الروضتين
ان الشهيد لقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع
بمثله ، فحاصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الامان ، وكان حصن بارين من
اضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان اهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من
البلاد ونهبوها ونقطعت السبل ، كان اتابك استولى على هذا الحصن سنة ٥٣١
واعطى الامان لمن فيه وقرر عليهم تسليمه ومن المال خمسين الف دينار يحملونها اليه .
وظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الفائزين عليها فعادوا مفلولين .
وملك الباطنية حصن مصياف وكان واليه مملوكاً لبني منقذ اصحاب شيزر فاحتال عليه
الاسماعيلية ومكروا به حتى سعدوا اليه وقتلوه . واغار الامير لجه التركي (٥٣٦)
النازح عن دمشق الى خدمة عماد الدين اتابك على بلاد الفرنج وظفر بخيلهم وقتك بهم فقتل
منهم سبعمائة رجل . وظهر (٥٣٧) صاحب انطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب
في حفظ حلب وحال بينه وبينها . وظهر ممتلك الزوم في الثغور دفعة ثانية وبرز اليه
صاحب انطاكية واصلح امره معه . وفي سنة ٥٣٧ خرجت فرقة وافرة من الفرنج الى
ناحية بعلبك للعيث فيها فقتل المسلمون اكثرهم وعادوا الى بعلبك سالمين . وظفر
عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار والاجناد خارجين من انطاكية تريد بلاد الفرنج
فاوقعوا بها وقتلوا من كان معها من خيالة الفرنج .

وفي سنة ٥٣٩ فتح عماد الدين زنكي الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية
وعشرين يوماً ثم تسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات .
وكان لا يمر بعمل من اعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه الاسلام اليه في الحال ، وهزم

التركان الفرنج الذين انذبوا من انطاكية لانجاد اهل الرها شرهزيمة ، وتمكن السيف في اكثر الراجل وتفرقوا في اعمالهم ومعاقلم مفولين . اي ان عماد الدين اتى ببأسه على اماره الشمال الصليبية برمتها وهي احدى الامارات الاربع التي اقامها الصليبيون في الشام فلم يبق لهم الا اماره انطاكية وهي تمتد الى قيليقية وامارة طرابلس وامارة القدس .

الحال بعد نصف قرن { نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام وهي اذا
من نزول الصليبيين } ما خلا فيها سيد قام سيد ، يشتد في دفعهم عن البلاد او يحافظ على الحالة الحاضرة على الاقل ، وكما رأى من يعتد بعقلهم وغيرتهم من امراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم وغزؤهم والتخريب في حصونهم وارضهم ، وهذه الاراضي اي القرى والمزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين والمسيحيين ، والويل لمن كان صقمهم في طريق المهاجرين والمدافعين فان مزرعته وداره الى بوار ، ولا سيما اعمال حلب وطرابلس لقربها من امارتين افرنجيتين قويتين واعمال حوران والسواد والبلقاء وجبل عوف وجبل الشراة فان المتكفل بغزوها صاحب القدس وهو اقوى ملوك الفرنج في الشام ، واليه يرجع في المهمات والقضايا العظيمة ، وهو ينجذ اصحاب الرها وانطاكية وطرابلس يوم الشدائد .

وكان آل أنوخ وآل معن حجازاً في اعالي سواحل لبنان او جبال فينيقية بين املاك الصليبيين واملاك صاحب دمشق ولهم الاثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق والمتولون للساحل ولكن خدمتهم للمسلمين اكثر بالطبع وهوام مع ابناء دينهم وعلى نحو ذلك كان الدروز وقد قاتلوا في صفوف المسلمين فاظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقر به العيون . ومن الغريب ان شيعة جبل عامل كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين الا قليلا وكانهم اضطروا الى ذلك اضطراراً لان بلادهم في قبضة الصليبيين كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين ومن الموارنة ادلاء لهؤلاء وعمال وتراجمة عندهم ، وكان بطاركة الفرنج يتنقلون في قرى لبنان الساحلية ولهم السلطان الاكبر على امراء تلك البلاد من الفرنج .

وكانت قوى فريق المسلمين وفريق الدخلاء على بلادهم متعادلة في الغالب ، ينال كل منهما من جاره و يغزوه في عقر داره ، ويعود وقد ملئت ايدي المتحاربين بالغنائم والاسرى . والفرنج يأتهم المدد كل سنة على طريق البحر على الاغلب ، والبحر لا يحمل الناس كالبر ، والمسلمون تأتتهم النجديات من مصر في الجنوب ومن العراق في الشرق ومن ديار بكر وديار مصر وآسيا الصغرى . والفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طليان وفرنسيين وألمان ، وجيوش المسلمين مؤلفة من تركيات واكراد وعرب .

وما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة . ولم يكتب لاحد عظماء الامراء في الاسلام ان يطول عهده وترسخ قدمه في الملك والسلطان حتى يحمل حملة رجل واحد على الفرنج ، فان دمشق وحلب وعليها في الجنوب والشمال المعول في الحرب لانها المعسكران العظيمان في داخلية البلاد كثيراً ما شغلا بانفسهما ورد دسائس الذين يترصدون الدوائر بملوكهما ، والفرقة الباطنية التي كان المقصد من الاغضاء عنها ان تقف سداً في وجه الاعداء لما عرف به اربابها من الشدة والمضاء ، اصبحت آلة شر على المسلمين لا لهم في اكثر الاحيان ، ولم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهباً وان لم ينشقوا عنهم قومية .

فاقتضت الحال ان يتولى امر الامة بعد نكش واق سنقر ويزان وابن عمار وابن منقذ ومسعود وطغتكين وبوري وزنكي امراء من عيار ارقى وبسلطة اعظم ، تكون اجزاء حكومتهم اكثر تجانساً من ذي قبل ، اذ ليس الزمن زمن ملك وامارة ، ولا عهد سكة مضروبة ، وخطبة مخطوبة ، بل العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ، وعمل بالسلاح والكراع ، وعمل بالخطط العسكرية والخدع الحربية ، وقت كله جد في جد ، والا فالعدو يتقدم ، والاسلام يهلك ويعدم ، وعمل عظيم كهذا متوقف على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى ، ويجذب قلوبهم بصالح اعماله لا بهرج مقامه ولطف مقاله ، ويهبرهم بلا مع اخلاصه ، لا ببريق الذهب على كرسيه وتاجه .

صفات عماد الدين زنكي } بدأ العقد الرابع من القرن السادس وفيه قتل
وتولي ابنه نور الدين } عماد الدين زنكي على قلعة جعبر بيد جماعة من
مماليكه . وكانت صفاته صفات حربية راقية اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه
وشدته ، وكان يحب التوسع في الملك والدب عن حوزة الاسلام ، ويدرك بثاقب نظره
ان الاعداء محيطة بمملكته لا ينجيها منهم الا القضاء على احدى اماراتهم في الرها
وما اليها ، ولا يلقى بأسهم بمناوشات وحروب تستصفي معها بعض القلاع والحصون
ثم يستعيدونها وبالعكس ، وما دامت دمشق لم تدخل في سلطانه لا يقوى ملكه
بالشام الاسلامية مع ملكه الموصل على ردة عوادي الدهر ودفع غوائل العدو .
توفرت في شخصه شروط التوسع في الملك ، وعرف ادارة الممالك بالعمل ورثها من
ابيه آق سنقر وبذته فيها ، فكان مربياً فاضلاً شهماً مشهوداً له بذلك ، دفع اليه السلطان
محمود لما تولى الموصل واديه آق أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما
فلذا قيل له اتابك .

فن صفات عماد الدين انه كان ينهي أصحابه عن شراء الملك ويقول ان الاقطاع تغني
عنها ، ومتى كانت البلاد لنا فلا حاجة اليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الاملاك
معه ، ومتى كان لاصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية وظلموهم ، على حين كانت
الاقطاعات في عهده للامراء والقواد وارباب الدولة شائعة غير منكورة عند المسلمين
وعند الصليبيين في هذه الديار . قيل للشهيد اتابك زنكي ان هذا كمال الدين بن
الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار اميرة وغيره
يقنع منك بخمسة دینار . فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ! ان
كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار . فان شغلاً واحداً
يقوم به كمال الدين خير من مائة الف دينار . وكان كما قال . وهذا اكبر دليل على
حرصه على رجاله ولا تقوم دولة الا بامثال الوزير الشهرزوري .

وكانت له عناية باخبار البلاد وتنشدها ويغرم عليها الاموال الطائلة ، فيقف
على اخبار الملوك ساعة بساعة ، واذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع احد الرعية
لئلا ينشر الخبر في البلد . وكان يفرق الاموال في القلاع والبلاد فلا يجعلها في

مكان واحد ويقول : اذا كانت الاموال في موضع واحد وحدث حادث وانا في موضع آخر لم انتفع بها وذهبت ، واذا كانت منفردة لم يحل بيني وبينها رجعت الى بعضها . وكانت البلاد قبل ان يملكها خراباً من الظلم ونقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلات اهلاً وسكاناً وقبل ان يجيئ زنكي الى الشام اشتدت صولة الصليبيين واتسعت مملكاتهم من ناحية ماردين وشيخان الى عريش مصر وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، وجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً واناوة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم . وكان مهيباً شديد الوطأة على من يعشون بحياة الامة . بلغه ان بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة وانزجروا وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد . وكان يقول : ان لم تحفظ نساء الاجناد والافسدت لكثرة غيبة ازواجهن في الاسفار . ترجمه العماد الكاتب بقوله : كان زنكي ابن آق سنقر جباراً عسوقاً ، بنكباء النكبات عسوقاً ، نمرى الخلق ، اسدي الحنق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العرف ، قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ الى ان قتل في سنة ٥٤١ وهو مرهوب لسطوه اهـ . وبعض هذه الصفات لنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود وهذا الرجل الذي كان ينتظر لانقاذ الشام مما حل به من الويلات ، فانه جمع الصفات الحسنة في ابيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه .

كان نور الدين في قلعة جعبر يوم مقتل ابيه عماد الدين بيد المالك فسمي الشهيد فاخذ في الحال خاتمه وهو ميت من اصبغه وسار الى حلب فملكها ، وارسل كبراء دولة زنكي الى ولده سيف الدين غازي بن زنكي يعلمونه الحال وهو بشير زور ، فسار الى الموصل واستقر في ملكها . قال ابن عساكر : وسير نور الدين الملك آق ارسلان بن السلطان محمود بن محمد الى الموصل مع جماعة من اكابر دولة ابيه وقال لهم ان وصل اخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له ، وانتم في خدمته وان تأخر فانا اقرر امور الشام واتوجه اليكم . ولما انتهى نعي عماد الدين الى صاحب دمشق خف في الحال الى حصن بعلبك وحصره وكان متوليّه نجم الدين ايوب بن شادي والد صلاح الدين يوسف ، فخاف ان لا يتمكن اولاد زنكي من انجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق

وسلم القلعة اليه ، واخذ منه اقطاعاً ومالاً وملكه عدة قرى من بلاد دمشق . ولم يكد نور الدين يتربع في دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضله ، وصحة حكمه وعقله وحزمه ، وباستيلائه على الاعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام في حياة سياسة جديدة بعد ثقل امر الدولة الاتابكية بدمشق ودخول الوهن على فروعها بعد زوال اصلها الثابت ظهير الدين طُغتكين . وسار نور الدين على قدم ابنيه عماد الدين في التقرب من ملوك الاطراف فخطب ابنة معين الدين اتسر الملك الحقيقي لدمشق ، والحاكم المتخكم في سياستها ليتم له بالصهر والقرابة ما كان ابوه يرمي اليه بزواجه بام شهاب الدين محمود فلم يتم له ، وتزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية واقصرها فأمن بهذا الزواج من غارة بغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام ، ومن تسرب عسكر الصليبيين عن طريق الروم الى بلاده

بعد ان أصيب جوسلين صاحب الرها بتمزيق شمل امارته قبل سنتين على يد عماد الدين زنكي ، جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة النصاري المقيمين بها فاستولى عليها وقتل من بها من المسلمين فنهض نور الدين (٥٤١) فممن انضاف اليه من التركمان فاستعاد البلد وقتل كثيراً من ارمها ، ومحق السيف كل من ظفر به من نصاراها . واستنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والي صرخد الذي كان خرج الى ناحية الفرنج للاستنصار بهم ، فجاء نور الدين في عسكر حسن من حلب فاجتمع الجيشان على حلب ، وبلغ صاحبي حلب ودمشق ان الفرنج احتشدوا قاصدين بـبصري فحال عسكر المسلمين بينهم وبين الوصول اليها ، واستظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الادبار فتسلم صاحب دمشق حصني بصرى وصرخد .

الحملة الصليبية الثانية . } وفتح نور الدين في السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاج
وغزوتها دمشق } بالسيف وحصر ثامولة (?) وبسرفوث وكفر لاما من
اعمال الفرنج . قال صاحب الكامل : كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين
قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في
اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملمهم وبيننا كان نور الدين يجمع شمله

لضرب الفرنج في مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التي ظهر له ضعفها يوم استرد ابنوه منهم الرها ، وردت الاخبار من قسطنطينية ان حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لوي السابع والمان بزعامه كونراد الثالث وفي الجيش انكليز وفلامنديون وطيلىان ومن هؤلاء البنادقة والجنوية والبياسنة (البيزيون) وذلك لانجاد الصليبيين في الشام ، اذ ساءت حالهم بعد سقوط الرها وقلّ فارسهم وراجلهم لان سيوف التركان والاكراد والعرب قد حصدتهم ، وعلى كثرة نناسلهم مدة نصف قرن اصبحوا في قلة واصبح اعداؤهم في كثرة .

تجمعت هذه الحملة بتحميس القديس برناردوس في الغرب وكان له كما لرؤساء الدين السلطان الاكبر على النفوس يصرفها كما يشاء . وذكر المؤرخون ان عدد هذا الجيش كان الف الف عنان من الرجالة والفرسان وقيل اكثر من ذلك وفي التاريخ العام ان كلاً من الجيش الالماني والجيش الافرنسي كان مؤلفاً من سبعين الف فارس ماعدا الرجالة الذين لا يحصى عددهم وان الروم قدروا مجموعه سبعمائة الف رجل . قال وهو تقدير ظاهر المبالغة . واختار هذا الجيش طريق البر وعرض عليه روجر صاحب بوليسه وصقاية ان يسافر بحراً لانه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن بلاده ، وكانوا احتلوا سر كوزة ، فلقى جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية وامراء بني سلجوق في آسيا الصغرى خسروب القهر والموت . قال مؤرخونا واستمر القتل فيهم اي في الصليبيين الى ان هلك العدد الدثر منهم ، وحل بهم من عدم القوات والعلوفات والمير وغلاء السعر ما افنى الكثير منهم .

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) الى ساحل البحر كصور وعكا واجمع من كان بها من الفرنج بعدما فني منهم اي من القادمين من طريق البر بالقتل والمرض والجوع نحو مائة الف انسان ان يقصدوا بيت المقدس . ولما قضوا مفروض حجبهم عاد من عاد بعد ذلك الى بلادهم في البحر ، وبقي ملك الالمان اكبر ملوكهم ومن هو دونه وصلى الصليبيون في القدس صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العسكر وكان مقدار ما فرقوه سبعمائة الف دينار ولم يعينوا لهم وجبة وما كانت وجهتهم الا فتح دمشق فوراً وبغيرها وهربوا المسلمين بين ايديهم . ولم يشعر اهل دمشق الا وملك

الامان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الاخضر . وكان الفرنج في نحو خمسين الفا من الخيل والرجل وقيل اكثر من ذلك . ويقول ابن منقذ ان ملك الامان لما وصل الى الشام اجتمع اليه كل من في ارجاء الساحل من الفرنج ، فقصدوا اولاً المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعاً عنه ، فقصدوا ناحية المزة ووصلت طلائعهم الى الميدان الاخضر فنشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الاجناد والاتراك والتركمان واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجمل الغفير ، وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاية الاطراف بالاستصراخ ، واخذت خيل التركمان تتواصل فلما خاف الامر بالفرنج بعد اربعة ايام ورأوا شدة عزيمه المسلمين في قتالهم رحلوا مفلولين .

ويرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج ان جيش الحملة الصليبية الثانية كان اكثر نظاماً وقيادة من جيش الحملة الاولى وليس فيه المتشردون والاشقياء بل كان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم أخذوا بالحماسة الدينية وساروا في قيادة ملكين عظيمين . وفي التاريخ العام ان هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد نفعا البتة حتى استغرقت حاليها ام النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحققت بارتكابها هذه الكارثة ونسبت اخرى هزيمة الحملة لخدايع الروم او خيانتة نصارى الشرق وذكروا ان الصليبيين في القدس قد ارتشوا من امير دمشق بمبلغ مائتين وخمسين الف دينار وان الامير ارسل المال زيوفاً او نحاساً طلي بالذهب .

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الالماني ولويس السابع الفرنسي وبودوين الثالث ملك القدس في بساين المزة ولحق فلهم بالساحل ، بعد ان قطعوا اشجار الحدائق للتحصن بها وأحرقوا الزبوة والقبة المهدوية . وقد وصف ابو الحسن الاندلسي جيش الفرنجة على دمشق في مخيمه ومعتزكه ومجتلده ومنهزمه وصفاً جميلاً قال :

بشطي نهر داريا	امور ما تواتينا
وأقوام رأوا سفك ال	دما في جلق دينا
أتانا مائتا الف	غديداً او يزيدونا

فبعضهم من اندلس	وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور	ومن صيدا وتبنيينا
إذا أبصرتهم أبصر	ت أقواما مجانينا
ولكن حرقوا في عا	جل الحال البساتينا
وجازوا المرج والتعدي	ل أيضا والمياديننا
تناههم وقد ركبوا	قطائرنا حراذينا
وبين خيامهم ضموا ال	ختنازر والقرايينا
وريات وصلبانا	على مسجد خاتونا

ومن توفيق صاحب دمشق بوهند وهو مجير الدين أرئق بن محمد بن بوري بن طغتكين ان الحكم وتدير المملكة كان لمعين الدين اتسر مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلا دينيا محسنا لعسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي بن زنكي وصاحب حلب نور الدين محمود بن زنكي ، فجاء الشقيقان في جيش لجب ، وانضم جيشها بل روحه وروح ابيها الى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الأتابكية ، مع خمس الامة ومعرفتها حق المعرفة ان الفرنج اذا أخذوا دمشق سقطت بلاد الشام كلها ، وربما تعدوها الى الحجاز وهناك الطامة العظمى على المسلمين ، وكان اجتماع آل زنكي الاقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحة لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام ، وان ملكها سيؤول اليهم بحكم الطبيعة . ولم يرض سيف الدين ولا نور الدين ان يناقشا مجير الدين ومعين الدين الحساب عما قدماه وقالاه ، بل مرا بالاحقاد مرًا الكرام وجعلوا الاقوياء دبر آذانهم وعند الشدائد تذهب الاحقاد .

ذكروا ان معين الدين اتسر كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق ، يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ويقول له : ادر كنا فساد سيف الدين في عشرين الف فارس فنزل جيرة حمص وبعث الى معين الدين يقول : « قد حضرت بجند علم ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، فان انا جئت الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا احد واخذت الفرنج دمشق وغيرها فان احببت ان أقاتلهم فسلم البلد الى من اتق به ، وانا

احلف لك ان كانت النصره لنا عليهم انني لا ادخل الى دمشق وارجع الى بلادي «
فمطله معين الدين وبعث الى السواحل يقول : « هذا ملك الشرق نازل على حمص
وليس لكم به طاقة ، فان رحلتم والا سلمت دمشق اليه وهو يبيدكم وانا اعطيكم بانياس »
اي ان معين الدين اتسز اثر ان يتخلي عن بانياس مفتاح دمشق الاكبر من جهة
بلاد الفرنج ، ولا يجعل لسيف الدين غازي اصبعاً في بلده ، لعله ان دولة آل
زنكي في عنفوان امرها غضة الالهاب ودولتهم هزيمة ، والفقى يغلب الهرم ويخلفه
بحكم الطبيعة .

* * *

تقدم نور الدين } ولما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب
في فتوحه } طرابلس الى معين الدين والى نور الدين يستنجدهما على
ولد الفنس صاحب صقلية الذي اخذ منه حصن العريمة ، ويريدهما على اخذه خوفاً
منه على بلده ، وكتب الى سيف الدين يطلبان منه المدد فامدهما ، فحصروا الحصن
وتقبوا السور ، فازعن الفرنج واستسلموا والقوا بأيديهم ، فملك المسلمون الحصن
واخربوه واخذوا كل من فيه .

وعاد عسكر سيف الدين الى الموصل وعسكر نور الدين الى حلب واخذ هذا
بجمع اطرافه وتوجه الى ماداني بلاده من بلاد الفرنج وظفر بعدة وافرة
منهم وجمع صاحب انطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه ، ونال من
عسكره حتى اضطر نور الدين ان يهرب بنفسه وعسكره الى حلب . وفي هذه السنة
(٥٤٣) نادي منادي نور الدين في حلب بابطال الاذان بحمي على خير العمل في اواخر
اذان الغداة ، واعاد اذان اهل السنة ففرح الناس فابطل بذلك اثراً عظيماً من آثار
الدولة العلوية الفاطمية .

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم انطاكية من عزيمته ، وقصد الفرنج فكان
بينه وبينهم مصاف بارض بغرى من العمق فانهمزم الفرنج الى حصن حارم وكانوا همزوا
المسلمين اولاً بهذا الموضع ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع
غنائم كثيرة الى اخيه سيف الدين صاحب الموصل . وفي هذه السنة سار نور الدين

الى بصرى وقد اجتمع الفرنج قضهم وقضيضهم ، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشد قتال فهزمهم نور الدين .

وكثر عيث الفرنج في صور وعكا والثغور (٥٤٤) بعد رحيلهم عن دمشق وفساد شروط الهدنة المنقرة بين صاحب دمشق وبينهم وكانوا يعيشون في عمل دمشق ، ويفحشون في التخريب ويمعنون في الغارة ، فاغار عليهم العسكر الشامي والتركاني والعرب الى ان اضطروا الى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنين . واغار صاحب انطاكية على الاعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها ، وكانت عسكر نور الدين يناهز الستة آلاف فارس سوى الاتباع والسواد ، والفرنج في زهاء اربعمائة فارس طعانة والف راجل مقاتلة سوى الاتباع فلم ينج منهم الا نفر يسير ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية وقد خلت من حمائها فاستمال اهلها في التسليم فأمهلوا ، ثم نهض الى اقامية فسلم الفرنج اليه البلد بعد حصارها واجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا الا وقد ملك حصن اقامية وملاؤه ذخائر وسلاحاً ورجالاً واقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من في انطاكية ونقرر ان يكون ما قرب من الاعمال الحلبية لنور الدين ، وما قرب من انطاكية لهم . وقد عاون نور الدين في هذه الواقعة الامير بزان في عسكر دمشق وعسكر اخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وقتل من الفرنج الف وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه الى نور الدين . قال العماد : وكانت هذه الكسرة على إنب وإنب حصن من اعمال عزاز .

وظهرت الفرنج في الاعمال الدمشقية للعيث فيها واتصل بنور الدين افسادهم في الاعمال الحورانية بالنهب والسبي فعزم على التأهب لقصدتهم فسار وكف ايدي اصحابه عن العيث والفساد في الضياع ، وامر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم . وكتب الى دمشق يستدعي منهم المعونة على ذلك بالف فارس ، وقد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج ان يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط ، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج بيوس وبعض العسكر يبعفون ، ثم رحل بمن منزله بالاعوج ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر ، وراسل مجير الدين والرئيس بدمشق

بأنه لم يقصد محاربتهم وإنما دعاه إلى ذلك كثرة شكايه المسلمين من أهل حوران والعربان وعجز امراء دمشق عن حفظ اعمالها واستصراخهم بالفرنج على محاربتهم ، وبذلهم لهم أهوال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، فكان الجواب عن هذه الرسالة « ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزات علينا » فلما عاد الرسول بهذا الجواب اكثر التعجب منه والانكار له ، وعزم على الزحف إلى دمشق . وما ندري اذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين اتسر والي دمشق وصاحب امرها نيابة عن اولاد طغتكين ، وكان اتسر صالحاً عادلاً محسناً كافياً عن الظلم متجنباً للمآثم ، محباً للعلماء والفقراء ، بذلك مجوده في حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذ ملك مجير الدين في الانحلال ، وآل إلى الانحلال .

انحلال دولة مجير الدين) آذنت شمس الدولة الاتابكية دولة ابناء طغتكين وتوفيق نور الدين (بالمغيب لهلاك الرجال الفيوريين عليها ، ولان اربابها أخذوا ينقوون بالفرنج على ابناء نجاتهم حباً بان يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم « وصواب الرأي بالدول بقي ببقائهما وذهب بندها » . ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها المقام الاسنى في الشام بعد ان حالف التوفيق اعلامها اكثر من مرة في سنين قليلة أخذت النفوس تطالع اليها ، وتعلق الآمال الطيبة عليها . وقد كانت دمشق التي أجابت نور الدين بهذا الجواب النظم نشرت فيها هذه السنة فتنة بين الاجناد والمقدمين والرعايا والفلاحين وذلك لاستيماش الرئيس في دمشق من مجير الدين صاحبها ولم تزل الفتنة تائرة إلى ان ابعد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة .

ولكن هذه الفوضى في دمشق يصعب دواؤها ، وليست المسألة مسألة تقرب رجل أو رجال من اركان الدولة او اصطلام تائر وخارج على الجماعة ، وقد سرت روح الغضب حتى إلى اقرب الناس من الآل الملوكي ، وقوة نور الدين تشتد وشائجها ودعوتها تزداد انتشاراً اليوم بعد اليوم ، فلم يسع اولى الامر في دمشق سنة ٥٤٠ هـ الا تقرير الصلح بينهم وبينه ، فاقامت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة

والسلطان ، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبذلا له الطاعة واعادهما الى عملهما وطيب قلوبهما « ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره » . عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين امام قوة القاهرة ، عملاء وهما يسران حسواً في ارتغاء على امل ان يقلبا لنور الدين ظهر المجن وينتقامنه باعتصامهما بالصلبيين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) ان يسوق عسكره الى دمشق فنزل اوائل جنده على ارض عذراء وقصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب في سفح قاسيون وكنوا عند الجبل لعسكر دمشق ، ثم وصل نور الدين في عسكره ونزل على عيون فاسرياما بين عذراء ودومة وامتد عسكره الى ضمير ونزلوا في ارض حجيرا وراوية في الجنوب في خلق كثير ، ثم نزل في ارض مشهد القدم وما والاها من الشرق والغرب ، وكان مبلغ منتهى الخيم الى المسجد الجديد قبلي البلد اي ان العسكر النوري احاط بدمشق من اطرافها الاربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلاً ما نزله احد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين ، وارسل نور الدين الى مجير الدين يقول : « كنت اتفقت معكم وحلفت لكم ، والآن قد صح عندي انكم ظاهرتم الفرنج فان اعطيتوني عساكركم لاجاهد في سبيل الله رجعت عنكم » فلم يرد جواباً . وجرى بين اوائل العسكر وبين من ظهر اليه من البلد مناوشات ولم يزل نور الدين مهملًا للزحف على البلد اشفاقاً من قتل النفوس واشتخاف الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت ايدي المفسدين من الفريقين في العيث ، وحصدت زراعات المرج والغوطة وضواحي البلد ، وخربت مساكن القرى ونقلت انقاضها الى البلد ، وزاد الاضرار ياربها من الدُّنَاء والفلاحين ، وتزايد طمع الرعاع والاء باش في الشهاى والفساد ، ثم رحل العسكر النوري ونزل في اراضي فذايا وحافلتا المصاقبة للبلد ، ونشبت المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجالته ، ثم رحل نور الدين الى ناحية داريا لتواصل الارجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للانجاء ليكون قريباً من معابرهم ، وبعد ذلك رحل الى ناحية الزبداني استجاراً لهم ، وجعل من عسكره اربعة آلاف فارس ليكونوا في اعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج ولقسائمهم ، ونزل الفرنج على

نهر الاعوج ، وخرج مجير الدين وموئده في خواصها واجتمعوا بملكهم وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة ، ونقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال اعماله . ثم رحل عسكر الفرنج الى رأس الماء ولم يتهياً خروج العسكر الدمشقي اليهم اعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف اليهم من العرب ناحية الفرنج للايقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج الى لجاة حوران للاعتصام بها . ثم زحف نور الدين على دمشق وقد رأى خيانة صاحبها ومماشاته للفرنج حرصاً على دمشق من السقوط في يد العسكر النوري الذي عرضه صاحبه فذكر انه بلغ كمال ثلاثين الف مقاتل . وكان العسكر النوري يزداد كل يوم قوة وعسكر دمشق ضعفاً . وتخرج نور الدين من قتال المسلمين وما زال يميل الى حقن الدماء لعله بان خيانة حكومتها لا تكون وان تكون سبباً للعبث بالغرض المقدس الذي يرمي اليه من انقاذ البلاد ولطالما قال : « اني أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة اعدائهم » .

قال في مرآة الزمان : وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولما قرب الفرنج من داريا أشار على نور الدين خواصه وقالوا : نبقى بين الفرنج وبين عسكر دمشق فارتفع الى الزبداني ووصل الفرنج الى داريا في جمع قليل وخرج مجير الدين والمؤيد اليهم واجتمعوا بملكهم فما صادفوا عندهم من القوة ما كانا يظنان ، فاتفقا على نزول الفرنج على بصرى فانهم اعصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وضايق الفرنج بصرى فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال ، فعاد الى دمشق فنودي في دمشق بالعسكر الاحداث بالخروج الى قتاله فلم يخرج الا القليل لما وقّر في نفوسهم من استنجد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج . ولما تجلت لمجير الدين غلظته في مفارضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظاً لملكه الا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه ، ودخل مجير الدين على نور الدين في حطب فبالغ هذا في اكرامه وقرر معه تقريرات اقترحها ، ومن صارع الحق صرعه .

مقاصد نور الدين / كانت همه نور الدين منصرفة في كل أطواره الى توحيد
 وفتح دمشق / القوة الاسلامية في البلاد ، والامارات الاسلامية كما في
 التاريخ العام كانت على عهد الحروب الصليبية ثنائى وتمزق على الدوام بحسب طوابع
 الحروب والدسائس التي تقوم ثورتها بين الامراء ، وبحسب انتقال الملك ونقسيه ،
 وامتياز الأسر وكان ولا سيما في جبال الشام من الامراء من لم تكن ارضهم لتجاوز
 ربض قلاعهم وضاحتها كصاحب شيزر ، ولذلك عامل نور الدين مجير الدين صاحب
 دمشق على ما بدر منه من الاغلاط النابية عن حد الوطنية والقواعد الشرعية معاملة
 رفيق واغضاء ، لان المقصد جمع شمل البلاد ، والسؤدد مع السواد . ومما أفاد في
 هذا العقد وصول الاسطول المصري الى الساحل في سبعين مركباً حربياً مشحوناً
 بالرجال واقترابه من يافا فقتل وأسر وأحرق واستولى على عدة وافرة من مراكب
 الفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك .
 قال ابن ميسر : وظفر الاسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلهم عن
 آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهم بقصد الفرنج في البر
 ليكون هو في البر والاسطول المصري في البحر فعاقبه عن ذلك الشغل باصلاح دمشق
 ولو اتفق مسيره مع الاسطول كان يحصل الغرض من الفرنج ، وكان من جملة ما انفق
 العادل بن السلار على هذا الاسطول ثلاثمائة الف دينار .

بيد انه لم تنف همته عند هذه الغاية واهتبل الغرة وشغل المحتلين في الساحل
 بما نزل عليهم من بلاء الاسطول المصري ، فعزأ بلاد الشمال وأسر جوسلين صاحب
 تل باشروملك قلاعه وهي تل باشر -- وكان الامير حسام المنجي قد فتحها باسم
 نور الدين وهو على ابواب دمشق (٥٤٦) -- وعينتاب ودلوك -- وكان القتال على
 هذه شديداً جداً -- وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن
 البارة وكفر سود وحصن بسرفوت بجبل بني عليم وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وذلك
 في أيام يسيرة . وهذا الفتح والفتح الذي تم على يده في السنة الفائنة (٥٤٥) من تسلم
 قلعة افامية جعل نور الدين صاحب الشام . وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع
 قد جمع الشجاعة والرأي ، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهمزم

المسلمون وقتل منهم وأسرى جمع كثير ، وكان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيده الى الملك مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وقال له : هذا سلاحدار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه .

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه واعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة لياخذ ثأره . وأحضر جماعة من الامراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه لانه علم عجزه عنه في القتال فيما قيل فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه الى نور الدين أسيراً . وقال ابن الاثير : وعظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين ، وخلت بلادهم من حاميتها وثغورهم من حافظها ، وسهل امرهم على المسلمين بعده وكان جوسلين كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهده ، طالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقية غدره ، وحق به مكره ، ولا يحيق المكر السيئ الا باهله . فلما أمر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج وقلاعهم . وعني نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة والسلاح ، وكان كلما فتح حصناً نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون خوفاً من نكشة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو . وكان نور الدين وابوه اذا فتحوا قلعة جعلوا فيها من المؤنة والذخائر ما يكفيها عشر سنين .

وأغار هذه السنة فريق واخر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج وأسروا ولم يفلت منهم غير الوالي وفقر يسير . وقصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافرة من الضياع من رجال ونسوان وشيوخ وأطفال فلحقهم صاحب بعلبك واسترجع منهم بعض ما أخذوا وعادوا على أقبح صفة من الخذلان .

وافتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطربطوس وقتل من كان فيه من الفرنج وطالب الباقون الامان ، وملك عدة من الحصون بالسيف والسبي والاحراق والخراب والامان ومنها دلولك ويحمور ، بعد ان اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انزعم الفرنج ، وتوجه مجير الدين سيفي العسكر الى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصراً لرجال واليه المخالفة وجوره ، وما زال به حتى نزل على حكمه . وأراد

مجير الدين المصير الى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك ،
اذ لا سبيل الى استنقرار حالة دمشق اذا كان المستولون على بصرى وصرخد يمتدّون
الى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلمهم في أيديهم كما فعل سيف الدين
الطنطاش نائب امين الدولة صاحب بصرى وصرخد واستعان بالفرنج على المسلمين
فاضطر معين الدين اتسر الى قتاله ونازل القلعتين فملكهما . والولايات مضامير الرجال .
وقوي عزيم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر والتركمان من البلدان للغزو ونصرة
أهل عسقلان على الفرنج ، وكان هؤلاء شغلوا بامر عسقلان منذ السنة الفائتة
لامداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم ، ووصل الاسطول المصري
الى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بقوة وافرة من
مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان وداهموها من جوانب سورها فهدموا
وقتل من الفريقين خلق كثير ، وألجأت الضرورة الى طلب المال فأجبيوا اليه فخرج
أهلها في البر والبحر الى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان وكانت خلفاء مصر
والوزراء يجهزون اليها المؤن والسلاح ، ولو لم تختلف أهواء أهل دولة مصر ويقتل
العادل بن السلار لما جراً الفرنج على حصر عسقلان والظفر بمن فيها والتحكم في
ضرب غرامة عليها . وملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس وقتل من كان فيه من
الفرنج والارمن ونهض عسكره طالباً بانياس . وفي سنة ٥٤٩ وصل نور الدين في
عسكره لامداد اسدالدين شيركوه وكان أرسله الى دمشق في كتيبة ، وخيم بناحية
القصب من المرج . ونزل نور الدين بعيون فاسريا عند دومة ورحل في الغد ونزل
بارض الضيعة المعروفة ببنت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقيه ، وخرج
اليهم من عسكره وأحدثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين
الى مكانه ، ولم يبرح نور الدين يزحف يوماً بعد يوم حتي افتتح دمشق على أسير
وجه ، والنفوس فيها متطلعة الى طلعه لما كان يبلغ القاصي والداني من عدله وحسن
سيرته ، ولما أحس صاحب دمشق مجير الدين ابق (أرئق) بن محمد بن بوري بن
طغتكين بالغبلة انهزم في خواصه الى القلعة فأنفذ اليه وأمنه على نفسه وماله فخرج
الى نور الدين فطيب نفسه ، ونادى نور الدين بالامان وخرجت دمشق من أيدي

أحفاد الانابك طغتكين آخر الدهر بعد ان دانت لسلطانهم اثنتين وخمسين سنة :
وكل حصن وان طالت إقامته على دعائه لا بد مهيدوم

الداعي لنور الدين | والسبب في فتح نور الدين دمشق ما قاله المؤرخون
على فتح دمشق | المعاصرون من تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم
عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قبرا
منهم كل من أراد الخلاص ، فحشي نور الدين ان يملكوا دمشق ، فآمال أهلها في
الباطن ثم حاصرها وفتحها . قال في الكامل : وسبب حرصه على ملكها ان الفرنج
لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان ولم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها
لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق .
وعلى هذا الفتح سبط ابن الجوزي بما ظهر من مجير الدين ، من الظلم ومصادرة
الدمشقيين وسفك دمائهم وأخذ أموالهم ، وقبضه على جماعة من الاعيان ، واستدعى
سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما اخرج أخاه وجيه الدولة منها
فقتله في القلعة ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ونهب أموالهم . وتكاثر مكاتباته
الى الفرنج يستنجدهم ويطعمهم في البلاد . وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق انه
كان في عزمه خلاص القدس من الفرنج وبلاد الساحل وكانت دمشق في طريقه .
وطمع الفرنج في مجير الدين وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى
باب دمشق فيقتلون ويأسرون ويسبون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة
قطيعة يأخذونها منه ، وذل الاسلام وأهله في أيامه ، وساءت سيرته وكثر فسادهم ،
فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث الغياث وقالوا :
ان شئت حصرناه في القلعة . فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف وقال : ان
أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد فيكون وهنا عظيماً على الاسلام .

وكان من أشد الامور على الفرنج ان يأخذ نور الدين دمشق لانه كان أحرق
قلوبهم وحرق بلادهم ، وكان في كل وقعة يغني غنائاً حسناً ، هذا ودمشق ليست له
فكيف اذا أصبحت في حكمه ، لاجرم أنه يتقوى بها وتقوى كلمته ولذا عدل اليه ملاطفة

مجير الدين ومكاتبته وبعث اليه بهدايا فانس به وصار يكتبه ويستشيريه ، فكان نور الدين يكتب اليه ان فلاناً يكتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم وتارة يبعثهم ، نزلت دمشق من الامراء ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلي وكان صاحب بعلبك قد رد اليه مجير الدين امر دولته وكان ظالماً ، فكتب نور الدين الى مجير الدين بقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه العلم نور الدين انه لا يتم له امر في دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجير الدين وأمر بقتله فقال له عطاء : لا تقلني فان الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك وسترى ، فلم يلتفت اليه وقتله وحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى أحداثها وأعيانها فأجابوه ، فسار اليها ونزل عليها وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجدهم وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة ، وبلغ نور الدين فأرسل الى الأحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين في القلعة ، وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا قال : ولما دخل نور الدين صاح أصحابه « نور الدين يا منصور » وامتنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره .

سئمت النفوس في دمشق من سوء ادارة المتغلبين على أحكامها ، امثال الوزير حيدرة ومجاهد الدين بزان وعطاء الخادم وغيرهم ، ممن لم يكونوا يهتمون بغير املاء بطونهم وجيوشهم من دماء الرعية ، ولوا أصبحوا عبيداً أرقاء لاعدائهم . اما مجير الدين آخر ملوك الاتابكية في دمشق فان نور الدين لما غلبه بذل له اقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فلم يجير الدين القلعة الى نور الدين وسار الى حمص فلم يعطه اياها نور الدين واعطاه عوضها بالس فلما يرضها مجير الدين وسار عنها الى العراق وأقام ببغداد حتى مات بها . وهذا من غريب ما يحكي في باب العدل فان الملوك جرت عادتهم في تلك العصور اذا أخذوا ملكاً ان يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تخرجاً من اوراق الدم الحرام واستحكام الطوائف والثارات والاحقاد في امة أشد ما تكون الى التضافر فأعطى نور الدين حمص اقطاعاً لمجير الدين حتى لا يقطع له أمه ثم عوضه عنها ببالس لان حمص على مقربة من بلاد الصليبيين . ومن خان أمته وهو

عهد عزه أقرب الى خيانتها في دور شقائه وذله ، اما بالس (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق والغرب . وماء الفرات أسوغ للعاصي مجبر الدين من ماء بردى والعاصي . والمقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام ، وهذا قد تم لنور الدين بفتح ابواب دمشق لعدله العمري ، وخروج آخر الاتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام .

لم يتبدل شيء بفتح نور الدين دمشق الا إبطال المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القوة الى مقصد واحد لا تنزل بالتردد والدسائس ، ولذلك كانت معظم وقائع نور الدين مخالفة للتوفيق في السنة التي صفت البلاد له أخذ من الفرنج تل بالشر وفي سنة ٥٥٠ تقررت المودعة بين الملك العادل نور الدين صاحب دمشق وبين ملك الفرنج مدة سنة ، وقبض نور الدين على ضحاك والي بعلبك وتسلم القلعة وفي السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب وتقرر المودعة والمهادنة بينه وبين الفرنج مدة سنة وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية^(١) ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى الشعراء المجاورة لهم ووقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الاترك تقصير فانهز الفرنج الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركان وغيرهم . وأغار الفرنج (٥٥٢) على ارجاء حمص وحماة وأطلقوا أيديهم بالنهب ، وأغاروا على بانياس ، فأنصر المسلمون ومحقت السيوف عامة رجاله الفرنج ومسلمي جبل عامله المضامين اليهم ، وملك الفرنج جبلة وكانت في أيدي المسلمين منذ سنة ٤٧٣ وثب عليها قاضيها ابن خليعة النسخي واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم وكانت بيدهم منذ سنة ٣٥٧ ، وظفر أسد الدين في جماعة من شجعان التركان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت . وافتتح نور الدين بانياس قهراً وظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم الا اليسير ، وعسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية وبانياس فنهض

(١) اي من ضرب الفرنج في صور .

اليهم نور الدين في عسكره من الاتراك والعرب فكتب له النصير عليهم ، وشاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التي حدثت في الشام ولكنهم شغلوا أيضاً بما أصابهم من أضرارها في الساحل . وملك نور الدين بعلبك وقلعتها ، وكانت بيد انسان يقال له الضحاك البقاعي كان ولاء اياها صاحب دمشق فامنع بها الضحاك فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلاطف معه حتى ملكها . وفيها كان انقراض الهدنة بين الفرنج وملك مصر فبعث بسرية الى غزة ونهبت اطرافها وسارت الى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بالغنائم الى مصر ، ثم سير عسكر آخر فبضى الى الشريعة فابلى بلاءً حسناً ، وندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فلوقعت بمراكب الفرنج فأسرت منهم وغنمت ، وسير عسكر الى بلاد الشوبك والطفيلة فعاثوا في تلك البلاد ورجعوا بجزء الحقايب يحملون الاسرى ، وسير الاسطول المصري الى عكا فأسر من اهلها نحو سبعائة نفس بعد حروب ، وندب سرية اردفها باخرى فوصلت غاراتهم الى اعمال دمشق فغنموا وعادوا .

وملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) وشنوا الغارة في الاعمال الشامية واطلقوا ايديهم بالنهب والارباب في اعمال حوران والاقليم ، وقصدوا داريا ونزلوا عليها ، واحرقوا منازلها وجامعها واثارها في اضرابها ، فخرج اليهم من العسكرية والاحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع . واغار عسكر نور الدين على اعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا احسن غنيمة وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنمهم وقتل اكثرهم وامر الباقون . وتجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهزم هذه المرة نور الدين لثمن عسكره في البلاد ، وسار عسكر مصري الى بيت المقدس فعاث وخرب وجرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج وافلعت نجس شوان من مصر فدمرت ساحل الشام وظفرت بمراكب الفرنج وعادت بالغنائم والاسرى . وفي سنة ٥٥٤ جشد ملك الروم ووصل الى الشام وجمع نور الدين عليه العساكر فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون .

مرض نور الدين وابلاله
وأتم فتوحه وهزيمته في
البيعة

من اعظم البلاء على ممالك الاسلام قديماً ومسالمة
وراثه الملك ، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة والنهمل
فيها للقوة ، وصاحبها قد يحرم غيره من هم اقرب
نسباً من السلطان المتوفى ، فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضاً شديداً ارجف بموته
بقلمة حلب فجمع اخوه امير ميران بن زنكي جمعاً وحصر هذه القلعة وكان شيركوه
بمخمس وهو من اكبر امراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولي عليها وبها اخوه نجم
الدين ايوب ، فانكر عليه ايوب ذلك وقال : اهلكتنا والمصلحة ان تعود الى حلب
فان كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وان كان قد مات ، فلما في دمشق
تغل ما تريد من ملكها ، فعاد شيركوه الى حلب شديداً ، وجلس نور الدين في شباك
يراه الناس ، فلما رأوه حياً تفرقوا عن اخيه امير ميران . ولما ابل نور الدين من
مرضه واستقامت الاحوال اخذ حران من اخيه لظمع هذا في ملك نور الدين عندما
كاد الناس يأسون من سلامته . وقصد صاحب صيدا (٥٥٦) من الفرنج
نور الدين محموداً ملتجئاً اليه فأمنه وسير معه عسكرياً يمنعه من الفرنج ايضاً فظار عليهم
في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وكان زهر الدولة بن بختر النخعي
والياً على نهر بيروت ومقيماً بمخيم سرحور فولاه نور الدين القنيطرة وجلبايا بالبتاع
ونظير الاحمر من وادي التيم وبرز صيدا والدامور والمعاصر فوقانية وشارون
ومجدل بعنا وكفر عمتة ورتب له علائف لمحاربة الفرنج ، وكان ابوه شرف الدولة
قائماً في عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على الفرنج . وآل تنوخ من اكبر
القبائل التي حضرت من معرة النعمان .

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم وهي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج وراسلوه
ولاطفوه وكانوا خلقاً عظيماً فرحل . ومن اعظم الوقائع التي اصاب بها نور الدين
بالفشل اكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البيعة بينا كان نازلاً
تحت حصن الاكراد فلم يشعر نور الدين وعسكره الا وقد اظلت عليهم صلبان الفرنج
وقصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة وفي يده الشجعة فنزل انسان كردي
فقطعها ففجأ نور الدين وقتل الكردي وسار نور الدين الى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق

به من سلم من جيشه . وقد نقل سبط ابن الجوزي في تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن
لمسلمين بركة (انقال) ولا طليعة ظناً من نور الدين انهم لابقا مون عليه قال : وكان ذلك
من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ولم يستظفروا بالبرك والطلائع قال : وكان من
عزم الفرنج قصد حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : ما فعل هذا الا
عنف قوة وتوقعوا ثم نفروا وخاطبوه بالصلح فلم يجيبهم وتركوا عند حصن الاكراذ
من يحصيه وعادوا الى بلادهم .

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل وماردين والحصن
وذكر لهم ما تم عليه فأجبدوه بجيوش ضخمة وكانت سنة ٥٥٩ كبلها فتوحاً نافعة كان
فيها مبدأ سعادة نور الدين ، فتح فيها حارم وقتل بالقرب منها عشرة آلاف وأسر
الوفاء ومن جملتهم صاحب انطاكية والقومس صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم
وكثير الاسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينسار ثم فاداهم نور الدين . وكان قد
استغنى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع وقال آخرون : يفادي بهم . فقال
نور الدين الى الفداء فأخذ منهم ستمائة الف دينار مجزلاً وبخيلاً وسلاحاً وغير ذلك .
فمكّن نور الدين يخلف بالله ان جميع ما بنى من المدارس وارتبط ومارساتات
وبغيرها من هذه المفاداة وجميع ما وقفه منها وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

قال المؤرخون : وكان الصليبيون جاؤا لنجدة حارم « في حدهم وحديدتهم وملوكهم
وفرساتهم وقسوسهم ورهبانهم » ووضع نور الدين في حارم سطلين كاتا يوقدان
طول الليل لئلا أسرى المسلمين الهاربين اليها من ارض الصليبيين . وكان الصليبيون
استولوا على حارم سنة ٤٩١ وزادوا سيفه تحصينها وجعلوها ملجأ لهم اذا شنوا الغارات
فحاصرها نور الدين سنة ٥٥١ ثم سنة ٥٥٧ ثم فتحها هذه السنة ، وكانت قلعة حصينة في
فحور المسلمين . وفي هذه السنة (٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من حارم
وكان الفرنج والارمن على حارم ثلاثين الفا ووقع يمينه في أسره وباعه نفسه بالـ
عظيم انقه في الجهاد .

حملة نور الدين { فتح نور الدين تلك الفتوح ورايته منصوره وسطوته
على مصر } محدورة ، استصفي من ضعاف امراء المسلمين ما اتصل اليهم
بالارث من البلاد فنزلوا له عنها طوعاً او كرهاً ، واقصد في اهراق دماء المسلمين وأسرف
في ازهاق أرواح الصليبيين واسترجع من الاعداء مدناً وحصوناً مهمة جعلت أماراتهم
الثلاث الباقية تهتز أعصابها وتخاف بأس حملاته وغزواته ولم يخامرهم شك وهم
يستنشئون أخباره انهم ابتلوا برجل وحشد قوى الشام وجمع القلوب ووجهها الى وجهه
معينة : قتال الصليبيين واسترجاع القطر منهم .

ولما تم له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور وضرغام من وزرائها (٥٥٩)
وكانت عدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين بتولاها من
يستطيع ان يستجيش له أنصاراً وأعواناً ولما استلب ضرغام من شاور وزارته وعجز في
مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلاً له ثلث
أموال مصر بعد رزق جندها ان هو أعاده الى الوزارة . فرأى نور الدين ان
معاونة الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقلها انها تفتح له سبباً الى التدخل
في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها وضمها الى مملكته او نقاضي ما وعد به
شاور من الاموال ينفقها في وجوه المصالح والمرافق في الدولة . فأرسل حملة على
مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للاسلام من عدة أبواب .

انقضى رأي نور الدين بعد تدبر امر مصر ان يندب لها رجلاً من أعظم رجاله
دهاءً وحنكة ، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شادي واصحبه بابن اخيه صلاح الدين
يوسف وكانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة واستنقصه نور الدين « والحقه
بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » وكانت في تلك السنة ثمانية دمشق
فأخاف اللصوص وقضى على نائره الفن وفي تلك الفن قال عرقلة الشاعر :

ذر الاتراك والعربا وكن في حزب من غلبا

بجأت أصبحت فتن تجر الويل والحربا

لئن تمت فوا أسفا وان تخرب فوا عجباً

ذهبت الحملة الى مصر وأعاد اسد الدين شيركوه الوزير شاوراً الى وزارة

العاقد العلوي ولما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشيء مما شرط على نفسه فشق ذلك على اسد الدين وسار فاستولى على بلبس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على اخراج اسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبس ثلاثة اشهر . وبلغ الفرنج ما اصابه نور الدين في الشام من التوفيق وانه اخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصالح وفتحوا له مخرج من بلبس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين .

هذا ما كان من مبدأ دخول الجند النوري الى مصر فقد لقي الا لافي واصكند تعرف قائدهم امراضها وخلصها واطلع على مداخلها ومخارجها ، فكان انجاد نور الدين شاوراً واستنجد هذا بالفرنج درساً زافماً للدولة نور الدين ادركت به كل الادراك انه لا سبيل الى انتقاذ الشام الا بالاستيلاء على مصر خصوصاً والفاطميون كانوا يخافون الفرنج خوفاً شديداً ولا يطبقون مقاتلتهم كما قال مجير الدين . كان هذا ايام كان لهم شيء من السلطان على النفوس وقوة على النساخر والنفور فما بالك بهم وقد دب الضعف في كيان دولتهم وعبث العابثون بعزتها ومنعتها . والا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقياً ، لان الروح الخبيث سرت لصغار الامراء من المسلمين في الاعتصام باعدائهم اذا ضاقت بهم حالهم واتاهم سلطان أعظم من سلطانهم ، ولئن كانت الشام قد تطهرت من جراثيم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية ولكن مصر اذا استهانت بمقدساتها ايضاً يصبح البقاء في الشام خطراً دائماً .

وبينا كان نور الدين يحرق الأرم على شاور وفي نفسه منه حزازات لانه لم يف له بما وعده واستعان على قتال جيشه بالصليبيين عاد شاور على عادته يظلم ويقتل ويصادر ولم يبق للعاقد معه امر ولا نهي فبعث يستنجد بنور الدين على شاور فاعتم نور الدين ان جهز اسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) الى مصر بعسكر جيد عدتهم الفا فارس وامر ايضاً ان يخرج معه ابن اخيه صلاح الدين يوسف الى مصر فامتنع صلاح الدين وقال : يا مولانا يكفي مالقينا من الشدائد . فقال : لا بد من خروجك فما امكنه مخالفة نور الدين . وكانت في ذهاب صلاح الدين الى مصر سعادته وسعادة امته اذ فتح مصر واصبح بعد ذلك ملك مصر والشام على ما سئل به في

الصفحات المقبلة . قال المؤرخون : أحب نور الدين مسير صلاح الدين الى مصر وفيه ذهاب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكته . ورب زارع انفسه خاضع سواه . فاستولى اسد الدين على الجيزة وارسل شاور الى الفرنج واستنجدهم فصاروا فيه أثر شيركوه الى جهة الصعيد فيزعمهم واستولوا شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية ومملكها .

وجعل اسد الدين ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب سيف الاسكندرية وعاد الى الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة اشهر ، فصار شيركوه اليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحمله الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام ، فتسلم المصريون الاسكندرية وعاد شيركوه الى دمشق ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصر بين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

ولكن الحال في مصر لم يسر سيرا حسنا لان الفرنج لم يخلصوا لمصر ، ومن الخطا الفاحش استنجد شاور وزيرها بهم واستعانته بهم على اخراج قائد نور الدين اسد الدين شيركوه منها فارسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية وكان الفرنج ملكوا بلبليس وحصروا القاهرة ، فاحرق شاور مصر لئلا يملكها الفرنج وامر اخلاها بالانتقال الى القاهرة وبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما ، وصانع شاور الفرنج على الف الف دينار .

ولما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج وخلع عليه العاضد واجرى عليه الاتعلمات وماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال واخراج ثلث مال مصر ، وعزم شاور ان يقبض على شيركوه فقبض العسكر النوري عليه وقتل ، ودخل شيركوه القصر فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور امير الجيوش وتولى شيركوه الامر شهرين وخمسة ايام ثم هلك فاحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وثبتت قدم صلاح الدين بمصر على انه نائب نور الدين ،

ويمكن منها وضعف امر العاصد فكان لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بامر صلاح الدين ، واصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين .

* * *

بعض غزوات / ولم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الاشجان سيف الفرنج
نور الدين / وارهاق الحد لقتالهم ، وقويت عزيمته بعد ان اخذ حارم
وبانياس (٥٥٩) على التقدم في فتوحه وكان كلما طالت ايامه ايقن ان القوة القليلة المنظمة
افعل من القود الكبيرة المبعثرة . ولم يتغدى في عمله سوى مقاومة احد اخوته امير ميران
له حتى اضطره الى حربه فمضى اخوه امير ميران الى صاحب الروم وعفا عنه نور الدين
كان السعادة التي اقبلت على هذا السائح من كل وجه ابت الطبيعة الا ان تكدرها عليه
بشا كسة احد اخوته له وكان بالامس لما أرجف بموت نور الدين في حلب قام
بطالب بمملكة اخيه فخاربه واليوم يحمل اخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما بدر
من سيئاته .

وفي سنة ٥٦١ فتح نور الدين حصن المنيطرة وخرب قلعة الكاف في الربة وفتح
العرمية وصافيتا وحاصر حلبه وخربها لو حاصر عرقه وعدا عليه غازي بن حساب
صاحب منج فاعطاه الرقة . واجتمع باخويه (٥٦٢) قطب الدين وزين الدين بجدة
للغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فخرّبوا هونين .

وفي سنة ٥٦٥ سارت الفرنج الى دمياط وحاصروها خمسين يوما وشحنها صلاح
الدين بالرجال والسلاح والذخائر وغرّم على ذلك اموالا عظيمة وخرج نور الدين
فاغار على بلادهم بالشام فرحلوا عائددين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها . وفيها
سار نور الدين الى الكرك وحاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر الى البلقاء
وقال بعضهم : ان الفرنج اغاروا على ناحية روابد في حوران وهم في جمع غلبت كثرته
الخير والعيان ، وتزلوا في قرية شمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ثم نزلوا
بالشلاله ونزل نور الدين في عشترا وبينا هو في البلقاء حدثت زلزلة دائلة في الشام
فخرّبت معظم اسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفا عليها من العدو وكانت
قللهم الحجارة ليعربى ولحصى الاكراد وصافيتا وعرمية وعرقه في بحر

من الزلازل غرقى ولا سيما حصن الكراد ، فإنه لم يبق له سور واغارت سرية
لنور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر لم يفلت منهم الا
من لا يعتمد به وقتل فيمن قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الكراد وكان
من الشجاعة بمحل كبير وشجى في حلق المسلمين .

وغزا صلاح الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان وعاد الى مصر ثم حصر أيلة
في العقبة المصرية بجرأ وبرأ وفتحها . وغزا عرقة (٥٦٧) وفتحها وغنم الناس غنيمة
عظيمة . واستولى على صافيتا وعريمة عنوة ، وقارب طرابلس وهو يذهب ويخرب
ويحرق ويقتل وفعل جيشه في جهة انطاكية مثل ذلك ، فراجع الفرنج وبذلوا له
جميع ما اخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر الى اللاذقية واخذوا
الفرنج وهما مملوءان من الامتعة والتجارة ، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فذكشوا
وغدروا فلما خربت بلادهم اذعنوا .

قيام بني شهاب من حوران) وفي سنة ٥٦٨ كان قيام آل شهاب من حوران
وحر بهم الصليبيين) الى وادي التيم قال الشهابي : وكان الكبير منهم
في ذلك الوقت الامير منقذ ، ولما عزموا على القيام جمع الامير منقذ الامراء من بيت
شهاب ووجوه القبيلة وقال لهم انتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين
سلطان الديار الشامية والحلبية والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد
ان السلطان نور الدين يتم ما ينوي عليه وقد دس العساكر في حوران وتعلمون ما لنا
عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة وأنا أرى انه يلزم علينا القيام
من حوران قبل ظهور حال من تلك الاحوال ، فلما سمع الحاضرون ما قاله الامير
منقذ قالوا له : هذا هو الصواب وليس فينا احد يخالف . فقال ، ثم عزموا على القيام
وشدوا ظعونهم وحملوا احمالهم ، ورحلوا من حوران بعشائرتهم وقصدوا غربي الديار
الشامية ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي .

ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران ارسل يسألهم عن
السبب الداعي لقيامهم ، وارسل لهم الخلع والبطايا النفيسة ، وطلب منهم ان يرجعوا

الى اوطانهم آمنين ، فأبوا الرجوع بسبب خراب بلادهم ، وان يسمح لهم بالذهاب الى مكان آخر فسمح لهم بذلك ، فنزلوا في وادي التيم وكانت نزولهم في ببدأ الظير لاجرم من الكنيسة الى الجديدة وكانوا في خمسة عشر ألفاً والبلاد التي نزلوها تحت استيلاء الفرنج فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين ألفاً بين فارس وراجل وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقيف فامده بخمسة عشر ألفاً فالتقوا مع عسكر الفرنج ودام القتال ثلاثة ايام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف ومن آل شهاب ثلاثمائة ونقب بنو شهاب حيطان قلعة حاصيها مدة عشرة ايام واخذوا قنطورا وجماعته وكانوا ثلاثمائة وقتلوه وارسلوا رؤوسهم الى نور الدين فسر كل السرور واعطى البلاد لآل شهاب ملكاً لهم . ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالفرنج في حاصيها ارسل الامير منقذ يطلب منه الصلح وكان في ذلك الوقت الامير يونس المعني بن الامير معن حاكماً على جبل الشوف فجاء وهذا الامير منقذاً في وادي التيم .

وهكذا ادى بنو شهاب خدمة عظيمة للبلاد قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين وصلاح الدين والغالب ان صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسلموا لنور الدين طريق الحملة على صلاح الدين في مصر فلما رأوا انهم لا قبل لهم بنور الدين عرجوا على وادي التيم فكان في ذلك خيرهم وخير دمشق خاصة لانهم وقفوا في غربها وقفه محمودة وردوا عنها عادية الصليبيين .

النور بين نور الدين | قلنا حدث جفاء بين السلطانين والسبب فيه انه لما
وصلاح الدين | قويت سلطة صلاح الدين في مصر وولي ملكها بعد
مهالك عمه اسد الدين شيركوه واصبح الأمر النهائي ارسل نور الدين اليه بأمره بقطع
الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية ، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة ،
فلم يلتفت نور الدين الى ذلك واصر عليه فامر صلاح الدين الخطباء ان يخطبوا
للمستضيء العباسي فامثلوا ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله بقطع
خطبته ولما هلك جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه

وكان شيئاً كثيراً جداً فقويت بذلك شوكته واهتج ملك مصر حقاً وصدفًا :

قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد أتى آخذ الدنيا ومعظمها

وضيق على آل الخليفة الفاطمي حتى لا يتطال أحدهم لدعوى الخلافة بعد العاصد واستدعى من الشام أباه وأخوته وكان نور الدين مع هذا لا يخاطبه توباً بل يخاطب امراءه بمصر ومن حملتهم صلاح الدين ولقد توطد ملك مصر لصلاح الدين والخطبة له فيها بعد نور الدين بدعى لهذا بعد الخليفة العباسي وكما مضى شهر يزداد نور الدين استيجاشاً من صلاح الدين مع ان صلاح الدين سد ابواب الشك على نور الدين ، فقام بجميع رسوم التعظيم له وكان معه كقائد مع سلطانه ، وكان صلاح الدين نازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً ان يأخذه نور الدين واعتذر بأنه ربما نشبت الفتنة في تغيبه عن مصر : دعا دعاة العبيد بين الى ارجاع دولتهم .

ولما جاء نور الدين الكرك من قابل وعصرها (٥٦٨) كان قد واعد نور الدين ان يجتمعاً على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين واعتذر بمرض أبيه وأنه يخشى ان يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وفي الواقع ان ايوباً والد صلاح الدين قضى نحبه في تلك المدة . ولكن كان في نفس كل من نور الدين وصلاح الدين شيء على صاحبه فلم يخرج صلاح الدين بمسكرة الى الشام لحصار الكرك والشوبك ونهب اعمالها الا لما ايقن ان نور الدين ابتعد في سمت الشمال وقصد بلاد قلعج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش وبهسنى حتى لا يجتمع به . والسبب الذي دعا صلاح الدين الى حصار الكرك والشوبك وقتل بعض العربات ونهب ديارهم هناك ان جماعة من العرب النازلين بارض الكرك كانوا ينقلون الاخبار الى الفرنج واذا أغاروا على البلد دلوهم على مقاتل المسلمين في بلادهم . وكانت الكرك والشوبك طريق الديار المصرية وكانت اعمالها يغيرون على القوافل منها فتقصد تسهيل الطريق لتصل البلاد بعضها ببعض .

وكان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه في مصر يخاف وآله من نور الدين وكان استقدمهم اليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر فاذا قصد نور الدين شيء

مصر فأتواوه ، فان هنرهم التجأوا الى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره بعسكر الى اليمن ففتحها واستقرت بلاد اليمن في ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسي ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين علي ان صلاح الدين لم يستطع ارسال العسكر من مصر لأول مرة الا بعد استئذان نور الدين . فهذا وغيره من الاسباب التي أفلقت نور الدين علي ملكه وجاذر ان تكون عاقبة هذا الادب والخضوع اخذ ملكه منه او انشاء صلاح الدين للمملكة جديدة اعظم واغنى من مملكة نور الدين القديمة .

وفاته نور الدين / بنا صلاح الدين يحاذر من نور الدين وهذا يتجهز للدخول وصفاته الطيبة / الى مصر لاختيها اتى نور الدين اليقين ومملكته الحقيقية لم تنجد الشام والجزيرة وخطيب له بمصر واليمن والحرمين ، ففرق الموت شمل من كان يخوف احدهما من صاحبه ، وبكت الامة الملك العادل نور الدين ابا القاسم محمود ابن عماد الدين اتاك لما ظنير من عدله وحسن سيرته بحيث قل في الملوك الغابرين امثاله . قال ابن الاثير : قيد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم ار بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا اكثر تجرباً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره علي عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، فلو كان في امة لا فتجرت به فكيف ببنت واحد ، اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده واموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . احضر الفقهاء واستفتاهم في اخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما افتوه بحله ولم يتعده الي غيره البتة . واسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما بقي سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات وكتب اكثر من الف منشور بذلك . واطلق المضالم بحلب ودمشق وحمص وغيرها واسقط من دواوينه عن المسلمين الضرائب والمكوس وجرمها علي كل متطاول اليها فيكان مبلغ ما سماح به

في حلب وما اليها فقط في السنة ١٥٦ الف دينار وما وقفه وتصدق به مائتي الف دينار وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون الف دينار ، واقطع امراء العرب لثلاثا يتعرضوا للحاج وجدد قني السبل ووقف الكتب الكثيرة ، واجرى على العلماء والقراء . ولقد رأى اصحابه على ما روى ابن الاثير كثرة خروجه فقال له احدهم ان لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان اصلح فغضب من ذلك وقال : والله اني لا ارجو النصر الا باولئك فانما انتم ترزقون وتنعصرون بضعفائكم . كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم على فراشي بسهام لا تحطي واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رأي بسهام قد تصيب وقد تحطي . وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان اعطيه غيرهم . واجزم الناس من اذا وضع له الامر صدع به . وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والبيمارستانات واخذ من احد ملوك الفرنج ثلاثمائة الف دينار وشرط عليه ان لا يغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة ايام وأخذ منه رهائن على ذلك وبني بالممال المستشفى النوري بدمشق ، ولما بلغ الملك الفرنجي مأمنه هلك . وكان يبعث بما يصل اليه من هدايا وغيرها الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئا ، وامر باحصاء مساجد دمشق فأحصيت فكانت مائة مسجد فأوقف الاوقاف على جميعها وكانت وقوفه في الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا صحيح الشراء . وكان آية الرحمة على الفقراء والعدل في الرعية غضيضة عن الشرع عنه ثقيلة عن الباطل قدمه . حضر جماعة من التجار عنده وشكوا ان القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد ونقص فيخسرون ، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال ، فذكروا ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط وانما يعدون الى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدينانير الملكية وتبطل القراطيس بالكلية ، فسكت ساعة وقال : اذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني ضربت بهوت الرعية . فان كل

واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، اي شيء يعمل به فيكون سبباً لخراب بيته .

قالوا والحق ما قالوا ان نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات وعاقب من يأتياها ، فانهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همه اخدم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق ومنار العدل وقف مع اوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك اتباعه وذريه فاقتدى به غيره منهم ، وكان يروي الحديث ويرويه ، وقد ألف كتاباً في الجهاد ، وكان مباشر الاشراف على خيل الجند وسلاحهم بنفسه ، ولا يتكلم على قواده ، ولا يقطع امراً قبل ان يستأذن الخليفة ببغداد . وكان في السياسة والدهاء على جانب عظيم ، تجلى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق ولما اخذه اغضى عنه ، وكان يكره اهراق الدماء والحرب على غير طائل ، مع شجاعة ليس بعدها مزيد ومعرفة بالرماية تضرب بها الامثال ، ومن جيد الرأي ما سلكه مع ملج بن ليون ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وخضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : انما حملني على استيلائه ان بلاده حصينة وعرة الممالك ، وقلاع منيعة وليس لنا اليها طريق ، وهو يخرج منها اذا اراد فينال من الاسلام ، فاذا طلب المنجز فيها فلا بقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الاقطاع على سبيل التآلف حتى اجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . وكان يملك الروم خرج من قسطنطينية وتوجه الى الشام ظامعاً في تسلم انطاكية فشغله عن مرامد بالمراسلة الى اب وصل اخوه قطب الدين في جنده من المواصلة وجمع له الجيوش والعساكر ، فايس الرومي من بلوغ ما كان يرجو وتمني منه الصلح فاستقر رجوعه الى بلاده .

وقال مترجموه انه كان يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج واكثر ما ملكه من بلادهم به ، اما اعماله في رد المظالم وتخفيف المغارم فسيرته فيها سيرة عمرية . واما انشاؤه المدارس والجوامع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات فها لم يسبق اليه ، فاقام الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنج

جعل فيها من يحفظها ويهيم الطيور الهوادي اي الزاجل فاذا رأوا من العدو اجداً
ارسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم ، وبني مكاتب للايتام واجري
عليها وعليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم واهله
مقر العلم ونبأه الفقه .

هذا حال ملك القرون الوسطي وحسن بلائه في خدمة بلاده وهو يقاتل الاعداء
في الغرب والجنوب ، وقد فتح نيماً وخمسين حصناً واقام المعالم وهو مشغول بمحافظ
الإوطان ، لم يدخل اليأس على نفسه ولم يناميره الشك بان العاقبة المحيودة تكون
له وإلامته ، وانه سيظهر على عيونه فيدفعه عن حجاب . هذا وملككم في الشام لم تتجاوز
مدته السعيدة اربعاً وعشرين سنة . لا جرم ان ظهور بني زنكي نعمة أنعمت بها
الإقدار على هذه الديار ، فخرجت بها من انقسام الكلمة وتشتت الاهواء والآراء ،
ومن خيانة الملوك والامراء ، والإعتضاد بالمحاربين من الاعداء الى تماسك ونعاضد ،
ومن ظلمة الجهل والغرور الى ضياء العلم والنور ، ومن سلب اموال الامة الى ابتاعها
بالعبدل الشامل والأمن الكامل . بسقت فروعها في ايسر زمن واحرج البصير ،
نفطت النابس ودتها في كل مكان وودوا لو كان لها الجحيم عليهم ، ورجا اولياؤها ان
تطول ايامها لانها لا تسوق النابس الا الى طرق فلاحهم وسعادتهم .



الدولة الصلاحية

من سنة ٥١٩ هـ الى سنة ٥٨٩ هـ

— دولة صلاح —

اولية صلاح الدين | توفي نور الدين محمود بن زنكي وكان له السلطان
والملك الصالح | الاكبر على القلوب فحبه ووعيته ويخافه اعداؤه ويحترمه يونه
وبعدله وسيرته وجميل سياسته وادارته ، وطدا اساس ملكه ووحد كلمة الشام ومصر
والجزيرة وانشأ عظمتها في دولته كانوا ساءده الامين وعضده الاقوي ففتحوا الفتوح
باسمه ويمن نقيبته ، وصدروا كلهم عن رأيه ومشورته ، ومن اعظمهم بل اعظمهم صلاح
الدين يوسف بن نجم الدين ايوب . واحصل صلاح الدين من دوين بلدة في آخر
عمل أذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج وهم اكراد زوادية وهي قبيلة كبيرة تعد
من اشراف الاكراد وانتقل اهله من هناك الى العراق ثم عين نجم الدين ايوب
والد صلاح الدين محافظاً للقلعة تكرت وفيها ولد ابنه هذا وكان نجم الدين ايوب بن
شادي عسكراً عادلاً شجاعاً كريماً ديناً محسناً ربي في الموصل وانشأ شجاعاً بأسلاً وخدم
السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، فأرأى منه امانة وعقلاً وسداداً وشهامة ،
فولاه قلعة تكرت فقام في ولايتها احسن قيام ، حتى عمرت ارضها وأمنت سبلها ،
ثم اخضعت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً في انفس الناس بالدين والخير وحسن
السياسة واتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده ونوابه على بلاده . وهذا الرجل
العظيم هو الذي اولد رجالاً اعظم وهو صلاح الدين .

وكان الزمن العصيب الذي ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكاً كفأة اثبتوا بالعمل المحسوس مقدرتهم السياسية والحربية وبرزوا من آثار نجاتهم وجلادتهم ما تطأطيء امامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زوراً ورياءً ولا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل ولا يسمع ان لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قل في طبقة قواد الامم مثلها . ولم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الامر . مثل صلاح الدين . لانه انبغ رجاله واكبرهم مقاماً وشأناً واقربهم الى قلوب الامة ، وهو ملك مصر حقيقة لا صورة ، ومن ملك مصر كان حراً بان يملك الشام خصوصاً والشام يحبه لما بدا من غنائه ومضائه في نصرة الملة والدولة .

ولكن نور الدين قد خلف ولداً وبموجب قانون الوراثة في الملوكة في تلك الاعصر يرث الابن ملك ابيه كما يرث قصرة ومزرعته . هما كانت سنه ، ويتولى رجال الدولة امره ويكفله من يعطفون على دولته ومن غدوا بنعمة ابيه وآله ، بيد ان الحالة السياسية في الشام ومصر وما اليها من الممالك كانت بحيث يقتضي الشدوذ عن هذه القاعدة ولو الى حين ، فيوسد الملك الى من استجمعت اشخاصهم الكفاءة قبل كل شيء لتخرج البلاد من مأزقها الحرج مع الصليبيين ، وهذا لا يتيسر ان ينهض به ولد يافع يبلغ من العمر احدى عشرة سنة ، ونعني به ابن نور الدين الملك الصالح اسماعيل . فانظر كيف تصرفت الاقدار بما فيه خير البلاد ، ولم تترك بمصالحها الخافزة للاصول السخيفة في توسيد الملك للكبير والصغير على السواء .

توفي في دمشق نور الدين في سنة ٥٦٩ هـ وبالحال ملك ابنه الصالح اسماعيل وحلف له العسكر بدمشق واطاعه صلاح الدين . وخطب له بمصر وضرب السكة باسمه ، ودبر دولته شمس الدين بن المقدم من اعظم امراء ابيه ، واستولى سيف الدين غازي شقيق نور الدين محمود على البلاد الجزرية وهي لنور الدين وكان صلاح الدين في مصر ، فجعل الملك للملك الفتى كما كان لابيهِ من قبل . بيد انه من المتعذر ادارة البلاد في ذاك العصر اذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى عامة شروط الحكم . فيصدر عن رأي واجد يحضه اولاً بمشورة رجال دولته ويكون هو المرجع فيه والمسؤول عنه ، يهتم للملك اهتماماً بابنه وابنته . وهن يقيسر ذلك اذا تشعبت الآراء . وكان

صاحب الملك الرسمي قاصراً واوصياؤه يدبرونه وربما كان فيهم من تطمح نفسه الى الاستئثار بالسلطة ، ومتى كان الوكيل كالأصيل ، والمنفل كالمكلف :

ممالك لم يدبرها مدبرها الا برأي خفي او بعقل صبي

اختلاف الآراء ومبدأ استيلاء) ولما بدأت نواجز الاختلاف تبدو بين الامراء
صلاح الدين على الشام) في الشام شعر صلاح الدين وهو بمصر ان
هذا الفراغ الذي حدث بموت نور الدين يستلزم ان يملأه رجل تجمع القلوب على
حبه ، وان يصل السلسلة المقطوعة بملكه والا انفرط العقد كله ، وتصبح البلاد فوضى
ونفتح أبوابها على مصاريحها ادخول الدخلاء يستصفون المملكة كلها ، وتصبح بالشقاق
الداخلي أشنع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الاتابكية أخلاف الأتابك
ظهير الدين .

وانفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس فخرج اليهم
شمس الدين بن المقدم وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وقال لهم : انتم
تعلمون ان صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين ، والآف فقد زال ذلك
الخوف واذا طلبناه الى بلادكم لا يمنع ، فعملوا صدقه وصالحوه ، وتكلموا في الهدنة وحصلوا
بقطيعة (بخراج) استعجلوها واستطلقوا عدة من اسرارهم وتمت المصالحة . وفي تهديد
ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته في قلوب رجال الدولة وان
المسلمين عرفوا انهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تدبيره وشجاعته .

فبلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم والفرنج فأنكره ولم يعجبه ، وكتب الى
جماعة الاعيان كتاباً يقرعهم فيه ويلومهم ، ويقول : انه تجيز وخرج وسار اربع
مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤدنة بذل الاسلام فعاد الى مقره . وقد « استصغر
امر اهل الشام وعلم ضعفهم » وقال : « ان استمرت ولاية هؤلاء نفرقت السكة
الجميعة ، وضائق المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام » . قال ابن شداد :
لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكوف ولده طفلاً لا ينهض باعباء الملك ،
ولا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجيز للخروج الى الشام اذ هو أجل بلاد الاسلام .

وقد كان صلاح الدين بنوي ان يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين وكتب : « ان الوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر اطاع العداة » . ولكن الامراء في الشام اخذ كل منهم يعمل على شاكلته ، ويريد ان يستأثر بالامر دونه وهو أحق منهم وأولى .

ثم ان شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب ورضيع نور الدين واكبر امرائه أرسل سعد الدين كشتكين الى دمشق يستدعي الى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها ، ولما استقر بحلب وتمكن كشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته وقبض الرئيس بن الخشاب واخوته ، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق ، وكتبوا صلاح الدين في مصر واستدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريدا في سبعة مائة فارس فوصل الى بصرى وكان صاحبها يستحثه على القدوم ، ولما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر والنقوة وخدموه ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه ، فصعد اليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال . ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك فنفسد احوالك وتختل امورك ، وما قصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج . فعرض الملك الصالح ذلك على امراء دولته فأشاروا عليه بان يكتبه بالغلظة فكتب اليه منكرأ عليه ، وينسبه الى كفر النعمة وجحد احسان والده ووعده وهدده فساء ذلك صلاح الدين واغضى على القذى وكظم غيظه .

ولما قرر صلاح الدين امر دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن ايوب وسار الى حمص وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرثا في إقطاع نحر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن نحر الدين المقصم بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها كان فيها ولاية لنور الدين وليس لنحر الدين معهم في القلاع حكم الابارين ، فلما

صلاح الدين مدينة حمص وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ودكوها ورحل الى حماة فاستغاث صاحبها بالاسماعيلية وأعطاهم ضياعاً ومالاً ليستعين بهم على صلاح الدين ، فلم يلبث ان ملك مدينة حماة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك احد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح اسماعيل وانما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير الى حلب في رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك وسار الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كشتكين وسجنه ، فلما علم اخوه بذلك سلم قلعة حماة الى صلاح الدين ، ثم سار هذا الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح اسماعيل ، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم ، وارسل سعد الدين كشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوه دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص فعاد اليهم فرجعوا أدراجهم ، ووصل صلاح الدين الى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار الى بعلبك فملكها .

* * *

تملك صلاح الدين ومحاولة ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد ارسل
اغتياله وسر نجاحه الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي
صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فنجيز جيشه ، وطلب اخاه الاكبر عماد
الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة ايضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين ،
ووصل عسكر الموصل وانضم اليه عسكر حلب وساروا الى صلاح الدين فارسل
صلاح الدين ببذل حمص وحماة وان نقر بيده دمشق وان يكون فيها نائباً للملك
الصالح ، فلم يجيبوا الى ذلك وساروا الى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة فانهمزم عسكر
الموصل وحلب ، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال
اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على ان يكون له
ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل ثم ملك قلعة بارين

كما صالح بني رزيك على ان يكون له الى حد المعرفة ولهم ما يلي ذلك فنقض الخلبون الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين وجاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل وديار بكر وحلب وعدتهم عشرون ألفاً بين فارس وراجل وعسكر صلاح الدين ستة آلاف عدداً ما جاء بعد من مصر . وقال رسول سيف الدين الى صلاح الدين انه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحت سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة والى جانبه زردية وسيفه وقوسه وتركاشه (جعبته) معلق في عمود الخيمة ، فلما رأته وقع في خاطري انه المنصور لاني فارقت سيف الدين والامراء وهم على طنافس الحرير والخمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها انواع الحرمان ، فأديت اليه الرسالة وجاء وقت الظهور فضح العساكر بصوت الاذان وفي كل خيمة امام . قال سبط ابن الجوزي : ان صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشاً بالرياحين والمغنون جلوس في انتظاره والخمور تراق ومطابجه بقدرورها وفيه اقفاص الطيور فيها انواع من القماري والبلابل والهزرات فارسل صلاح الدين بما كان في السرداق من المغنين والخمور والطيور اليه وقال للرسول : قل له اشغالك بهذا البق من مباشرتك الحروب ولا تعد الى مثلها . وكانت هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين غازي في سنة ٥٧١ هـ قرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان استنجد بعد هزيمته في قرون حماة بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها وتسليمها وقصد منبج فحصرها وافتتحها عنوة ولما جلس يستعرض اموال صاحبها وذخائره كان في جملة امواله ثلاثمائة الف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة بما يناهز الف دينار ، فحانت من السلطان النفقة فرأى على الاكياس والآنية مكتوباً « يوسف » فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الاموال له فقال السلطان : انا يوسف وقد اخذت ما خبي فتعجب من ذلك (رواه ابن ابي طي) .

ثم سار السلطان الى عزاز ونازلها وتسليمها فوثب اسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضر به بسكين في رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين يدي الاسماعيلي

وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتله ايضاً وجاء السلطان الى خيمته مذعوراً وعرض جنده وابعد من انكره منهم . وهكذا فان صاحب حلب او نائبه او جماعة دولته ، وصاحب حماة او نائبه او حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بايدي الخوارج حرصاً على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به زمناً اولاً يستمتعون ، ولو وفقوا الى قتله لقتلوا به أمة بأمرها حتى يعيشوا سنين في دعة ومجد ، وما اكثر الادعياء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم ، فاذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ انفسهم فقط .

وبعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها وبها الصالح بن نور الدين فسلخوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم اليه وسألوه قلعة عزاز فسلمها اليهم ورفع علي حلب علمه الاصفر ورحل عنها في المحرم سنة ٥٧٢ ورجع من بلاد الاسماعيلية وحصر قلعة مصياف ، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصلح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم الى مصر وسنان هذا هو ابو الحسن سنان بن سلتان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام واليه تنسب الطائفة السنانية وهو الذي كتب الى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان وافتحه بقوله :

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام الى البازي يهدده واستيقظت لاسود البر اضبعه
اخفي يسد فم الافعى باصبعه يكفيه ما قد تلاقي منه اصبعه
ثم اردف هذه الايات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين وقد كتب اليه مرة أخرى :

بنات هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها
فاصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدنا
وفي ذلك بيان لقوة الاسماعيلية في عصر صلاح الدين فكانوا يتهددونه كما يتهددهم ولذلك اغضى في الغالب عنهم وان حاولوا اغتياله غير مرة . ولما بلغ عسقلان (٥٧٣) وشن الغارات على الفرنج طلعو اعليه . وهو في بعض العسكر فقاتلهم اشد قتال وقاربت

حملات الفرنج السلطان فانهزم الى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا مشقة وعطشاً
واسر الفرنج العسكر المتفرق في الاغارة ، وأسر الفقيه عيسى من اكبر اصحاب صلاح
الدين فافتداه بعد سنين بستين الف دينار هذا مع ان جيش صلاح الدين كان نحو
عشرين الفا وقعت الكسرة عليهم لانهم كانوا متفرقين في الغارات وكسروا ومعظمهم لم يعلم
بالهزيمة . وفي هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعاً بهزيمة صلاح الدين وبعده وكادوا يملكونها
فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها الى حارم . وفيها قبض الملك الصالح على
كشكتكين منغلباً على الامر وكانت له حارم فعذب كشكتكين واصحابه ليسلموا قلعة
حارم فاصروا على الامتناع حتى مات من العذاب ، ووصل الفرنج من حصار حماة ،
وحصروا حارم اربعة اشهر فداراهم الصالح بال فرحلوا بعثا عد بلوغ اهلها الجهد ،
ثم ارسل الملك الصالح عسكراً فحصروها وملكوها .

فتوح صلاح الدين | أرسل صلاح الدين (٥٧٤) الى شمس الدين بن المقدم
ووفاة الملك الصالح | ليسلم بعلبك الى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح
الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها وسلمها الى توران شاه (٥٧٥) وبعث السرايا والغارات
الى بلاد الفرنج بعد موت الهنفرى ملكهم وكان هذا يريد ان يغير على دمشق فأخذ
رجال صلاح الدين وأسروه وغنموا ما مع جماعته وفتح صلاح الدين حصناً كان
بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان بالقرب من بانياس ، وكان الفرنج انتهزوا فرصة مقام
السلطان صلاح الدين على بعلبك واشتغاله بامرها فبنوا حصناً على مخاضة بيت
الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فراسل
السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا انه لا سبيل الى هدمه الا ان يعطينا ما نرمننا عليه
فبذل لهم السلطان ستين الف دينار فامتنعوا فزادهم الى اثنى مائة الف دينار
وكان الداوية اصحاب الحصن يقطعون هناك الطرق على القوافل فخر به المسلمون
وكانت الحرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن اخيه نقي الدين
عمر وبين عساكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم وسببها ان حصن رعبان
كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل اليه عسكراً كثيراً

ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفاً فسار اليهم نقي الدين في ألف فارس
فهنزهم وكان نقي الدين يفتخر ويقول هنزمت بألف عشرين ألفاً . وفي هذه
السنة أحرق الاسماعيليه أسواق حلب وافنقر أهلها بذلك وكانت إحدى الجوائح التي
أصابت الشهاب وسكانها . وسار صلاح الدين (٥٧٦) الى بلاد قلعج أرسلان صاحب
الروم ووصل الى رعبان ثم اصطلمحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمني
وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وامسرى أطلقهم .

وفي سنة ٥٧٧ غزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير الى المدينة المنورة للاستيلاء
على تلك النواحي ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين
بدمشق فقصد بلاد الكرك واقام عليها ، ففرق صاحب الكرك جموعه وانقطع عزمه
عن الحركة . وفي هذه السنة توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وعمره نحو
١٩ سنة واوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار اليها
بعد موت الصالح ومعه مجاهد الدين قيناز واستقر في ملكها فكانت له اخوه زنكي بن
مودود صاحب سنجار على ان يعطيه حلب ويأخذ سنجار وأشار قيناز بذلك فأجاب
وعاد الى الموصل .

قال ابن الاثير : ان بعضهم قال للملك الصالح وهو يوصي بالملك بعده ان عماد
الدين ابن عمك ايضاً وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته ولبس
له غير سنجار فلو اعطيته البلد (حلب) نكاح ائمه وعز الدين له من البلاد
من الفرات الى همدان ولا حاجة به الى بلدك فقال له : ان هذا لم يغيب عني ولكن
قد علمت ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ، ومتى سلمت
حلب الى عماد الدين فعجز عن حفظها ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام ،
وان سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا
من جودة فطنه مع شدة مرضه وصغر سنه .

وفي سنة ٥٧٨ قصد صلاح الدين الشام من مصر وأغار في طريقه على الفرنج
وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكفونوا على طريقه لما سار فالتهمز فرخشاه نائب
صلاح الدين بدمشق الفرصة وفتح بعسكر الشام الشقيف واغار على ما يجاوره ونجح

دبورية وجاء الى شقيف حبس جلدك بالسواد من اعمال طبرية وهو حصن يشرف على بلاد المسلمين ففتحته واسكنه المسلمين ونزل صلاح الدين قرب طبرية وشن الغارات على بيسان وجنين واللجون والغور من بلاد الفرنج حتى بلغت عساکره مرج عكا فغنم وقتل ثم عاد الى دمشق وحصر بيروت وغازى على تلك الارحاء ونهب بلدها وكان قد امر الاسطول المصري بالبحر في البحر اليها فساروا ونازلوها وغازوا عليها وعلى بلداء وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد القي بطسه للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كنوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى ١٦٧٦ اسيراً ثم عبر السلطان الفرات الى البيرة فصار معه مظفر الدين كوك بوري صاحب حران واستمال ملوك الاطراف فصار معه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفة وحاصر الرها وملكها وسلمها الى كوك بوري ثم اخذ الرقة وقرقيسيا وماكسين وعربان والخابور جميعاً ثم ملك نصيبين وقلعتها ثم حصر الموصل وبها صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قياز وقد شجنت رجالاً وسلاحاً وحاصر سنجار وملكها واتاه الخبر ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وارادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخبرتم الجامع جددنا عمارته واخرينا كل بيعة لكم في بلادنا ولا تمكن احداً من عمارتها فتركوه .

وفيها تصد الفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف وينقلوا جسده الكريم الى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بعمل أنشأ البرنس ارناط صاحب الكرك اسطولاً في بحر ايلة (العقبة) وجعله فرقتين فرقة حمرت حصن ايلة وفرقة نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة ، ولم يعهد بهذا البحر فرنج قط ، فعمر الملك العادل ابوبكر بن ايوب نائب الناصر تبصر اسطولاً في بحر عيذاب وارسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولي الاسطول بمصر ، فواقع لؤلؤ بمحاصري ايلة فقتل واسر ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة فبلغ رابع ، فادركهم بساحل الحوراء وقتلهم اشد قتال فقتل اكثرهم واسر الباقين وارسل بعضهم الى منى ليعفروا بها وعاد بالباقيين فقتلوا عن آخرهم بمصر .

وملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) وكان وعد بها محمد بن قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وكان فيها خزانة كتب فيها ألف ألف واربعون ألف كتاب فوهبها الوزير القاضي الناضل فانتخب منها حمل سبعين جملاً ، وكان فيها من البخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار ، فوهبها لابن قرا ارسلان هذا ، فلما قيل له في ذلك قال : لا أضرب عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا واصحابنا ونحن انما نريد ان يسير الناس معنا على قتال الاعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ، هذا وبعد مدة قل المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من اخيه العادل ١٥٠ ألف دينار لطعامهم . وفتح صلاح الدين تل خالد من اعمال حلب ثم عينتاب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنكي بن مودود واعطاء سنجار ، وشرط عليه الحضور الى خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاه ، ولا يحتاج بحجة عن ذلك . ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين ابن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . ثم سار صلاح الدين من حلب بعد ان تسلم حارم ونظم امر تلك البلاد وتجهيز من دمشق فأحرق بيسان وشن الغارات على تلك النواحي وأرسل الى اخيه العادل بمصر ان يلاقيه الى الكرك فاجتمعا تاليها وحصرهما ثم رحلا عنها . وسار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فنازل الكرك وكتب الى مصر فسار اليه عساكرها فضيق على من به وملك ربض الكرك ، ولم يتيسر له الاستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه ، فسار الى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر ثم سار الى سبسطية فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين . وفي سنة ٥٨١ حصر الموصل مرة ثانية فسير أتاك عن الدين صاحبها والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرها من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة وكل من عنده ظنوا انهم اذا طلبن منه الشام أجهن الى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين فلما وصلن اليه اعتذر باعذار غير مقبولة وأعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء ، وندم صلاح الدين بعد ذلك على ردهن ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره بقبحون فعله وينكرونه . وسار

صلاح الدين عن الموصل الى خلاط وملك ميافارقين . وغزا البرنس صاحب الكرك (٥٨٢) وأسر قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فأبى فنذر صلاح الدين قتله بيده . وكانت ارنلط من اغدر الفرنجة وانقضهم للموائيق المحكمة والايان المبرمة . وكان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لان زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلاً من الفرنج اسمه كي واخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس وكان طمع فيه ، فراسل صلاح الدين وانتهى اليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصرة والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكانت عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم ، فخل ذلك عنده اعظم محل ، وظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم . قال صاحب السكامل : وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم .

وقعة حطين | وكانت سنة ٥٨٣ سنة مباركة جداً على صلاح الدين
وفتح فلسطين | والمسلمين ، كما كانت عليه ٥٦٤ بفتح مصر واتخاذها من
ايدي الفاطميين . ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا اديم
الشام سنة ٤٩١ فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفاً على الحجاج من صاحبها فأخرب
كما قال من رسالة الى اخيه سيف الاسلام عمارتها واحرق غلاتها ، وقطف ثمراتها ،
وازعج ساكنيها ، واخاف آمنيتها ، واجلى عنها فلاحيتها ، واقام النوايح عليها في نواحيها . واغار
بعض عسكره على عكا وغنموا ثم حصر مدينة طبرية ومعه الجاندارية والخراسانية والحجاريون
والنقابون ففتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس وكان مهادن السلطان فاجتمع
الى الفرنج للحرب — وكانت طبرية تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل
عوف والحياينة ^(١) والسواد وانا صف الجولان وما يقربها الى بلاد حوران — .

(١) الحية ثمانية كورة بالسواد من ارض دمشق وهي كورة جبل جرش قرب

الغور : وجبل عوف هو جبل عجولون .

ثم اجتمعت ملوك الفرنج فارساً وراجلاً وساروا الى صلاح الدين فركب اليهم من طبرية ، والنقى الجمعان واشتد القتال بينهم واحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وبادوهم قتلاً وامراً على قرية حطين بالقرب من طبرية وأسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير وصاحب الكرك وصاحب جبيل وغيرهم من قمامتهم وامرائهم وكان الفرنج في حطين خمسة واربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى الفلّ وقُتل الباقون واستأسروهم فقتل منهم اربعون ألفاً ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته واحضر ملك الفرنج واجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماءً مثلوجاً وسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنلط صاحب الكرك فقال له السلطان : ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون اماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووجه على غدره غير مرة وعلى قصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن جأشه . قالوا وقد عرض السلطان الاسلام على الداوية والاسبتار ، فمن اسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والاسارى الى دمشق ، ثم عاد السلطان الى طبرية وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان وكان فيها ثلاثون الف افرنجي واربعة آلاف اسير مسلم . وارسل اخاه الملك العادل فنازل مجد البابا وفتح عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيثا وصفورية ودبورية والفولة وجنين وزرعين والطور واللجون والقيمون والزيب ومعلبا والبعنة واسكندرونة ومناوات وارسوف وعفرا ولا وريح سنجيل والبيرة وقلونية وصرفند ومجدل الحباب وجبل الجليل وتل الصافية والتل الاحمر وقرينا وصوبا وهرمس والسلع عدا ما تحاطها من القرى والابراج والقلاع . فتح كل ذلك بالسيف وفتح عسكره سبسطية ونابلس وقلعتها بالامان ، وفتح العادل يافا عنوة ثم فتح السلطان تبنين ، وتسلم صيدا خالية ثم بيروت بالامان بعد حصارها . وكان من جملة الاسرى صاحب جبيل فبذل جُزْءاً فاطلق . وحضر المركيس في سفينة الى عكا وهي للمسلمين واقلع الى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً . وذكر المؤرخون ان اطلاق امراء الفرنج من الاسر وحملهم الى صور كان من اعظم اسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا .

فتح القدس | ثم حصر السلطان عسقلان وتسلمها ثم فتح الرملة والداروم وغزة
والرملة | وبيت لحم وبيت جبريل وتبنين والنطرون ومشهد الخليل
ولدت وغيرها ثم نازل السلطان القدس وبد من الفرنج عدد لا يحصى وضايقه بالنقابين
واشتد القتال ، وطلب الفرنج الامان فقال : آخذها مثل ما اخذت من المسلمين بالسيف
فما ودوه فاجاب بشرط ان يؤدي كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل
طفل دينارين ومن عجز أسر وتسلم المدينة في رجب وكان فيها بالضبط ستون الف
رجل ما بين فارس وراجل سوى من تبعهم من النساء والولدان ونال يشو : انه كان
فيها مائة الف صليبي وكان عددهم لما فتحوه ٦١٠٠ فارس و٤٨ الف راجل ولم يكن فيها
لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود وكان يدفع اناوة كبيرة في السنة للملك
حتى بقي فيها .

قال ابن الاثير في معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج في القدس :
ان الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين
من الثقب ارسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة الى صلاح الدين يطلب الامان فابى
السلطان وقال : لا افعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة احدى وتسعين
واربعمئة من القتل والسبي فقال له باليان : ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في
خلق كثير ، وانما يقترون عن القتال رجاء الامان ، فاذا رأينا ان الموت لا بد منه فوالله
لنقتل اولادنا ونساءنا ونحرق اموالنا ولا نترككم نغتمون منا ديناراً ولا درهماً
ولا تسبون وتأسرون رجلاً او امرأة ، فاذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد
الاقصى . ثم تقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ، ولا تترك
لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم كلنا وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى
يقتل امثاله ، ونموت اعزاء ونظفر كرماء ، فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على
اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يري عاقبة الامر فيه
عن اي شيء ينبغي ، فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج .

وكان رأي صلاح الدين اخذ الفداء فنغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته
اولاً من اهرق دماء الفرنج كما اهرق اجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير

الصلبيين في الصلح لاشأن له مع صلاح الدين ، وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي الى مقصد اعلى من جميع مقاصد جماعته وجماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الاخلاق وسماحة الاسلام ، وان لا يثير الحفائظ وهو على يقين من ان اوربا جيشت الا قليلاً لفتح القبر المقدس فاذا قتل من فيه وفيهم الامراء والسادة والقادة وغيرهم يقيم في كل دار في الغرب ، أتمماً وتزيد الطوائل بين الفريقين ، ويهب الفرنج في اوربا الى جمع شملهم ، اكثر مما جمعوا في القرن الماضي ومنصف هذا القرن وتعود البلاد الى خرابها .

وما الفائدة من القتل اذا كان يجب الولايات على فاعله وعلى ذويه . على ان صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن ألوف عادة تلك العصور وما عد عمله شيئاً فرياً اذ يكون قد كمال لهم بالكيل الذي كألوا به لامته . يند ان السماحة التي بدت منه اكسبته وقومه في الغرب استماعراً لا يزال يردد بالخير على كرور الايام ، ودب الفشل في نفوس القابضين على زمام الامر في الغرب فلم يعودوا كما كانوا في الثمانين السنة الاخيرة بأتمرون في الحال باوامر الكنيسة البابوية ، ويحسون الناس ليسيروا بهم على العمياء الى الارض المقدسة . وبهذا العمل انحلت العقدة المهمة الاولى من حروب الصليبيين وكن الخطب سهلاً في الوقائع بعد ذلك في عهد صلاح الدين واخلافه والماليك فصدق في وصفه شاعره عبد المنعم الجلياني حيث قال من قصيدة :

وفيت لهم حتى احبوك ساطياً	بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
نحانوا نجابوا فانتدوا فتلاوموا	فقالوا 'خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ اتى	بقلب سليم راحماً للمسلم
فخطوا بارحاء الهياكل صورة	لك اعنقدوها كاعنقاد الاقائم
يدين لها قس ويرقي بوصفها	ويكتبه يشفى به في التائم

مر الرحالة ابن جبير الاندلسي بالشام وصلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين وافرنج وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم وارفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من

مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار الصليبيين ايضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي الامنة على غاية وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلمهم والارثفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . قال : وهذه سيرة اهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا والتجار ، فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلباً او حرباً . وقال بعد ان ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس واطلاق ايدي جيشه في جميع ما احتازته : وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة .

وبعد ان قرر السلطان امور القدس وامر بعمل الرُّبُط والمدارس الشافعية رحل عنها ولم يبق معه مما اخذه من مال الفداء شيء . وكان مائتي الف دينار وعشرين ألفاً ففرقها على الامراء والعلماء والفقراء ، واطلق كثيراً من الفقراء بدون فداء ، وادي اخو السلطان الملك العادل فدية عن النبي صليبي وانتدى به السلطان نفسه وعفوا عن كثيرين ، فلم يبق سوى اربعة عشر ألفاً يخرج منهم الصبيان والبنات الذين ادى الصليبيون فداءهم ، واغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، فكان يخرج من القدس حراً بدون منازع ، وعامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن ارقى رجل مهذب في القرون الحديثة . ذكروا انه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة استعازت بالسلطان فاعادها ، ومن عليها وعلى من معها بالافراج ، وابقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها ، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي وهي ابنة الملك آماري وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخلول والجواري فاستأذنت بالالمام بزوجها واقامت عنده ، وكان مقيماً في برج بنابلس اسيراً يرسف في قيده . وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من اموال البيع منها الصخرة والاقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين ، فقبل له لئلا يأخذ ما معه يقوي به

المسلمين فقال : لا اغدر به ولم يأخذ منه الا عشرة دنانير الى غير ذلك من مزاياه العالية التي علم بها اعداءه . كيف تكون مكارم الاخلاق .

رحل السلطان الى عكا ومنها الى صور ، وقد حصنت بالرجال وحفر خندقها من البر الى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشرة شوانٍ فاتفق ان الفرنج كبسومهم في الشواني واخذ خمسة شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبع ونجا واخذ الباقون ، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في الشتاء واقام بعكا واعطى العساكر الدستور فسار كل واحد الى بلده وبقي السلطان بعكا وقد قنع الفرنج بها وعكا وصور ، وارسل الى هونين ففتحها بالامان كما فتح قلعة ابي الحسن من عمل صيدا وشقيف ارنون وصفد وكوكب وهما حصنان عظيمان للدائرية والاسبتارية . فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم في فلسطين من البلاد والثغور سوى صور واستعصفت كلها جملة . ولما انسخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بن معه بعد ان ولى اعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها فخرج اليها وامر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الحصن واعانة المقطعين وكذلك امر بنقل الغلات من مصر الى اعمال عسقلان ليعيد اليها الزراعة والعمران . ومن كتاب فاضلي يصف فيه بعض مدن فلسطين في الفتح الصلاحي : وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنياً . وعمارات ما كان امل اليها مفضياً . بل طال ما كان عنها مفضياً . مثل بيسان وكفر بلا وزرعين وجنين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغللة ، وبساتين مظلة ، وانهار مقللة ، وقلاع مظلة ، واسوار قد ضربت على جهاتها ، واحاطت بجنباتها ، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها .

بقية الفتوح | وقصد السلطان كوكب وجعل عليها من يحاصرها وقد اتجهت
الصلاحية | همته العالية الى فتح ما بقي في ايدي الصليبيين من ثغور الساحل .
ولما خرج السلطان على عزم دمشق من القدس بات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف
بالفريديسية ، واصبح راحلاً على جنين ثم سار على طريق جبل عامل ، ونزل بضبعة يقال
لها الجش وعبر بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم بمنة على الضياع والقرى وعبر

على مرج تلغيانا مقابل مرج القنمية ونزل على مرج قلميطة بالبقاع وعبر عين الجر و بات على مرج بيبوس وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد ولما اجتمعت العساكر من الاطراف سار من دمشق فنزل على بحيرة قدس غربي حمص واثنه العساكر بها فرحل ونزل على انطرطوس فوجد الفرنج قد اخلوها فأحرقها وأحرق البسية وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من افطار بلادهم . وسار الى مرقبة فوجدهم قد اخلوها ايضا وسار الى المرقب وهو للاستتار فوجده لا يرام وتسلم جبلة و « بلدة » من غربي النهر على شاطئ البحر وسار الى اللاذقية ولما قلعتان فحصر القلعتين وزحف اليهما فطلب اهلهما الامان فأمنهم وتسلم القلعتين وعمر البلد وحصن قلعتها ، ولما كان على اللاذقية طلب مقدم اسطول صقلية من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه : انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك لتفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم ، والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الامر ويشدد الحال فاجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيئ من البحر وانهم ان خرجوا اذا قهرهم ما اذاق اصحابهم من القتل والاسر ، ورحل السلطان الى صهيون فتسلم بالامان فلم يجبههم الا على امان اهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه الى ذلك وتسلم قلعة صهيون ، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملك حصن بلاطس وكان الفرنج قد اخلوه ، وملك حصن العيذر وحصن الجماهرية ، ووصل الى قلعة بكاس فاخلاه اهلهما وتحصنوا بقلعة الشجر فحصرها ووجدوها منيعة فضايقها فطلب اهلهما الامان وحصر ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب قلعة سرمين وضايقها وملكها ، واستنزل اهلهما على قطيعة قررهما عليهم وهدم القلعة وعنى اثرها . وكانت في هذه القلعة وفي الحصون المذكورة من اسرى المسلمين الجيم الغفير ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار من الشجر الى برزويه وملكها بالسيف وسبي واسر وقتل اهلهما واسر السلطان صاحب برزويه هو واصحابه وامراته واولاده ومنهم بنت له معها زوجها فنفر قهرهم العسكر ، فارسل صلاح الدين سيفه الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قارب انطاكية اطلقهم وسيرهم اليها ، وكانت امرأة صاحب

برزيه اخت امرأة يميند صاحب انطاكية ، وكانت ترسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لاجلها .

ثم سار فنزل على جسر الجديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية ومنه الى در بساك فتسلمها بالامان على شرط ان لا يخرج احد منها الا بثيابه فقط . وسار الى بغراس وحصرها وتسلمها بالامان على حكم امام در بساك ، وارسل يميند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل الطلاق كل اسير عنده فأجابه السلطان الى ذلك واصطالحوا ثمانية اشهر ، ثم عاد الى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان : ان العمر قصير والاجل غير مأمون . وكان يهتاج الدين لما سار الى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها وخطى اخاه الملك العادل في تلك الجهات بإشعار ذلك فأرسل اهل الكرك يطلبون الامان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان الى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالامان ، ثم سار الى كوكب فضايقها وتسلمها بالامان وسير اهلها الى صور .

وفي سنة ٥٨٥ نزل صلاح الدين بمرج عبيوت وحضر اليه صاحب شقيف ارنون بعد مدة ولما بقي للمدة ثلاثة ايام استخضره السلطان وخاطبه في التسليم فقال : لا يوافقني عليه اهل واهل الحصن . فأمسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس . ولما سقطت القدس واستولى السلطان على جميع البلاد التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم الا يافا وضور وطرابلس تجتمع جميع اهل البلاد التي اخذها السلطان صلاح الدين في ثغر صور فكثرت جمعهم ، وارسلوا الى الغرب يستصرخون ويصوروا صورة المسيح وضورة عربي يضربه وقد ادماه وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح . فخرجت النساء من يهوئين . ووصل من الفرنج في البحر عالم بلا يحصون كثرة ، وساروا الى عكا من صور ونازلوها وأجاطوا بسورها من البحر الى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين الوف ايضاً وعاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) الى قتال الفرنج على عكا .

الحملة الصليبية (١) بينما كان صلاح الدين على عكا يغادي الفرنج القتال
الثالثة (٢) ويراوحهم ، جاءت الاخبار من الروم ان ملك الالمان قادم
لنجدة الصليبيين في الشام في مائة الف محارب ، فدخل اليأس على الناس وهذه هي
الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة ، ولكن ساط على ملك الالمان الوباء
والعلاء وغرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم ، ولم يصل مع ابنه سوى الف مقاتل
فقط . يئس الناس لانهم ذهبوا الى انت الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين
والقدس بل بعد استصفاء أكثر المدن والمعاقل التي كانت لهم وضرب معظم قوتهم في
الهميم ، وكانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك فريديريك باربروس ملك
المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشاردس قلب الاسد ملك انكلترا . نجف
الاولى الى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من امره ما كان أما الآخران فجاءا
الى عكا في البحر وبعد ان فتح ريشاردس جزيرة قبرص تمكن الصليبيون من أخذ
عكا وقتل من المسلمين جمهور كبير .

قال ميشو : ان الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى
للعرب ، كانت من اول الانتصارات ومقدمة الغنائم للبحرية الانكليزية ، وقال
مغلطاي : ان الفرنج حاصروا عكا من البر ومن البحر وكانت عدتهم مائتي الف
واربعين الفا ونصبوا عليها المناجيق من كل جهة ، وفتحوا فيها مواضع كثيرة حتى
خربت ودثرت وصارت مثل الطريق ، فغلب المسلمون وطلبوا الامان . وقال غيره :
ان السلطان كان غمر في بيروت بطسة وشحنها بالعدد والآلات وفيها نحو سبعمائة
رجل مقاتل فلما توسطت في البحر صادفها ملك الانكليز واحاطت به مراكمه وحصل
القتال بين الفريقين فلما رأى مقدمها اشتداد الامر نزل فخرقها حتى غرقت وكانت
هذه الحادثة اول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين .

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ،
ثم ساروا من قيسارية الى ارسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين معاصف ازالوا المسلمين
عن موقفهم ، ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوق وغيرهم خلقاً كثيراً ، ثم
سار الفرنج التي يافا وقد اخلاها المسلمون فمكوها ، ورأى السلطان تخريب عسقلان

مصلحة فخر بها وخرب الرملة وكنيسة لدة وكان هدم سور طبرية وهدم يافا وارسوف
وقيسارية وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلها الى بيروت ، وكان معظم اهل صيدا
وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذلة من مساكنة الفرنج . ثم سار الى القدس
وقرر اموره وعاد الى مخيمه بالنظرون . ثم ترأس الفرنج والسلطان في الصلح على
ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان ياخذ ملك انكلترا ويكون للملك العادل
القدس ولامراته عكا فانكر القيسيسون عليها ذلك الا ان ينهزم الملك العادل فلم
ينفق بينهم حال .

وذكر بعض المؤرخين : ان ملك انكلترا هو الذي عرض على العادل اخيه ،
وكانت أرملة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب مقبلة توفي عنها ، ورغب ان
يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على الساحل ، وهو يقطع الداوية والاستباز من
البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخيه مقبلة بالقدس وان الانكليز لما عنفوا
المرأة وأتسموها في دينها ، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها الا ان يدخل
العادل في دينها فعرف انها خديعة كانت منه .

قال ابن شداد : في وصف ريشاردس ملك الانكليز : وهذا ملك الانكلترا
شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة
على الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة ، لكنه اكثر مالا منه ،
وأشهر في الحرب والشجاعة . قال : وكان ملوكهم يتواعدونا به فكان المستأمنون
منهم يخبرونا عنه انهم موقنون فيما يريدون ان يفعلوا من مضايقة البلد اي عكا
حين قدومه ، فانه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية
ورهة . وقال بعد ان ذكر كيف كان ملك الانكليز يكرر الرسائل الى الملك
لتعرف قوة النفس وضعفها وكيف كان يوهن المسلمين على تعارف ما عنده من ذلك
ايضاً : فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى ،
وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراذه ، والله الولي في ان بقي المسلمين شره
فما بلينا بأعظم حيلة وأشد اقداما منه .

وبقي صلاح الدين في كل يوم يقع بينه وبين الفرنج مناوشات فلقوا من ذلك

شدة شديدة واستولوا سنة ٥٨٨ على قلعة الداروم وخرّبوها وأسروا من فيها .
عرض للملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاد فاحب ان يصالح صلاح الدين .
فرضي السلطان بالصالح بعد الذي أصاب جيشه من الفشل على عكا وفشل عكا هو الوحيد
الذي أصابه وذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه وقد ملّ الجند الحرب التي دامت
أعواماً ، وخرج المسلمون من عكا وأخذوا امان الفرنج على ان يخرجوا باموالهم وانفسهم
على تسليم البلد ومائتي الف دينار والف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من
المعروفين و صليب الصليبيات ، وعشرة آلاف دينار للمركيس اربعة آلاف دينار
لخبايه ، وعقدت بين الصليبيين والمسلمين هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها
ثلاث سنين وثلاثة اشهر على ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها
وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها ، وان تكون عسقلان خراباً ، واشترط
السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في بلاد الهدنة واشترط الفرنج دخول صاحب
انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وان تكون لدّ الرملة مناصفة بينهم وبين
المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك . وانقوت وفاة السلطان بعد الصالح بيسير
فلوانفق ذلك في اثناء وفاته كان الاسلام على خطر .

وفي التاريخ العام : ان صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في اوروبا
فأخذ اوروبانوس الثالث يجمع الناس في الغرب . وان امارات الصليبيين لم تقاتل
مدة نصف قرن سوى صغار امراء سورية والموصل . وكان مسلمو مصر يعيشون
بسلام معهم ، وهذا كان عهد نجاح تلك الامارات ، ولما قضى صلاح الدين على
الدولة الفاطمية وقامت مقامها دولة حربية من الممالك ، لم يستطع المسيحيون ومصر
تهاجمهم ان يقاوموا زمناً طويلاً ، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين ، واذا
احتفظوا ببقايا الامارات قرناً آخر فذلك لان ملوك الاسلام لم يرضوا ان يقضوا
عليها . لا جرم ان هذه الحرب كانت حرباً مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين اهـ .

مزايا صلاح الدين) ولا عجب اذا انتشر سلك الامارات الصليبية في الجنوب
ووفاته) والغرب جملة فان تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات ،

والنجدات كانت تأتيه سراعاً دراكاً ، والمكر متجه الى مقصد واحد ، واستمات المسلمون في تأييد سلطانهم ، وحاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر والفر وصنوف الدهاء والخديعة ، وما الحرب الا خدعة — قاتلوا كما قال شاعر العيان من المؤرخين ، مرة بالابراج ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلام ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والذهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للغزاة ، ويخالف التوفيق اعلامهم ، وما كل خطة يقررها صاحب الامر بادي الرأي تكون سديدة من كل وجه ، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين وظفروه الباهر بهم في الأردن والجليل وبيت المقدس كيف فتح لاعدائه السبل لينذهبوا الى صور ، ويجتمع هناك فل جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قوية بما جاءها من البحر من الانكيز والفرنجية ، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا ، ولو كان حياً لدافع عن نفسه دفاعاً معقولاً مقبولاً فيما نحسب ، ولعل ذلك يدخل في باب مراجه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس ، فلم يعامل اعداءه الا بما اقتضته سياسته وسيرته .

كان صلاح الدين يُعنى بجنده ويتعهد ويسأل عن صحة امرائه ومن دونهم في راحتهم ومنامهم واكلهم وشربهم ، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار او الليل ثم يستريح او يحارب مدة معينة ثم يذهب الى ذويه ، على ارقى الاصول المتعارفة في الحروب الحديثة . والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغتني أفرادهم وجماعاتهم دع ملهم من الاموال الدارة من اموال الجباية والرسوم على التجار وما خصوا به من الحرمة ورفع الشان ، بأخذون اما رواتب او اقطاعات ، ولم تكن اقطاعاتهم كاقطاعات الغرب تورث على الاغلب بل تزول عن صاحبها بموته او بعزله ، ولذلك كان المحاربون متعلقين ابدأ بسلطانهم واميرهم ، متفانين في احسان الخدمة بكانهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم .

جاء صلاح الدين الى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين ، وكان يحب دمشق ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد . فلقى الاهل والبلد بعد تغيب أربع سنين

وذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوماً فكان عمله كأنه وداع لاهله واولاده ومرايع نزهه وأنسه . ثم مرض اياماً وملك حميد الأثر فضجت البلاد لفقده ، وبكت العيون ، وانفجبت النفوس ، لانه لم يحيي مصر والشام ، بل احيا بعمله المسلمين والاسلام ، وكان كما ذكره ابن شداد : رؤفاً رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي ، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس ، في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، وينتفع الباب للمتجملين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان بفعل ذلك سفرأ وحضرأ ، على انه كان في جميع زمانه قابلاً للجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل . وكان يجلس مع الكاتب ساعة اما في الليل او في النهار ، فيوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصداً ابداً ، وما استغاث اليه احد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته .

مات صلاح الدين وقد ملك مصر اربعاً وعشرين سنة والشام تسع عشرة سنة ، وملك الجزيرة واليمن ، ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ، فان صدقة النفل استنزفت جميع ما ملكه من الاموال ، فلما ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة الا سبعة واربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من انواع الاملاك ، وكان رحمه الله يهب الاقاليم ، ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم معهم ، اعلم بانهم متى علم به اخرجهم . وقد ذكر القاضي ابن شداد وعماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية ، وعدله وكرمه وشجاعته ، واهتمامه بامر الجهاد وصبره واحتسابه ، وحلمه وعفوه ومحافظة على اسباب المروءة ، ما هو العجب العجيب . وبعضه اذا جمع في شخص كان من المفخر على توالي الاحقاب .

ملأت خيرات صلاح الدين جميع البلاد التي خفق علمه عليها ، وملأت اوقافه مصر والشام وهي غير منسوبة اليه . قال ابن خلكان : ولقد افكرت في نفسي في

امور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة ، فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه .

بل قد تجد للماليك وخواصه اوقافاً نسبت اليهم اكثر منه وكان كل ممالك صلاح الدين وخواصه وامراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد والناس على دين ملوكهم . ومن كرم صلاح الدين انه اخرج في مدة مقامه على عكا ثمانية عشر الف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، واما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت حصر ، وما كان يركب فرساً الا وقد وعد بان يعطيه لطالب من جماعته ، وقد فرّق من ذخائر الفاطميين لما فتح مصر ما يفوق الاحصاء ولم يبق منه قليلاً ولا كثيراً . ومن رسالة له الى الديوان العزيز ببغداد : فقد علم ان الخادم بهوت امواله ، في بهوت رجاله ، وان مياطين تزوله ، في مواقف تزاله ، ومضارب خيامه ، اكنة ظلاله ، وانه لا يذخر من الدنيا الا شكته ، ولا ينال من العيش الا مسكته . وكان يعيش عيش المتوسطين ، وينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف ، ويكتفي من اللباس بالكتان والقطن والصوف ، ومجلسه منزّه عن الهزل ومحافله حافلة باهل الفضل ، وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركتهم القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية ، وكان من جالسه لا يعلم انه مجالس السلطان ، بل يعتقد انه مجالس اخ من الاخوان . كان من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله امر . وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد الا قوة نفس ، وكان يعطي دستوراً اي يسرح عسكره في اوائل الشتاء ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ، اذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة الف فيما قالوا ، ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، قانعاً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضر بها الرياح يمنة ويسرة ، وكان لا بد له من ان يطوف حول العدو كل يوم مرة او مرتين اذا كان قريباً منهم ، واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ، ويحرق العساكر من المينة الى الميسرة ، يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره .

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقعت الكاسات والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير ، فانهزوا الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة ، الى ان ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فان الضعف والهلاك كان فيهم اكثر ، واكثرهم كانوا يتوقعون النجدة ، والمسلمون لا يتوقعونها ، وكانت المصلحة في الصلح .

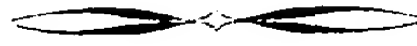
سئل ابن بيزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة الف الى ستمائة الف قتل منهم اكثر من مائة الف وغرق معظمهم : وكان صلاح الدين يدور على الاطلاب اي الكتائب ويقول وهل انا الا واحد منكم .

وذكروا من مراحم السلطان انه كان المسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبيها رضيعاً ، فباتت امه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج : ان سلطانهم رحيم القلب ، فاذهي اليه فجاءته وهو على تل الخروبة راكب فعفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فاخبروه بقصتها فرق لها ، ودمعت عيناه ، ونقدم الى مقدم اللصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفاً حتى احضروه فلما رآته بكيت واخذته فارضته ساعة وضمت اليها ، وأشارت الى ناحية الفرنج فامر ان تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

قال سبط ابن الجوزي : ويقال ان صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً . قلنا ان نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان في امته صلاحاً لدينها ودنياها .

الدولة الايوبية

(من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧)



اهتزت اعصاب المملكة لمهاك صلاح الدين يوسف بن
ايوب صاحب مصر والشام واليمن والبلاد الشرقية لانه
الفاتح الثاني لبית المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح
الاول . وقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة ، وناب بعض اولاده عنه
في اكثر بلادهم ، وخلف اخاه الملك العادل ابا بكر وكان ينوب عنه في مصر والشام في
حياته فوق الخلف بين بنيه وعمهم في الباطن اولاً ثم اعلن كل واحد لصاحبه خصوصته .
وكان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية ورأوا من العدل الصلاحي ما لم يكذب سبق
له مثيل الا في دولة نور الدين ، يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين الى
الثقاق والزاع ، ومن الذين اوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين
الاكبر فحمد كتب الى والده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب « ان وقع
اتفاق فما عدتم الا شخصه الكريم » . وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية اهونها
موته وهو الهول العظيم .

وكان الملك الافضل نور الدين علي اكبر اولاد صلاح الدين قد حلف له الناس
عند ما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق وبلادها المنسوبة اليها ، وبالديار
المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي ،

وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب ،
 وبجدة وسلمية والمعة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر
 نقي الدين عمر ، وبعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه وبحمص والرحبة وتدمر
 شيركوه بن محمد ، وببصرى الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين ، وكان في خدمة
 اخيه الملك الافضل ، وبهد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون ، منهم سابق الدين
 عثمان بن الداية وبهده حصن شيزر وحصن ابي قبيس ، وناصر الدين بن كورس بن
 خمارد كين وبهده صهيون وحصن برزية : ودلدرم بن بهاء الدين ياروق وبهده تل باشر
 وعز الدين أسامة الحلبي وبهده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين
 ابن المقدم وبهده بعريين وكفر طاب وافامية . ولما اتى الملك الافضل زمام
 السلطنة بعهد ابيه استوزر ضياء الدين بن الاثير الجزري فحسن له طرد امراء ابيه
 ففارقوه الى اخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب ولما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز
 الاتفراد بالسلطنة ووقعوا في اخيه الافضل فحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل
 والعزيز واستحكم الفتور (٥٩٠) بينهما فسار العزيز في عسكر مصر وحصر اخاه
 الافضل بدمشق عشرة اشهر وقطع الماء عنها . فأرسل الافضل الى عمه العادل واخيه
 الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا الى دمشق واصلحوا بين
 الاخوين وعاد كل ملك الى بلده . قال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن
 دمشق شرع الافضل في اللهو واللعب واحتجب عن الرعية وانقطع الى اتياته فسمي
 الملك النوام وفوض الامر الى وزيره الجزري وحاجبه الجمال محاسن بن المعجمي فافسد
 عليه الاحوال وكانا سعيًا لزوال دولته واستبدلا اراذل الناس بكبراء الامراء والاجناد
 ففسدت امور العباد . وفي هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل واخذ الافضل
 من الفرنج جبلة واللاذقية .

وفي السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة اخيه الملك
 الافضل فسار ونزل الفوار من ارض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة
 من الامراء الاسدية وفارقوه فعاد العزيز الى مصر . وكان الافضل يستنجد بعمه العادل
 لما قصده اخوه فلما رحل العزيز الى مصر رحل الملك الافضل وعمه العادل ومن انضم

اليها من الاسدية وساروا في اثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بلبيس وقصد الملك الانسل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل وقال : مصر لك متى شئت . وكانب العادل العزيز وامره بارسال القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين . وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملاسة اولاد صلاح الدين لما رأى من فساد احوالهم على مارواه المؤرخون — والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في ملاء من الناس : لاتظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل وكان يستشير في اموره — فدخل الملك العزيز على القاضي الفاضل وسأله ان يتوجه من القاهرة الى الملك العادل ففعل واجتمع به وانفقا على ان يصلحا بين الاخوين فاصلحا بينهما واقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن اخيه ليقرر امور مملكته وعاد الافضل الى دمشق واموره بهد ابن الاثير يديرها برأيه حتى كثر شاكوه وقل شاكروه . وكان الاعتماد على مشورة الوزير ابن الاثير الذي زين للملك الافضل اقضاء امراء ابيه ليخلو له الجو اول خطوة نحو خراب بيت بني ايوب ، وبعبارة اصح ابناء صلاح الدين يوسف وقوة الدين على نجة عقل القائمين بها ، الدافعين عن حوزتها ، الغيورين على بقائها ، وقد خالف الملك الافضل سيرة ابيه فاقصى العقلاء وكان ابوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستماله قلوبهم وكان لسان حال الملك العادل وقد رأى اختلاف ابناء اخيه المثل المأثور « لم آمر بها ولم تسؤني » . قال سبط ابن الجوزي لما عاد الافضل الى دمشق ازدادوز يرد الجزري من الافعال القبيجة وآذى اكابر من الدولة والافضل يسمع منه ولا يُعدي احداً ولا يخالفه ، فكتب قهار النجمي واعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فارسل العادل الى الافضل يقول : ارفع يد هذا الاحمق السيئ التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت ، واتفق مع العزيز على النزول الى الشام فسار الى الشام فاستشار الافضل اصحابه فكل اشار عليه ان يلتقي عمه واخاه ولا يخالفها الا الجزري فانه اشار عليه بالعصيان فاستعد للمحاصر وحلف الامراء والمقدمين وفرقهم في الابراج وعلى الاسوار .

اتفق العادل مع العزيز على ان يأخذا دمشق وان يسلمها العزيز الى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز في جميع البلاد كما كانت لايه ، فخرجا وسارا من مصر فارسل الافضل اليها فلك الدين وهو احد امرائه وهو اخو الملك العادل لأمه ونزل

العادل والعزیز علی دمشق وقد حصنها الملك الافضل ، فكتب بعض الامراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه وانهم يسلمون المدينة اليه فزحف الملك العادل والملك العزيز فدخل الاول من باب توما والثاني من باب الفرج ، فاجاب الملك الافضل الى تسليم القلعة وانتقل منها باهله واصحابه ، وأخذت بصرى من الملك الظاهر خضر اخي الافضل وكان معاضداً له ، وأعطى الافضل صرخد فسار اليها باهله واستوطنها واخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتال فاخذوا الا عظمة وهرب الى بلاده . سلم الافضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، فتسلمها العادل بعد ان كان وقع الاتفاق على ان يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للافضل وهو السلطان ، ورحل العزيز وابقى العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز .

استئثار العادل | توفي الملك العزيز عثمان في مصر (٥٩٥) وعمره سبع
بالمملك الصلاحي | وعشرون سنة واشهر وكان في غاية السماحة والكرم والعادل .
والرفق بالرعية والاحسان اليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لانه شبل من أسد ،
وكان الغالب على دولته فخر الدين جهار كس فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك
المنصور محمد وانفقت الآراء على احضار احد بني أيوب ليقوم بالملك ، وعمروا مشورة
بمحور القاضي الفاضل فأشار بالملك الافضل وهو حينئذ بصرخد فأرسلوا اليه فسار
محمداً ووصل الى مصر على انه اتاك اي مربى الملك المنصور بن الملك العزيز ، وكان
عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وأشهر . ولما وصل الافضل الى بليس النقااه
العسكر فنكر منه فخر الدين جهار كس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا الى
الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردین ، وأرسل الملك الظاهر الى أخيه
الملك الافضل يشير عليه بقصد دمشق واخذها من عمه الملك العادل ، وان ينتهز
الفرصة لاشتغال العادل بماردین ، فبرز الملك الافضل من مصر وسار الى دمشق
فبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق ونزل الملك الافضل على دمشق وجرى بين العم
وابن اخيه قتال ، وهجم بعض عسكر الافضل المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم
يهدم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوه من البلد ، ثم تخاذل العسكر

فتأخر الافضل الى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل الى الملك الافضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد الى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها وقتل الاقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الافضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الاخوين الافضل والظاهر من الخلف .

روى سبط ابن الجوزي : انه لما اشتد الحصار على دمشق وقطعت أشجارها ومياهها الداخلة اليها وانقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، بعث العادل الى الظاهر يقول له : انا أسلم اليك دمشق على ان تكون انت السلطان وتكون دمشق لك لا للافضل ، فطمع الظاهر وأرسل الى الافضل يقول : انت صاحب مصر فأثرتي بدمشق . فقال : دمشق لي من ابي وانما أخذت مني غصباً فلا اعطيها احداً ، فوقع الخلف بينهما ووقع التقاعد . وكان القاء الخلف بين الاخوين من جملة دهاء عمهما ، وفي هذه السنة قصد المنصور صاحب حماة بارين وحاصرها وفتحها وأصلح امورها ، وكانت لعز الدين ابراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وهذا محصور في دمشق مع الملك العادل .

ودخلت سنة ٥٩٦ والملكان الافضل والظاهر محاصران دمشق وقد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفساق والخوانيت وأحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الانهار وأحرقت غلة حرستا في بهادرها وحفر على دمشق خندق من أرض اللوان الى أرض يلدا شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لها ، ولما تغير الظاهر على أخيه الافضل ترك قتال العادل فظهر النشل في العسكر فتأخر الافضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصُّفَر ، ثم سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ، ولما تفرقا خرج العادل من دمشق وسار في أثر الافضل الى مصر ، وضرب مع الافضل مصافاً فانكسر الافضل وانهمزم الى القاهرة ونازلها العادل ثمانية أيام فأجاب الافضل الى تسليمها ، على ان يعوض عنها مياغارقين وخاني وسميساط ، فأجابه العادل الى ذلك ولم ينف له به ، ثم سار الافضل الى صرخد وأقام العادل بمصر على انه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال العادل الملك المنصور واستقل العادل في السلطنة فقطع اولاً خطبة ولد العزيز بعد ان جمع الفقهاء وقال هل يجوز ولاية

الصغير على الكبير فقالوا : الصغير مولى عليه قال : فهل يجوز لكبير ان يولي عليه وينوب عنه قالوا : لا لان الولاية من الاصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة .
فقطع خطبة ابن العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد من بعده ، وكان ذلك على الحقيقة مبدأً سلطنة العادل الكبرى ، فان استشاره بالخطبة والسكة في مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام وما اليها من بلاد الشرق .

لما تم الامر بمصر للعادل كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمعنيين شقيق ابيه وابو امرأته) وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه ، واشترط الملك العادل على صاحب حلب ان يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج الى البهكار (الحرب) والتزم الظاهر بذلك الا انه أخذ بتحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل وأرسل الملك المنصور للعادل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعين من ابن المقدم ، فقبل العادل عذره وامره بردها الى صاحبها الاول . وسار (٥٩٧) الظاهر وملك منبج وخرب قلعتها وملك قلعة نجم وافامية وكفرطاب من شمس الدين عبد الملك بن المقدم ، وأرسل الى الملك المنصور صاحب حماة ببذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمن التي في عنقه للملك العادل ، فلما ايس الملك الظاهر منه سار الى المعرة وأقطع بلادها واستولى على كفرطاب ثم سار الى افامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم فلم يسلم هذا القلعة الا بعد الحرب الشديدة فرحل الملك الظاهر وتوجه الى حماة وقاتلها أشد قتال ، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال يحمله اليه قيل انه ثلاثون الف دينار صورية ، ثم رحل الظاهر الى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنار لها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الافضل ، وانضم اليها فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الامراء الصلاحية ، واستقرت القاعدة بين الاخوين الافضل والظاهر انها متى ملكا دمشق بتسلما الملك الافضل ثم يسيران يأخذان مصر من الملك العادل ويتسلما الملك الافضل ، وتسلم دمشق حينئذ الى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الافضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر .

وبلغ العادل حصار اولاد اخيه دمشق فخرج بعساكر مصر ، وأقام بنابلس ولم
يحسر على قتالهم ، واشتدت مضايقة الملكين الافضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون
بسورها ، فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد أخاه الافضل على دمشق وقال له :
أريد ان تسلم اليّ دمشق الآن فقال له الافضل : ان حربي وحريكم على الارض
وليس لنا موضع نقيم فيه ، وهب هذا البلد لك فاجعله لي الى حين تملك مصر
وتأخذه . فامنع الظاهر من قبول ذلك ، وكان قتال العسكر والامراء الصلاحية
لاجل الافضل فقال لهم الافضل : ان كان قتالكم لاجلي فاتركوا القتال وصالحوا
الملك العادل ، وان كان قتالكم لاجل اخي الملك الظاهر فانتم واياه . فقالوا : انما
قتالنا لاجلك وتخلوا عن القتال وارسلوا وصالحوا الملك العادل ، ثم تفرقت العساكر فرحل
الملك الظاهر عن دمشق ، وسار الافضل الى حمص ، فقدم العادل الى دمشق
بعد رحيل اخيه الافضل والظاهر عنها وتسليمها . وخرب الظاهر منيج خوفاً من
انتزاعها منه وأقطعها لعماد الدين المشطوب ونزل ابن المقدم عن اقامية فأقطعه الظاهر
الراوندان وكفرطاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة
فعصى ابن المقدم بالراوندان فسار اليه الملك الظاهر واستنزله عنهما وأبعده فلحق
بالمملك العادل .

وفي سنة ٥٩٨ سار الملك العادل من دمشق ووصل الى حماة ونزل على
تل صرّوت وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر
صاحب حلب وصول عمه العادل الى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار ،
وراسل عمه ولاطفه واهدى اليه ، ووقعت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه
مفردة المعرة واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، واخذت من الملك الظاهر ايضاً
قلعة نجم ، وسلمت الى الملك الافضل ، وكان له سروج وسمي سباط ، وسلم الملك العادل
حوران وما معها لوارثه الملك الاشرف مظفر الدين موسى وسيره الى الشرق ، ولما استقر
الصلح بين العادل وابن اخيه الظاهر ، رجع العادل الى دمشق واقام بها وقد انظمت
الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها
وضربت السكة فيها باسمه .

الاحداث في عهد العادل } مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح
 واهتمامه بجرب الصليبيين } الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لاخيه الملك
 العادل ابي بكر بن ايوب وتخلص من ابناء اخيه الافضل والظاهر وغيرها بل توفى
 الى مقاصده باستثناء العلماء بان ملك مصر وأنقذها من حفيد اخيه صلاح الدين ،
 وكان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك اخيه الا قليلاً ومقدمة لتسلسل الملك
 في اولاده ، اذ ليس في ابناء اخيه من يدانيه في الحقيقة بحسن السياسة وبعد النظر
 وكثرة التجارب والدياء ، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ويستشيريه في معضلات
 الامور فبين عن رأي وحنكة . وسار بعض الامراء الصلاحية الذين غدوا بنعمة
 صلاح الدين سيراً لا يدل على غمط نعمة ونكران جميل ، ولكن كان الافضل
 والظاهر والعزيز متخالفين متشاكسين وكل منهم يطمع في الملك ويسر لاخيه وعمه
 حسواً في ارتقاء ، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل وهو بتجاربه يشبه أخاه
 صلاح الدين من اكثر الوجوه . اما الافضل فقد ركب هواه وأخذ الى اللذات
 والمنكرات لاول امره واستسلم لوزيره ابن الاثير وكان صاحب دعوى عريضة
 لا يراعي الحال ولا يعرف الزمان فكتبت الغلبة للعادل ، ولو ترك الأخوات
 الافضل والظاهر وشأنهما بدون ان يعدل عمهما من جماعها لاشتد غزو احدكما
 لاخيه وهلك الناس بسببهما وكثرت الغوائل والحصارات ، هذا ان لم نقل انه كان
 للعادل يد في توسيع شقة الخلاف بين اولاد أخيه ، فقد اتخذ الملك العادل سياسة
 غريبة معهم يريد ان يوفق بينهم في الظاهر ولكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على
 مصر والشام وبلاد الشرق ، وذلك بان أخذ بعض المتشاكسين لحزبه وكان بعد ذلك
 يغتنم فرصة حمل الاخ على اخيه فيملك البلاد مثل الشام وغيرها على نحو ما ملك
 مصر ويخطب له فيها وتضرب السكة باسمه وي زال اسم ابناء صلاح الدين .
 مثل ابناء صلاح الدين صورة من صور خلاف الاخوة بعد موت أبيهم ،
 والسبب في ذلك ان أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهداً بين لكل واحد حقه
 من هذا الملك الذي فتحه ووطد أساسه ، بل ترك الامر للاقدار . واذا حلف
 العسكر في دمشق لا كبر اولاده الملك الافضل فان المملكة ليست عبارة عن دمشق ،

بل حلب والقاهرة تنازعانها فضل التقدم ، ولو كانت اصول الوراثه في الملك متبعة
 في ذاك العصر لتوفر على الامة وابناء الدولة عناء كبير وشكر كثير مستطير ، ولما
 تعب الفاتح بفتوحه وخلف لابنائه ميراثا يورثهم همما وغما ، ويجنون بعملهم على الامة
 الجنابة بعد الاخرى . هذا وبقايا الصليبيين لم تبرح نازلة في عكا وصور وطرابلس ،
 ومن حسن الطالع انهم لم يتحركوا للفننة طول هذه المدة سوى مرة واحدة (٥٩٣)
 وقد وصل جمع عظيم منهم الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت فصار العادل ونزل
 بتل العجول واثنه النجدة من مصر ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون
 القصري صاحب نابلس ثم سار الملك العادل الى يافا وهجمها وملكها بالسيف وقتل
 الرجال المقاتلة وخربها وكانت هذا الفتح ثالث فتح لها . وخرب صيدا ايضا ونازلت
 الفرنج تبنين فارسل العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه
 بمن بقي عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمه العادل على تبنين فرحل الفرنج الى صور
 ثم عاد الملك العزيز الى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل اليه امرا الحرب
 والصلح ، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ورجع
 العادل الى دمشق .

ومن الالحدات في الشام على عهد الملك العادل بعد ان صفاه له ملك الشام ومصر
 وخضع ابناء اخيه صلاح الدين له ظاهرا وان لم يخضعوا باطنا ، حصار ابنه الاشرف
 ماردين وسعى الملك الظاهر (٥٩٩) في الصلح ، فاجاب الملك العادل الى ان يحمل
 اليه صاحب ماردين مائة وخمسين الف دينار ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه
 ويكون بخدمته متى طلبه فأجيب الى ذلك . وسار الملك المنصور صاحب حماة الى بعين
 مرابطا للفرنج وكتب الملك العادل الى صاحب بعلبك والى صاحب حمص بانجاده
 فانجدها واجتمعت الفرنج من حصن الاكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور
 ببعين وانقعوا معه فانهزم الفرنج ثم خرج الاستبار من حصن الاكراد والمروقب
 وانضم اليهم جموع من الساحل والنقوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو على بعين
 فانهصر عليهم ثانيا واسر منهم عدة كثيرة وهدانهم (٦٠٠) وارسل العادل واتزع

ما كانت بيد الملك الأفضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سيمساط وتوسلوا اليه في ابقاء ما كان بيده فلم يجب الى ذلك .

وخرج الفرنج (٦٠٠) لقميديد بيت المقدس فخرج الملك العادل من دمشق ونزل على الطور وجرت الهدنة بينه وبينهم وسلم الى الفرنج يافا والناصرية ونزل عن مناصفات لدة والرملة . جاءت الفرنج (٦٠١) الى حماة بغتة واخذوا النساء الغسالات من باب البلد على العاصي وامتلايت ايديهم من الغنائم وخرج اليهم الملك المنصور بن نقي الدين وابلى بلاء حسناً وكسر الفرنج عسكره وحاصر الحلبون المرقب وكادوا يفتحونها لولا قتل مقدمهم مبارز الدين ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبين وقتل خلق من المسلمين وطمعت الفرنج في البلاد ثم صالحهم العادل ووقعت الهدنة بين صاحب حماة وبينهم . واغارت الارمن (٦٠٢) على اعمال حلب فتسارع اليهم العسكر فيقتولهم وهزمهم ، وذهب الارمن بالغنائم ، ثم ثابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون على البلاد الحلبية وهابته العسكر . قال سبط ابن الجوزي : وبلغ الظاهر صاحب حلب اغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب ونزل مرج دابق ، وجاء الى حارم فهزم ابن لاون الى بلاده ، وكان قد بنى قلعة فوق دريساك فاخربها الظاهر وعاد الى حلب . ونازل الملك العادل (٦٠٣) عكا فصالحه اهلها على اطلاق جمع من الاسرى ثم سار الى حمص واستدعي العساكر فأنذره من كل جهة ونازل حصن الاكراد وفتح برج اعزاز واخذ منه خمسمائة رجل ثم نازل طرابلس وغاث العسكر في بلادها وقطع قناتها واخذ بالامان القليعات قرب طرابلس وخربه حتى وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج (٦٠٤) . واستولى الملك الاوحد ايوب ابن الملك العادل على خلاط ، ووصل للعادل التشریف من الخليفة الامام الناصر ونقل يد بالبلاد التي تحت حكمه ، وخوطب الملك العادل شاعنشاء ملك الملوك خليل امير المؤمنين ، وكثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على حمص وولايتها فانجد الظاهر غازي صاحب حلب صاحب حمص فنعوا الفرنج عن ولايته .

وقطع العادل (٦٠٦) الفرات وجمع العساكر والملوك من اولاده ونزل حران ونازل سنجار ثم تخاضت العساكر التي صحبته ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب

الصلح معه ، فرحل عن سنجار واستولى على نصيبين والخابور وعاد العادل (٦٠٧) الى دمشق وقصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الاوحد ابن الملك العادل بها وبعد ان نال ملكهم منه حمل ملك الكرج الى الملك الاوحد فرد على الملك الاوحد عدة قلاع وبذل اطلاق خمسة آلاف اسير ومائة الف دينار وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة وشرط ان يزوج ابنه بالملك الاوحد فتسلم ذلك منه وتحالفا وتوفي الملك الاوحد من قابل فسار اخوه الملك الاشرف وملك خلاط عاصمة ارمينية الوسطى واستقل بملكها مضافاً الى ما بيده من البلاد الشرقية .

وفي سنة ٦٠٧ ارسل نساء دمشق الى سبط ابن الجوزي العلامة الواعظ المشهور شعورهن لتستعمل في الادوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالاً للخيول وكرفسات ولما صعد المنبر في الجامع الاموي امر باحضارها فجمعت على الاعناق وكانت ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها ثم سافر المجاهدون ولحقوا بالملك المعظم بنابلس فخربوا في البلاد الواقعة تحت حكم الفرنج وقطعوا اشجارها واسروا جماعة منهم ولم يجسر احدهم ان يخرج من عكا وخاف الفرنج فارسلوا الى العادل وصالحهم .

وقبض الملك المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون بأمر الملك العادل متهاً بمكاتبة الظاهر صاحب حلب ، فقال له المعظم بعد ان لاطفه : انت شيخ كبير وبك نفوس وما تصلح لك قلعة سلم الي كوكب وعجلون وانا اخلفك على مالك وملكك وجميع اسبابك وتعيش معنا مثل الوالد ، فامتنع وشم المعظم وذكر كلاماً قبيحاً فلما ايس المعظم منه اعقله في الكرك واستولى على قلاعه وامواله وذخائره وخيله ، فكانت قيمة ما اخذ منه الف الف دينار . وحبس أسامة في الكرك الى ان مات وأمر العادل بتخريب كوكب وتغنية اثرها فخرت ، وابقى عجلون وملك المعظم بلاد جباركس وهي بانياس وما معها لاختيه الملك العزيز عماد الدين ، واعطى صرخد ملوكه عز الدين أيبك المعظمي ، واعطى العادل ولده الملك المظفر غازي الرها وميفارقين وفيها استولى الببال القبرسي علي انطاكية فرميت تلك الاعمال منه

بداهية ، وتابع الغارات على تركانها فشردهم فتجمعوا واخذوا عليه المضايقي وحصل في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في اعمالهم ثم حملوه سبي البحر الى الملك العادل بمصر .

واستولى (٦١٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن واستولى ابن لاون الارمني على انطاكية من الفرنج وتوفي (٦١٣) الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب واوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لانه من بنت عمه العادل وطلب بذلك ان يستمر الامر له لاجل جده العادل واخواله واولاده لانهم ملوك البلاد يومئذ وبعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين احمد وبعدما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز بن عثمان ، وحلف الامراء والاكابر على ذلك ، وجعل الحكم في الاموال والقلاع الى شهاب الدين طغريل الخادم ، وكانت مدة ملك الظاهر لحلب احدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش واقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه ، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصالحي ولكن اختلافه مع اخيه الافضل كان من اهم الاسباب في زوال الملك من ذرية صلاح الدين وكان الظاهر ذكياً فطناً . قال سبط ابن الجوزي : كان مهيباً له سياسة وفطنة وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ، مزينة بالملوك والامراء ، وكان محسناً الى الرعية ملجأ الفقراء والغرباء وكفياً للملهوفين . وفي سنة ٦١٣ كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقبة وحملهم السلاح وقتلهم بالرحبة وركوب ~~العسكر~~ للفصل بينهم وحضور المعظم من جوسق الرئيس لتسكين الفتنه وكان مقيماً به وقبضه جماعة من مقدمي الحارات .

الحملة الصليبية الخامسة } بينما كانت داخلية البلاد مشغلة بالنصب والعزل ونقاتل
ابناء البيت الواحد على الملك والسلطان اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا الى عكا في جمع عظيم وهذه هي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١ م) وكانت مؤلفة من المان ومجر اما الحملة الرابعة فكانت توقفت في طريقها الى الشام واستولت (١٢٠٤ — ١٢٦١ م) على الاستمارة فبانتسخت بذلك الهدنة

بين المسلمين والفرنج فخرج العادل بعساكر مصر ونزل على نابلس فسارت الفرنج اليه ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم الى عقبة فيق فأغاروا على بلاد المسلمين وكانوا في خمسة عشر الناء ووصلت غارتهم الى نوى من بلد السواد ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وبشوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر وبلغوا خربة اللصوص والجولان ثم عدوا الى الطور وقتل منهم ، ثم رجعوا الى عكا ووصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صيدا الى جزين قرب مشغرا فانهازل عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة اشخاص .

قال المؤرخون : لما قتل كند من اكسادالفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه ورجعوا الى عكا واختلقوا هناك فقال ملك الهنكر : الزأي انا نمضي الى دمشق ونحاصرهما فاذا أخذناهما ملكنا الشام ، فقال الملك النوام قالوا : انما نبي بذلك لانه كان اذا نازل حصنا نام عليه حتى يأخذه أي انه كان صبورا على حصار القلاع واسمه دستريج ومعناه المعلم بالريش لان انلامه كانت الريش فقال : نمضي الى مصر فان العساكر مجتمعة عند العادل ومصر خالية ، فأدى هذا الاختلاف الى انصراف ملك الهنكر مغاضبا الى بلده فتوجهت باقي عساكرهم الى دمياط فوصلوها ، والعادل نازل على خربة اللصوص بالشام وقد وجه بعض عساكره الى مصر . وأنام العادل بمرج الصنر وأرسل الى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم . ثم سار الفرنج الى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الملك الكامل بن الملك العادل من مصر ونزل قبالتهم وارسل الملك العادل العساكر التي عنده ليدفعهم .

وخرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد ان غرّم المسلمون على بنائها اموالا كثيرة واشتغلت فيها جيوش وذلك مخافة ان تكون سببا للاستيلاء على دمشق . ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب وأجلس ابنه العزيز في المملكة وكان طفلا طمع صاحب بلاد الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب وكان موت الملك ونصب طفل من ابنائه سببا كبيرا لطمع اعداء المملكة بأخذها . فاستدعى الملك الافضل صاحب دمياط واتفق معه كيكاوس ان يفتح حلب وبلادها ويسلمها الى الافضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الاشرف بن الملك العادل ويسلمها كيكاوس وتحالفا على ذلك فاستولى

كيكاوس على رعبان وسلمها الى الافضل ، فمالت اليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار الى تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الافضل منه وتغيرت خواطر أهل البلاد ، ووصل الاشرف الى حلب لدفع كيكاوس عن المملكة ، ووصل اليه بها الامير مانع بن حديثة أمير العرب في جمع عظيم ، وكان كيكاوس سار الى منبج وتسلمها لنفسه ، وانقع بعض عسكر الاشرف مع عسكر كيكاوس فانهزمت مقدمة هذا فولى كيكاوس منهزماً ، ثم حاصر الاشرف تل باشر واسترجعها مع رعبان وغيرها ونوجه الافضل الى سميسات . هذه السنة ورد «مر الى المعتمد والي دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال وتخريب دروب قصر حجاج والشاغور وطرف البساتين ونقل غلة داريا الى القلعة وغريق اراضيها بالماء فان الفرنج مظهرون قصدها . واللقى المعظم بالفرنج على القيمون فنصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية .

توفي الملك العادل في عالقين في الجيدور (٦١٥) وكان نازلاً بمبرج الضفر وقد أرسل العساكر الى مصر وولده الكامل بالديار المصرية ومدة ملكه نحو ١٩ سنة . وكان حازماً متيقظاً غزير العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة ، صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويفضي عنه ، وأثنى السعادة واتسع ملكه وكثرت ذريته ، وخلف ستة عشر ذكراً عدا البنات ، ورأى في اولاده ما يحب « ولم ير احد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في اولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في اولاده » وقد خلف العادل آثاراً مهمة في البلاد التي تولاه لا يزال بعضها ماثلاً في البلاد ، وطهر جميع ولاياته من الكرخ الى همدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن من النساء والخموز والخواطي والقمار والمخانيث والمكوس والمظالم وكان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة الف دينار . واستمتع العادل بالملك وخدم الدولة خدمة طيبة وساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد ايقاع اخيه بهم وتشنت كلمة أبناء صلاح الدين . ولما هلك العادل لم يكن عنده احد من اولاده حاضرراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان بناهلس وكنم موته ، وأخذه ميتاً في محفة وعاده الي دمشق ،

واحتوى المعظم على جميع ما كان لآبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، وكان في خزائنه سبعمائة الف دينار ، وحلف له جميع الناس وكتب الى الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، ولما بلغ الكامل موت آبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه جداً واختلقت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض ائقال المسلمين ، وكان في العسكر عماد الدين احمد المشطوب وكان مقدماً عظيماً في الاكراد العسكرية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل في العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على منارقة البلاد والحقق باليمن . وبلغ الملك المعظم ذلك رحل من الشام ووصل الى أخيه الكامل وأخرج عماد الدين ونفاه من العسكر الى الشام فانظم امر الملك الكامل ، وقويت مضايقة الفرنج لدمياط وضعف اهلها بسبب الفتنه التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب .

وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين اولاده فجعل بمصر الكامل محمداً وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى ، وجعل بعض ديار الجزيرة وميفارقين وخلاط واعمالها لابنه الاشرف موسى ، واعطى الرها لولده شهاب الدين غازي ، واعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه . فلما توفى ثبت كل منهم في المملكة التي اعطاه اباها ابوه وانفقوا اتفاقاً حسناً ولم يمر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجري بين اولاد الملوك بعد آباءهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه . قال ابن الاثير : « فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الامر والحكم ، لم يره ابوهم ، ولعمري انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام » .

ودخلت سنة ٦١٦ والملك الاشرف مقيم بظاهر حلب يدير امر جندھا واقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج وهم محاصرون لشجر دمياط ، وكتب الكامل متواصلاً الى اخوته في طلب النجدة ، ثم سقطت دمياط في ايدي الفرنج ، فأرسل الملك المعظم عيسى وخرب اسوار القدس مخافة ان يصيبها ما اصاب دمياط ، ولما استولى الفرنج على دمياط عظم الامر على آل ايوب ، فكتب المعظم الى الواعظ

سبط ابن الجوزي : أريد ان تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ماجرى على اخوانهم
أهل دمياط ، واني كشفت ضياع الشام فوجدتها التي قرية منها الف وستائة
املاك لا عليها وأربعمائة سلطانية ، وأريد ان تخرج الدماشقة ليزبوا عن املاكهم
الاصغر منهم والاكابر . فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا ، فأخذ اثنين والخمس
من أموالهم لتقاسمهم ، ثم فتح المعظم قيسارية وسار الى النهر ففتحته وهدمه وخرب
في بلاد الفرنج .

فتح الصليبيين دمياط } وفي سنة ٦١٨ قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في
وذلتهم بعد العزة } مدينة المنصورة التي بناها الكامل ، وأشد القتال
بين الفريقين برأ وبجراً وكتب الملك الكامل الى اخوته وأهل بيته يستحثهم على انجاده
فسار الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف صاحب البلاد الشرقية وعسكر
حلب وصاحب حماة وصاحب بعلبك وصاحب حمص فوصلوا القطر الماعري والقتال
مشتد بين المسلمين والفرنج ، ورسل الملك الكامل واخويه مترددة الى الفرنج في الصلح
وقد بذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبله وجميع ما فتحه
السلطان صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك ، على ان يجيبوا
الي الصلح ويسلموا دمياط الى المسلمين ، فلم يررض الفرنج بذلك وطلبوا ثلاثمائة
الف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس ، وقالوا لا بد من تسليم
الكرك والشوبك .

وبينا الامر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بصر الخلة الى
الارض التي عليها الفرنج من بر دمياط ففجروا فجرة عظيمة من بحر النيل ، وكانت
ذلك في قوة زيادته ، فركب الماء تلك الارض وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط ،
وانقطعت عنهم الميرة والمدد فبعثوا يطلبون الامان على ان ينزلوا عن جميع ما بذله
المسلمون لهم ويسلموا دمياط ويعقدوا الصلح . فنجت بلاد الشام بل بلاد مصر
من الفرنج في هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم ولم يكونوا من المعرفة بحيث
يقدر ان منازلهم ومنازلهم ، فخابت آمالهم وخذلتهم قوتهم وتحكم فيهم من كانوا يستطيعون

عليهم ويستطون في مطالبتهم ، وكانت مدة اقامتهم في بلاد الاسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً .

ولما انكسر الفرنج على دمياط واسر ملكهم سان لوي وثلاثون ألفاً من رجاله دخل الناس كما قال ابن ابي شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة وسرور ومنعهم المغاني والمغاربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة قال : وبلغني ان النصارى بعبك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيسةهم حزناً على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالي وامر اليهود بصفعهم وضربهم واخذت منهم .

اختلاف بين ابناء العادل) وقضد الملك المعظم عيسى حماة لان الملك الناصر وتقدم الكامل عليهم) صاحبها كان قد التزم له بما لم يسمه اليه اذا ملك حماة فلم يف ، ونزل بعين وغالقت ابواب حماة فجري بينهما قتال قليل . ثم ارتحل الملك المعظم الى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها ، ثم توجه الى المعرة فاستولى عليها . وبلغ الملك الاشرف ما فعله اخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك وانفق مع اخيه الكامل على الانكار على الملك المعظم وترحيله فارسل اليه الكامل ناصح الدين التارسي فوصل الى الملك المعظم وهو سلمية وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل فقال : السمع والطاعة ، وكانت اطاعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فدخل عنها مغضباً ، وتسلم المظفر سلمية من اخيه الملك الناصر ، واستقر بهد هذا حماة والمعرة . وبعين ، ثم سار الاشرف من مصر واستنصب معه خلعة وسناجق سلطانية من اخيه الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره عشر سنين ، ووصل الاشرف بذلك الى حلب واركب العزيز في دست السلطنة ، ولما وصل الاشرف بالخلعة الى حلب اتفق مع كبراء الدولة الخليفة على تريب قلعة اللاذقية فارسلوا عسكرياً وهدموها الى الارض .

كان الملك الاشرف انعم على اخيه الملك المظفر غازي بخلاط الارمنية وهي مملكة عظيمة وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين اخويه الكامل والاشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة ، فأرسل المعظم وخسروا لـ لاخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الاشرف ، فأجاب المظفر الى ذلك وخالف

اخاه الاشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب اربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك ، وكان بدر الدين لولو منتبهاً الى الاشرف فسار مظفر الدين وحاصر الموصل عشرة ايام لبشغل الاشرف عن قصد اخيه بخلاط ، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها وسار الاشرف الى خلاط وحاصر اخاه شهاب الدين غازي فسلمت اليه مدينة خلاط ، وانحصر اخوه غازي بقلعتها الى الليل فنزل من القلعة الى اخيه الاشرف واعتذر اليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي البلاد منه .

وذكر ابن شامة في حوادث سنة ٦٢٠ ان الاشرف بن العادل عاد من مصر الى الشام فاصداً بلاده بالشرق فالتقاه اخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع . وبعد ان ذكر كيف عصا اخوه عليه في خلاط قال : انه كتب الى اخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء اليه فكتب اليه : يا اخي لا تفعل انت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بهدك وتسمع كلام الاعداء فوالله ما ينفعوك ، فأظهر العصيان فجمع الاشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير الى خلاط وكان صاحب حمص قد مال الى الاشرف فسار المعظم الى حمص ووصل الى حماة ونزل على بعيرين فأقطع بلاد حماة وعاد الى حمص وخرج اليه العسكر فظفروا عليه ونهبوا اصحابه فعاد الى دمشق ولم يظفر بطائل .

وتوفي الملك الافضل (٦٢٢) نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف وايس بعده غير سيمساط وكان حسن السيرة وتجمعت فيه الفضائل والاخلاق الحسنة وكان مع ذلك قليل الحظ وله شمر جيد .

وفي سنة ٦٢٢ كان بأبدي الاسماعيلية بالشام ثمان قلاع وهي قلعة الكهف والعلبة والقدموح والحوابي والمدينة ومصيان والرصافة والذليعة فان ابن صباح لم يمت حتى ملك بالشام جبل عاملة وتلك الحصون . قال ابن ميسر : ان الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية ، ومن كان بالموت يقال لهم الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية .

وفي سنة ٦٢٣ سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص

وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية ثم رحل المعظم عن حمص الى دمشق وورد عليه اخوه الاشرف طلباً للصلم وقطعاً للفتن فبقي مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كلاً سير معه ولما رأى الاشرف حاله مع أخيه المظفر وأنه لا خلاص له منه الا باجابهته الى ما يريد أجابه (٦٢٤) كذا كره الى ما طلبه منه وحلف له ان يعاضده ويكون معه على اخيهما الكامل ، وان يكون معه على صاحبي حماة وحمص فلما حلف له على ذلك أضلقه المعظم . قال ابن الاثير : ان انفساق الملوك اولاد الملك الدادل ابي بكر بن أيوب كان سبباً لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس اجمعون بذلك . وفي سنة ٦٢٤ قدم رسول الانبرور ملك الفرنج المجرية على المعظم (بدمشق) بعد اجتماعه بالكامل يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين فأغلظ له وقال : قل لعاحبك ما انا مثل العزيز ما له عندي الا السيف .

ولما استقر الاشرف ببلاده رجع عن جميع ما تقرّر بينه وبين أخيه المعظم ، وتناول في أيمانه التي حلفها انه مكره ، ولما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك ، وكتب الانبرور ملك الفرنج في ان يقدم الى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الانبرور ان يعطيه القدس ، فسار الانبرور الى عكا فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الاشرف واستعطفه .

قال ابن الاثير : ان الكامل لما سار من مصر الى دمشق خاف المعظم ان يأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الاشرف يستنجده ، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريداً فدخل دمشق ، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد حاربه من يمنعه ويحميه ، وأرسل اليه الاشرف يستعطفه ويعرفه انه ملجأ الى دمشق الا طاعة ومواناة لا غرضه والانفساق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول : انني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنعه عما يريدونه ، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا ، وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على نقضي الاعصار وممر الايام ، فان أخذنا الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا ، واي وجه يبق لنا عند الناس وعند

الله تعالى ، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه و يتعدون الى غيره ، وحيث قد حضرت
 انت فاننا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ، ولست بالذي يقال عني اني قاتلت
 اخي او خصرته حاشا لله تعالى وتأخر عن نابلس الى الديار المصرية .
 وانتزع هذه السنة الاتيك طغرل الشغر وبكس من الملك الصالح احمد ابن
 الملك الظاهر وعرضه عنها بعينتاب والاروندات وفيها توفي الملك المعظم عيسى
 ابن العادل وكان شجاعاً عالمًا وعسكره في غابة النجمل يحامل أخاه الملك الكامل ويخطب
 له بيلاده ولا يذكر اسمه معه ولا يحب التكلف والعظمة . ذكر سبط ابن الجوزي :
 ان المعظم كان في ايام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس الى عكا
 وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس
 علامات ، وكان له في عكا أصحاب أخبار واكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في
 قبالة الكرمل فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة
 فارس او قعدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون
 قصد جوران او ناحية دمشق اشعلت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان
 قد ضيق على الفرنج الطرق وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة .
 وترتب في مملكة المعظم واعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود ونام بتدبير مملكته
 مملوك والده واستاذ داره الامير عز الدين ابيك المعظمي وكان لا يبك صرخة .
 ولم يطل الامر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر
 حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك ولا اجابه اليه ، فسار الملك الكامل من مصر
 الى الشام ونزل على قل العجول بظاهر غزة فولي على نابلس والقدس وغيرها من
 بلاد ابن اخيه الملك الناصر داود ، فاستجد الناصر بعمه الملك الاشرف فجاءه من
 بلاده الشرقية فوقع الاتفاق ان يسير الناصر داود والملك المجاهد شيركوه مع الملك
 الاشرف الى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، ويتوجه الاشرف الى اخيه الكامل
 الى غزة ، شافعا في ابن اخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك ، ولما وصل الاشرف الى
 اخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على اخذ دمشق من ابن اخيهما الناصر داود ،
 وتعيضه عنها بجران والردار اربعة من بلاد الاشرف ، وان تستقر دمشق للاشرف

و يكون له الى عقبية فيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكمال وان ينتزع حماة من الناصر قليج ارسلان و يعطي المظفر محمود بن الملك المنصور ، وان ينتزع سلمية من المظفر محمود وكانت اقطاعه و يعطي لشيركوه حمص : و وقعت سنة ٦٢٥ وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة انفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لترك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة .

الحملة الصليبية . } وهذه هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩ م) وكانت السادسة } بزعامة الانبرور فريدريك الثاني وكان سياسياً داهية فلم يدخل في حرب مع المسلمين بل فاض الكامل وتسلم القدس وبيت لحم والناصر لمدة عشر سنين واليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن :

استولى الانبرور فريدريك صاحب صقلية وبولاية وانكبرديه على صيدا ، وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا عليها ، وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها نينين وهونين وغيرهما . وبنينا كانت الرسل تتردد بين الملك الكامل وبين الانبرور رحل الناصر داود وهو بنابلس الى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الاشرف وعرفه ما امر به عمه الكامل ، وانه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر الى ذلك فسار الاشرف في اثره وحصره بدمشق ، وكانت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الجديد وفي الميدان وما بين ذلك والنصر فيه لاهل دمشق ، ووقع الحريق والنهب في باب توما ، وأحرقت بعض الطواحين ونهبت الدور ووقع الجرح والقتل وخربوا بعد ايام قريات من قرى الغوطة وأخرجوا منها اهلاً مثل جوهر وجديا وزملكا وسقبا وغيرها . قال في الزيل : وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة اولاد صلاح الدين يحكون انهم ما رأوا اشد من هذا الحصار وفي هذا الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة اسد الدين وخانقاه خاتون وما يليها من الخانات والدور والبساتين والحمامات والخانقاهات .

طال الامر ولم يجد الملك الكامل بداً من المهادنة فأجلب الانبرور الى تسليم

القدس اليه ، على ان تستمر اسواره خراباً ولا يعمرها الفرنج ، ولا يتعرضوا الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الأقصى ، ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين و يكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا الى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الانبرور القدس فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظائم ، وأقيمت المآتم وقال الوعاظ والعلماء يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه المآثلة .

قال ابن ابي شامة : جاءنا الخبر بان الكامل اخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه الى الفرنج فصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ، وكان هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سبباً في ان توغرت قلوب اهل دمشق على الكامل ومن معه ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة . وقد ذكر سبط ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين والمغلوبين اذ ذاك قال ما نصه : كان الكامل قد تقدم الى القاضي شمس الدين قاضي نابلس ان يأمر المؤذنين ما دام الانبرور في القدس ان لا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا في الحرم ، فأنسي القاضي ان يعلم المؤذنين وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر والانبرور نازل في دار القاضي فجعل يقرأ الآيات التي تخص بالنصارى مثل قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ذلك عيسى ابن مريم » ونحو هذا فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له : ايش عملت السلطان رسم كذا وكذا قال : فما عرفني التوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الانبرور القاضي وكان قد دخل القدس في خدمته وهو الذي سلم اليه القدس فقال له : يا قاضي اين ذاك الرجل الذي طالع البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام ، فعرفه ان السلطان ارضاه ، فقال الانبرور : اخطأتم باقاضي تغيرون انتم شعاركم وشرعكم ودينكم لاجلي ، فلو كنتم عندي في بلادي هل ابطل ضرب النافوس لاجلكم ، الله الله لا تفعلوا هذا ، ازل ما تنقصون عندنا ، ثم فرق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة اعطى كل واحد عشرة دنانير ولم يبق بالقدس سوى ليلتين وعاد الى يافا وخاف من الدابة فانهم طلبوا قتله .

وكان هذا الانبرور مثل اكثر ملوك ايطاليا يحسنون العربية فان فريدريك هذا مثل غليسان الذي ذكر ابن جبير انه كان يحسن العربية كان كثير الثقة

بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم امراء دولته ، وهو يتشبه بامراء المسلمين ويعني بالعلماء كما كان يعني روجر ، ملك تلك البلاد بالعلم وهو الذي قدم له الشريف الادريسي كرة ارضية من الفضة وافضل عليه كثيراً .

اختلافات جديدة بين | بعد ان « أحيط بدمشق من كل جانب وحل بها
آل العادل | من الخراب والفساد العجائب » واشتد عليها الحصار
عوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء واللمت والاغوار والشوبك ، واخذ الكامل
لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر وهي حراب والرها وغيرهما التي
كانت بيد الاشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها
فقباهما ، وتسلم دمشق الاشرف ، وتسلم الكامل من الاشرف البلاد الشرقية المذكورة
ولما سلم الملك الكامل دمشق الى اخيه الاشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج
ثم نزل على سلمية وارسل عسكرياً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج ارسلان وكان
فيه « جبن » . وكانت في العسكر الذين نزلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم اليه
اخذته الى الملك الكامل وهو نازل على سلمية فثمنه وامر باعتقاله وان يتقدم الى نوابه
بحماية بتسليمها الى الكامل ، فارسل الناصر قليج ارسلان علامته الى نوابه بحماة ان
يسلموها الى عسكر الامان الملك الكامل ، فامنع من ذلك العلواشيان بشر ومرشد
المنصوريان ، وكانت بقلعة حماة اخ للملك الناصر يلقب الملك المعز بن الملك المنصور
صاحب حماة فمدكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل : لانملك حماة لغير احد من اولاد
نقي الدين . فارسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة انفق مع غلمان
ايك وتسلم حماة وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكامي فراسل المظفر
الحكام بحماة فخلعوا له وواعدوا المظفر ان يحضر بجماسته خاصة وقت السحر الى باب النصر
ليتمخوه له فدخل البلد وتسلم القلعة ، وفوض تدبير حماة الى الامير سيف الدين علي
الهدباني ، ولا استقر المظفر في ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه وسلمها الى شيركوه
صاحب حمص ورسم الكامل لاختيه المظفر ان يعطي اخاه الناصر قليج ارسلان بعرب
بكالها ، ولم يبق بيد المظفر غير حماة والمعة ، ثم رحل الكامل عن سلمية الى البلاد

الشرقية التي اخذها من اخيه الاشرف عوضاً عن دمشق وارسل الاشرف اخاه صاحب بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها صاحبها الملك الامجد بهرام شاه ، ولما طال الحصار عليها سلمها الامجد ، وعوضه الاشرف عنها الزبداني وقصير دمشق ومواقع أخرى . وقصد الفرنج حصن بارين ونهبوا بلاده واعماله واسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فأخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ .

وفي سنة ٦٢٧ شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يتمكن ذلك لكونه بأمر الملك الكامل . وفيها جمعت الفرنج من حصن الاكراد وقصدوا حماة فخرج اليهم صاحبها المظفر محمود والنقاهم عند قرية بين حماة وبعرين يقال لها افيون وكسروهم كسرة عظيمة .

وفي سنة ٦٢٨ سار الكامل من مصر الى دمشق فسلمية واجتمع معه ملوك اهل بيته في جمع عظيم ثم سار بهم الى آمد وحصرها واتلمها من صاحبها المسعود بن الملك الصالح محمود ، وكان سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته وتعرضه لحريم الناس ، وحاصر المظفر صاحب حماة اخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفاً من ان يسلمها للفرنج لضعفه عنهم ، وانتزعها منه واكرمه وسأله الانامة عنده بحجة فسار الى أخيه الكامل في مصر . وسار الكامل من مصر (٦٣١) الى قتال كيقباز ملك الروم وقد استنصب معه ستة عشر ملكاً من ملوك الشام وابزيرة من اخرته وآل بيته في عسكرهم وقطعوا الفرات وانهزم العسكر الكامل على خربت ، وذلك لان الملوك الذين في خدمته خافوا عليه (خاتلوه) ونقأوا عن الحرب لان شيركوه صاحب حمص سعى اليهم وقال : ان السلطان ذكر انه متى ملك بلاد الروم فرقمها على الملوك من اهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام ، يأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر ، ففقدوا عن القتال وفسدت نياتهم فرجع الكامل الى مصر وعاد كل واحد من الملوك الى بلده .

وفي سنة ٦٣٣ سار الناصر داود من الكرك الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل . وسار الكامل من مصر واسترجع

جران والرثا من كيقباد صاحب الروم ، وكان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن بلاده ، وبدأت في هذه السنة طلائع الشر . قال سبط ابن الجوزي : وكانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس .

وتوفي العزيز صاحب حلب جنيد صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث وعشرين سنة واشهر ونقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرميني وعن الدين عمر بن مجلي وجمال الدين أقبال الخاتوني ، والمرجع في الأمور إلى والده العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل . ذكروا أنه لما ولدت ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ابنها العزيز هذا في سنة عشر بعد الستائة بقيت حلب شهرين مزينة والناس في أكل وشرب ولم يبق صنف من اصناف الناس إلا أفاض عليهم السلطان النعم ووصلهم بالاحسان وسير إلى المدارس والخوانق الغنم والذهب وأمرهم أن يعملوا الولائم ثم فعل ذلك مع الاجناد والعلماء وعمل للنساء دعوة مشهودة أغلقت لها المدينة وأما داره بالقلعة فزينها بالجواهر وأواني الذهب ولما ختن ولده قدم له نقادم جليمة فلم يقبل منها شيئاً رفقا بهم لكن قبل قطعة سمندل ذراعين في ذراع فغمسوها في الزيت وأوقدوها حتى نفذ الزيت . وفي ذلك برهان جلي على رفيق آل أيوب برعيتهم وحسبهم لهم . وقويت الوحشة بين الكامل وبين أخيه الأشرف ، وكان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون اخت الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق ، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الكامل وكاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الكامل أن يخرج من مصر . وتوجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الدواية بعد ما فتحها صلاح الدين يوسف وخرّبها واشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب انطاكية ، ثم إن الفرنج اغاروا على ريف دريساك وهي جينند لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر

فيهم القتل والاسر وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤوس الفرنج وكانت هذه الواقعة من اجل الوقائع .

توفي الملك الاشرف (٦٣٥) وتملك دمشق بعده اخوه الملك الصالح اسمعيل بعهد منه . قال ابوالفداء : وكان الاشرف مفرط السخاء يطلق الاموال الجليلة النفيسة ، وكان ميمون النقبية لم تنهزم له رابية ، وكان سعيداً و يتفق له اشياء خارقة للعقل . وعلل الاشرف سبب الوحشة بينه وبين اخيه الكامل صاحب مصر ان الاشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لانني بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم اخيه الكامل الى دمشق ، ولما فتح الكامل آمد وبلادها لم يزد منها شيئاً ، وبلغه ان الكامل يريد ان يفرد بمصر والشام و ينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ولما بلغ الكامل في مصر وفاة اخيه الملك الاشرف سار الى دمشق وكان الملك الصالح اسمعيل قد استعد للحصار ووصلت اليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص فنازل الكامل دمشق واخرج الملك الصالح النفاطين فاحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات واسواق ، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزبدون على خمسين رجلاً فنجدة للصالح اسمعيل فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الكامل على دمشق ارسل توقيعاً للمظفر صاحب حماة بسلامية ثم سلم الملك الصالح اسمعيل دمشق الى الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً الى بصرى . قال ابن ابي شامة في هذا الحصار : انه كان اكثر خراباً في ظاهر البلد وحريراً ومصادرة واقل غلاء ولم تطل مدته فان الصلح جرى ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط واليوم الذي فتحت فيه آمد .

وفاة الملك الكامل (توفي الكامل بدمشق هذه السنة (١٣٥) بعد ان حكم وحال الشام بعده (في مصر نائباً وملكاً نحو اربعين سنة ، واشبه حاله حال معاوية بن ابي سفيان فانه حكم في الشام نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين . وكان الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير أمنت الطرق في ايامه وكان مباشراً تدبير المملكة بنفسه . قال ابن خلكان : كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد ، معاشراً لارباب الفضائل حازماً في

اموره ، لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتنار . وكان يخطب له بمكة : « مالك مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وحناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين » .

وكان مع الكامل بدمشق الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الامراء على تحليف العسكر للملك العادل ابي بكر بن الكامل ، وهو حينئذ نائب ابيه بمصر فخلف له جميع العسكر واقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل نائباً عن العادل ابي بكر بن الكامل ، وتقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه ان اقام فرحل الى الكرك وتفرقت العساكر . وارسل صاحب حمص فارجمع سلمية من صاحب حماة ، وقطع القناة الواصلة من سلمية الى حماة فبيست بساكنيها ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين .

لما بلغ الحلبين موت الكامل اتفقت آراؤهم على اخذ المعرة ثم اخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الملك الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حاب الى المعرة وانتزعوها من يد المظفر وحاصروا قلعتها ، وخرجت المعرة عن ملك المظفر ، ثم سار العسكر الحلابي ونازلوا حماة ونهبوا بلادها ، ولما لم يبق بيد المظفر غير حماة وبعري خاف ان تخرج بعريين بسبب قلعتها فلتقدم بهدمها فهدمت الى الارض .

وجرى بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين و نابلس ، انتصر فيه الجواد يونس وانهمزم الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الواقعة وكان في عسكر مصر والشام وتمكن من دمشق ونهب عسكر الناصر واشتقاه . واستولى الملك الصالح ايوب بن الكامل على دمشق واعمالها بتسليم الجواد يونس واخذ العوض عنها سنجار والرقعة وعانة ، ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه الى مصر ليملكها فذهب وجعل نائبه في دمشق ولده الملك المنيف فتح الدين عمر وكان الجواد لما يئس من ملك الشام فرق الضياع على الامراء وخلع عليهم ، وفرغ الخزانين وكان

فيها تسعمائة الف دينار . وفي رواية انه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف دينار
ويخلع خمسة آلاف خلعة .

وفي سنة ٦٣٧ هاجم الملك الصالح اسمعيل صاحب بعلبك وبعه شيركود صاحب
حمص مدينة دمشق وحصروا القلعة فخرت بذلك دور ومدارس تحت القلعة ثم تسلم
الصالح اسمعيل القلعة وحاصر الصالح نجم الدين ايوب حمص ولما بلغ الصالح ايوب
استيلاء عمه اسمعيل على دمشق رحل من نابلس الى الغور وكان هناك قاصداً الى مصر
للاستيلاء عليها ففسدت زيات عساكره عليه وشرعت الامراء ومن معه من الملوك
يخرجون تقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح ايوب الى الصالح اسمعيل بدمشق ، فلم يبق
عند الصالح ايوب بالغور غير مماليكه فاصبح لا يدري ما يفعل ولا له موضع يقصده
فامسكه الناصر داود صاحب الكرك واعنقله عنده مجبلاً . وقصد الناصر داود القدس
وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وضرب
برج داود . وتوفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكان عسوفاً لرعيته وملك
حمص نحو ست وخمسين سنة ملكه اباها صلاح الدين يوسف .

انقراض الايوبيين

« وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتار »

— من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ —



بينما كان ابناء ايوب يلقانون على الملك والصلبيين قد
أخلدوا الى السكون بعد حادثة صاحب مصر معهم واكنفوا
ظهور الخوارزمية } بما ملكوه من مدن الساحل والقدس ، وجاء الخوارزمية يعيشون في البلاد ويروعون
أهلها ويقتلون فيهم ويخربون العامر . والخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي احد
ملوكهم الذي استولى على ايران والعراق وأذربيجان وكرجستان وكانت عاصمة ملكه
تبريز . جاؤا سنة ٦٣٤ الى البلاد الشرقية فاستخدمهم الملك الصالح أيوب بن الكامل
وكان في آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائباً عن ابيه جاؤا بعد ان قتلوا ملكهم
الى كيقباز ملك بلاد الروم وخدموا عنده وكان فيهم عدة مقدمين ، فلما مات كيقباز
وتولى ابنه كيخسرو قبض على بركت خان اكبر مقدميهم ، فنارقت الخوارزمية حينئذ
خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم ، فاستألم الملك الصالح نجم الدين
أيوب بن الملك الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم ، فما زال
هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المظفر .
كثير عيث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا
الى قرب حلب (٦٣٨) فخرج اليهم عسكر حبيب مع الملك المعظم - تورانشاه ابن صلاح

الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير ، منهم الملك الصالح بن الافضل بن السلطان صلاح الدين ، وأسر مقدم جيش المعظم ، واستولى الخوارزميون على انقال الحلبين وأسروا منهم عدة كثيرة . وكانوا يقتلون بعض الاسرى يشتري غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً . ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حبالا وكثر عيبتهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وأحرقوا الاقوات التي في القرى ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار ، وارتكب الخوارزمية من الفواحش والقتل ما ارتكبه النمر ، ثم سار الخوارزمية الى منبج وهجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ورجعوا الى بلادهم وهي حران وما معها . ووصلوا الى الجبول ثم الى تل عراز ثم الى سرمين ودخلوا دار الدعوة المنسوبة الى الاسماعيلية ووافوا المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، وقد جفل الناس من بين أيديهم .

وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبين ، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية الى جهة حماة ولم يتعرضوا الى نهب لانحاء صاحبها الملك المظفر الى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية الى سلمية ثم الى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان اليهم ولحقهم العرب فألقت الخوارزمية ما كانت معهم من المكاسب وسيبوا الاسرى .

ووصلت الخوارزمية الى الفرات ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم الى الليل ، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا الى حران فسار عسكر حلب الى البيرة وقطعوا الفرات منها ، وقصدوا الخوارزمية وانقعوا قريب الرها ، فولى الخوارزميون منهزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون . ثم سار عسكر حلب الى حران فاستولوا عليها ، وهربت الخوارزمية الى بلد عانة وبادر بدر الدين لولو صاحب الموصل الي

نصیبین ودارا وكانت للخوارزمية فاستولى عليها ، وخأص من كان بهما من الاسرى ، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيراً في دارا من حين أسروه في كسرة الخلبين ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وماع ذلك . واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على بلد الحسابور ثم سار عسكر حلب ووصل اليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم بن الملك الصالح ايوب بآمد وتسلوها منه وتركوا له حصن كيغا وقلعة الهيثم .

اختلاف بني ايوب
واعتضاد بعضهم للفرنج
وعودة الخوارزمية

كان الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل قد استولى بمد ملك دمشق على سنجار وعانة ، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب عنها فاستولى عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء ، فسار على البرية الى غزوة وارسل الى الملك الصالح ايوب صاحب مصر يسأله في المصير اليه فلم يجبه الى ذلك فسار يونس حينئذ ودخل الى عكا ، وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد من الفرنج واعنته ثم خنقه (٦٣٨) .

وكان قد قوي خوف الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيه الصالح ايوب صاحب مصر فسلم الملك الصالح اسماعيل صفد والشقيف الى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن اخيه صاحب مصر مما لم يهد له مثال في تاريخ بني ايوب - حتى الآن اللهم الا ما كان من مفارقة الكامل صاحب مصر لملك الفرنج سنة ٦٢٤ في ان يقدم الى عكا ليشغل سر اخيه المعظم عما هو فيه ووعد له باعطائه القدس ، وكان ذلك خديعة من الكامل ل اخيه المعظم حتى لا يستنجد باحد من ملوك الاطراف عليه اذ لم يتم شيء من ذلك . وقد انكر على الصالح اسماعيل كل من شيخ الشافعية والمالكية بامتناعه عن عزل من وظائفها وسجننا بقلعة دمشق .

وكان في سنة ٦٤٠ مصاف بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور ابراهيم صاحب حمص وذلك بالقرب

من الخابور فانهزم الخوارزمية وصاحبهم اقبج هزيمة. ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهبت وغانبات^(١) الخوارزمية ونساوهم . وتوفيت هذه السنة ضينة خاتون والدة الملك العزيز وابنة الملك العادل ، وكانت تصرف في ملك حلب تصرف السلاطين وقامت بالملك احسن قيام ، وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه انه بلغ وحكم . واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف اليها ، والمرجع في الامور الى جمال الدين اقبال الاسود الخصي الخاتوني .

وفي السنة التالية قصدت النثر بلاد صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالخام بن فأرسلوا اليه نجدة مع ناصح الدين التارسي فانهزم الروم والحلبوب . وسار الصالح وحاصر عجلون وقتل من عسكره يوم الزحف عليها فوق المائتين وغرم اربعمائة الف دينار على هذه الحملة ولم يقدر على فتحها . وفيها كانت المراسلة بين الصالح ايوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح ، وانفق الصالح اسماعيل مع الناصر دأرد صاحب الكرك واعتضدا بالفرنجة وسلا ايضاً الى الفرنجة عسقلان وطبرية فحمر الفرنجة تلعتيها وسلا ايضاً اليهم القدس بما فيه من المزارات .

ووصلت الخوارزمية (٦٤٢) الى غزوة باستدعاء الملك الصالح ايوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والرتوج الى اطراف بلاد دمشق حتى وصلوا الى بلاد غزوة ودمروا بيت لحم ، ووصل اليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية ، وأرسل الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع شيركوه صاحب حمص ودخل عسكراً فاستدعى الفرنجة على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر وكأن اعطاهم الشقيف فخرجت الفرنجة بالفارس والراجل ، واجتمعوا ايضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر دأرد ذلك والنقي الثريقات بظاهر غزوة فانهزم الفرنجة فولى عسكر دمشق وصاحب حمص والكركيون وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . قيل ان القتلى زادوا على الثمانمائة وانه اسر من الفرنجة ثمانمائة . قال ابن ابي شامة : كسرت الفرنجة ومن انضم اليهم من منافقي المسلمين . كبيرة عظيمة في عسقلان وغزوة وغنم منهم اموال عظيمة وأسر من الفرنجة خلق

(١) الوطاق . الخيمة او مجموعة الخيام والمسكر .

من ملوکهم وکبرائهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . واستولى الملك الصالح ایوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ثم ارسل باقی عسکر مصر مع معین الدین بن الشیخ واجتمع اليه من بالشام من عسکر مصر والحوارزمية وساروا الى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسمعيل وابراهيم بن شيرکوه صاحب حمص والمضائق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له سير الصالح اسمعيل وزیره امين الدولة على العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن اخيه فلم يجب الخليفة الى ذلك . وتسلم عسکر الملك الصالح ایوب دمشق من الصالح اسمعيل بن الملك العادل على ان يستقر بهد الصالح اسمعيل بعلمك وبصرى والسواد وتستقر حمص وما هو مضاف اليها بعد صاحبها . ثم ان الحوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح ایوب فانهم كانوا يعتقدون انهم اذا كسروا الصالح اسمعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات ما يرضي خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح ایوب وصاروا مع الملك الصالح اسمعيل ، وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا الى دمشق وحاصروها فقاى اهلها شدة عظيمة . قال الذهبي : واشتد البلاء بدمشق واحترقت العقبة والخوانيق ، ودام الحصار والويل خمسة اشهر ، وهلك العوام موتاً وجوعاً وقل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح النأ وستائة درهم وابتاع الخبز كل اوقيتين بدرهم واكلوا الميتة وابتعت الاملاك والامتعة بالشيء البير ، وابتاع رطل اللحم بتسعة دراهم ، واثن البلد بالموتى على الطرق ، وعظم الخطب واوذلك يقاتلون على الملك ، والخمور الفاحشة مضمنة بالبلد والمكوس شديدة . وقال غيره : وقطعت الحوارزمية على الناس الطرق وزحفوا الى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وضربوا بالمناجيق وكان يوماً عظيماً ، وبعث الصالح اسمعيل الزرايين فأحرقوا جوسق العادل وزقاق الرمان الى العقبة بأسرها ، ونهبت اموال الناس واحترق بعضها . وزاد سبط ابن الجوزي : انه احرق قصر حجاج والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات ودور عظيمة ، ثم نصبت على دمشق المناجيق ورميت به من بابي الجابية والصغير ، ونصبت مناجيق ايضاً من داخل البلد ، وتراعى الفريقتان وامر بتخريب عمارة العقبة خارج باب الفرادين وباب السلامة وباب الفرج واحرق حكر السماق وخارج باب النصر . وارسل الصالح اسماعيل

فأحرق جوسق والده العادل . قال المؤرخون : وجري بدمشق أمور شنيعة بشعة جداً لم يثم عليها مثلاً قط .

وفي هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص وفي سنة ٦٤٢ اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم فجمع الأمير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض للمقاهم ، واستنجد بالأمير عبد الله بن الأمير سيف الدين المعني فجمع أهالي الشوف وسار إلى نجدة الأمير عامر والنقي الجمعان في مرج الخيام وصدمتهم الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام ، وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم وولوا مدبرين ، وعظمت بعد ذلك أماراة الأمير عامر واشتهرت صولاته واخذ قطائع في البقاع وأنشأ فيها مغارات عديدة .

وفي سنة ٦٤٤ انفق الحلبيون والمنصور صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح أيوب بن الكامل وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا نحو الحماة بن صاحب حمص والنقوا على بحيرة قدس فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها ، ومضت طائفة من الخوارزمية إلى التتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة ونزقوا في الشام وخدموا به .

وسار الملك الصالح اسمعيل صاحب دمشق إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به وأرسل الصالح أيوب صاحب مصر يطلبه فلم يسلمه الناصر إليه ولما جرى ذلك رحل حسام الدين الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق ، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسمعيل وحاصرها وتسلمها بالآمان وحمل أولاد الصالح اسمعيل إلى الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك ، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح اسمعيل فاعتقل فلم يبق في دمشق وعملها من يدفع عنها فأرسل صاحب مصر عسكراً مع نحر الدين يوسف ابن الشيخ إلى الناصر داود صاحب الكرك فاستولوا نحر الدين على جميع بلاده وحاصر الكرك وخرب ضياعها وضعف الناصر ولم يبق بيده غير الكرك وصادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً .

وفتح (٦٤٥) نحر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية بعد محاصرتهم مدة وكان

عمرهما الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة ٦٤١ . وسلم الاشرف صاحب حمص قلعة شميميس للملك الصالح ايوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للصالح في ملك باقي الشام . وفي سنة ٦٤٦ ارسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لولو الارمني فحاصروا الاشرف بجمص فسلمهم اياها وتعوض عنها بتل باشر مضافاً الى ما بهده من تدمر والرحبة . ولما بلغ ذلك الصالح ايوب شق عليه وسار من مصر الى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ونصب عسكريه عليها منجنيقاً مغرباً يرمي بحجر زنته مائة واربعون رطلاً بالشامي مع عدة منجنيقات أخر ثم رحل عنها لمرض عرض له ولوصول الفرنج الى دمياط ولجئ رسول الخليفة والسعي في الصلح بين الصالح ايوب والحلبين وان تستقر حمص بيد الحلبيين . ثم استولى الصالح ايوب على الكرك اعطاه مفااتيحها الامجد فوهبه خمسين الف دينار .

وفاة الملك الصالح } توفي الملك الصالح ايوب في سنة ٦٤٧ وكان ملك مصر
ومبدأ دولة المماليك } والقسم الاعظم من الشام قال ابو الفداء : وكان مهيباً عالي
الهمة غنياً شديد الوقار والصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغیره من اهل بيته ،
حتى كان اكثر امراء عسكريه مماليكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهلزيه
وسماهم البحرية ، وهؤلاء كانوا اول كلمة اجتمعت من هذا الجيل من الناس والقوا
دولة المماليك البحرية . مات الملك الصالح ولم يوص بالملك الى احد فأحضرت شجرة الدر ،
وهي جارية الملك الصالح ، فخر الدين بن الطواشي وجمال الدين محسناً وعرفت بها بموت
السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج ، وجمعت شجرة الدر الامراء وقالت لهم :
السلطان يأمركم ان تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا
بفء وتسلم ملك مصر الا ان مدته لم تطل اكثر من شهرين وأياماً فقطله المماليك
البحرية الذين أنشأهم والده ، وكان اول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار
سلطاناً فيما بعد ولقب بالملك الظاهر ، والسبب في قتله انه أطرح جانب امراء ابيه
ومماليكه واعتمد على بطائسه التي وصلت معه من حصن كيفا وكانوا أراذل . وأقام
رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وخطب لها على المنابر وضربت

السكة باسمها ، وأرسل المصريون رسولا إلى الامراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا اليه ، وكاتب الامراء القيرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب فسار اليهم وملك دمشق وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة ثم سلمت جميعها اليه ، ولما ورد الخبر بذلك الى مصر قبضوا على من عندهم من القيرية وعلى كل من اتهم بالميل الى الحلبيين .

لا جرم ان مقتل الملك المعظم توراثاه بيد بيبرس البندقداري والماليك ажرية بمصر كان مبدأ زوال الدولة الايوبية من مصر والشام ، فان الاختلاف بين آل البيت الذي تسربت الى أبنائه وأحفاده المطامع ، وكل منهم يريد ان يستأثر بالامر دون اخيه او عمه او ابن عمه ، ثم اعتصام بعضهم بالصلبيين لنجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك ، دعا الى نفي أوصال المملكة ، وان كان أكثر أسرة صلاح الدين ابن أيوب وأخيه ابي بكر بن أيوب على جانب من حسن التربية والعلم ، ولكن الاختلاف اذا سرت شرارته التهم الاخضر واليابس وخدم الاركان القوية فما بالك بها اذا كانت متضعضة . فصارت المملكة بيد الماليك في الحقيقة وكان الذين أنشأهم الملك الصالح أيوب اشبه بالعتصم العباسي في اصطناعه ممالك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية ، وهذا الصالح أدخل الوهن باصطناع الماليك حتى قضوا على الدولة الايوبية .

وكان الملك السعيد بن العزيز صاحب الصببة قد سلمها الى الملك الصالح أيوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصببة فسلمت اليه وتسلم الكرك والشربك الملك المغيث فتح الدين عمر . ووقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وبين الناصر صاحب حلب فاستولى الحلبيون على نصيبين ودارا وقرقيسيا .

وانفق كبراء الدولة في مصر على اقامة امير الجيوش ايبك الجاشنكير في السلطنة لئلا تفسد الامور اذا استقر امر المملكة في يد امرأة . وبين وفاة ضيفة خاتون صاحبة حلب وتملك شجرة الدر صاحبة مصر سبع سنين وهما اول من ملك في الشام ومصر من النساء ، ثم انفق كبراء السلطنة على انه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة وانفقوا على الملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وسلطنوه ، وكان

لغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر فسار اليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة الى الصالحية ، وانفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ، ولما جرى ذلك انفق كبراء الدولة بمصر ونادوا ان البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جدت الايمان للملك الاشرف موسى بالسلطنة ولا يبك التركماني بقيادة الجيش ، ورحل فارس الدين أقطاي الصالحى . مقدم البحرية متوجهاً من مصر الى غزة ومعه تقدير الفى فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

وبعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر والشام وكاد الاجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الامر عنهم بالمرة ، وهذا ما حدا ببعض بقايا الایوبیین في الشام ان يجمعوا شملهم ويسيروا الى مصر للمطالبة بسلطنتهم وسلطنة آبائهم . فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح اسماعيل والاشرف موسى والمعظم تورانشاه وأخوه نصره الدين والامجد حسن والظاهر شاذي أبناء الناصر داود بن المعظم ونقي الدين عباس بن الملك العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم ، والنقى العسكرات المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة اولاً على عسكر مصر ، ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا في النصر ، بقي الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركماني بمن معه عليه ، فولى الناصر منهزماً طالباً الشام وأسر معظم أهل بيته من الملوك واستقر الصالح (٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على ان يكون للمصريين الى نهر الاردن وللناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراي رسول الخلافة هو الذي حضر من جهة الخليفة واصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم الى مقره .

ثم اغتال المعز ايبك التركماني المستولي على مصر خوشداهش^(١) اقطاي الجمدار فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر الى الشام ، وكان الفارس أقطاي يمنع ايبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم الاشرف موسى بن أيوب فلما قتل

(١) الخوشداهش اي المصاحب وهي كلمة فارسية .

أقطاي استقل المعز التركاني بالسلطنة وأبطل الاشراف موسى منها بالكاية ، وبعث به الى عماته . والاشراف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر .

ولما وصلت البحرية الى الناصر يوسف صاحب الشام اطمعوه في ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل الغور وأرسل الى غزوة عسكراً ففزلوها بها وبرز المعز ابيك صاحب مصر الى العباسية ، ومشي نجم الدين الباذراي في الصلح بين المصريين والشاميين وانفقت الحال ان يكون للناصر الشام جميعه الى العريش ويكون الحد بين الوردادة والعريش ، وقتلت شجرة الدر المعز ابيك التركاني الصالح ، وكانت امرأة أستاذة الملك الصالح ايوب ثم تزوج بها ، وكان سبب ذلك انه بلغها ان المعز ابيك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته في الحمام ونصبوا نور الدين علي بن المعز ابيك ولقبوه الملك المنصور ساططاً على مصر والشام .

ونقل الى الناصر يوسف صاحب دمشق ان البحرية يريدون ان يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم ونقدم اليهم بالانتزاع عن دمشق فساروا الى غزوة ، فأرسل عسكراً في أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه . ثم ان عسكر الناصر بعد الكسبة كسروا البحرية فانهمزموا الى البلقاء والى زعر ملتجئين الى المغيث صاحب الكرك ، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جليلاً وأطمعوه في ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه . وسارت البحرية الى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث فانهمز عسكر المغيث والبحرية وفيهم يبرس البندقداري الى جهة الكرك . وكان المغيث خيم بغزة وجمع الجموع ومعه البحرية وخرجت عساكر مصر مع ممالك المعز ابيك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهمزماً الى الكرك في أسوأ حال .

وبينا كان آخر ملوك الشام ومصر من بني أيوب يتنازعون
مع الممالك البحرية وقد خرجت مصر عن حكم الايوبيين
هولاكو التتري } وكانت دخلت في حكمهم اولاً فأسسوا هناك بنيانها ولما انهار البناء كانت البرنية
الاولى اول ما هدمت وبقيت بعدها الاطراف وهي الشام وما اليها مدة قليلة ، جاء

هولاكو التتري (٦٥٦) واستولى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وقرض الخلافة العباسية ، فدهشت البلاد ثم أخذ التتري يتقدمون الى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد وصحبه زين الدين محمد المعروف بالحافظي من أهل قرية عقربا في الغوطة بتحف ونيادام (هدايا) الى هولاكو ملك التتري ، وصانعه لعله بعجزه عن ملئقى التتري . وكان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصربين وبين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الامير مجير الدين بن ابي زكري مصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين ، وقوي امر البحرية بعد هذه الكسرة واكثروا الغيث والفساد ، وسار الناصر يوسف بعد ان عرف مات على عسكره ومعه صاحب حماة بعسكره الى جهة الكرك ، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ، فقبض المغيث على من عنده من البحرية وعلم ذلك في الحال ركن الدين بپرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية ووصل بهم الى الملك الناصر يوسف فاحسن اليهم ، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وارسلهم الى الناصر فبعث بهم الى حلب فاعقلوا بها واستقر الصلح بين الناصر وبين المغيث صاحب الكرك .

وقدم هولاكو (٦٥٧) الى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران ومكها واستولى على البلاد الجزيرة وارسل ولده شموط بن هولاكو الى الشام فوصل الى ظاهر حلب وكان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائباً عن ابن اخيه الناصر يوسف ، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج المعظم ولم يكن من رأيه الخروج اليهم ، واكن لهم التتري في باب الله فمقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتري قدامهم حتى خرجوا عن البلد . ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتري يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد ، واخضعوا في ابواب البلد جماعة من المنهزمين ، ثم رحل التتري الى عزاز فقتلهموها بالامان ولما بلغ الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتري حلب برز من دمشق (٦٥٨) الى برزة وجفل الناس بين ايدي التتري وسار من حماة الى دمشق المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزة وكان هناك مع الناصر يوسف بپرس البندقداري فاجتمع عند الملك الناصر ببرزة أم عظيمة من العساكر والجنال ، وبلغ الناصر ان جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك

به فهرب من الدهليز الى قلعة دمشق ، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية (بامان) الى جهة غزة ، وكذلك سار بهرس البندقداري الى جهة غزة ، واشاع الممالك الناصرية انهم لم يقصدوا قتل الناصر وانما كانت قصدهم ان يقبضوا عليه ويسلطنوا اخاه الملك الظاهر غازي بن الملك العزيز لشهامته ، ولما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفاً من اخيه الناصر فوصل الى غزة واجتمع عليه من بها من العساكر واقاموه سلطاناً ، وكاتب بهرس البندقداري المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الامان ووعدته الوعود ففارق بهرس الشاميين وسار الى مصر في جماعة من اصحابه .

واستولى التتر على حلب وسببه ان هولاء كو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وارسل هولاء الى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة بحلب يقول له : انكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الناصر والعساكر ، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ، وتوجه نحن الى العسكر فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، ان شئتم طردتموها وان شئتم تلتئموها ، فلم يجب الملك المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا الا السيف . فتعجب هولاء كو من هذا الجواب وتألم ، لما علم من هلاك اهل حلب بسبب ذلك .

واحاط التتر بحلب وقتلوا مقللة عظيمة حتى لم يسلم من اهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين اخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بايديهم . وقيل انه سلم بهذه الاماكن ما يزيد على خمسين الف نفس . ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ اليها من العسكر واستمر الحصار عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالامان ، وامر هولاء كو ان يضي كل من سلم الى داره وان لا يعارض وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني .

قال ابن العديم : واحترز نواب حلب وجمعوا اهل الاطراف والخواضر واجتمعوا كلهم داخل البلد ، وكانت حلب في غاية الحصانة والقوة لاسوارها المحكمة البناء وقلعتها العظيمة ، ولم يكن في ظن احد انها تؤخذ بسرعة قال : وخرج العوام والسوقة واجتمعوا

كلهم يجبل بانقوسا ووصل جمع التتار الى اسفل الجبل ، وكنوا على القرية المعروفة
 بيا بلا ثم كر التتار منهزمين ثم رجعوا وقتلوا من المسلمين جمعا كثيرا من الجند والعوام .
 وقتل هولاء في حلب اكثر ممن قتل في بغداد . وقال ابن تغري بردي : ان
 هولاء حاصروا حلب ستة ايام ثم اوقع بها خمسة ايام حتى لم يبق بها احد ووصل الى
 هولاء على حلب الملك الاشرف صاحب حمص موسى بن ابراهيم بن شيركوه
 فاكرمه هولاء واعدوا عليه حمص ، ثم رحل هولاء الى حارم وطلب تسليمها
 فامنعوا ان يسلموها لغير نحر الدين والي قلعة حلب فاحضره هولاء وسلموها اليه
 فغضب هولاء من ذلك وامر بهم فقتل اهل حارم عن آخرهم وسبي النساء ، ثم رحل
 هولاء الى الشرق وجعل مكان عماد الدين القزويني بجلب رجلا اعجميا وامر هولاء
 بخراب اسوار قلعة حلب واسوار المدينة فخربت عن آخرها وامر الاشرف موسى صاحب
 حمص باخراب سور قلعة حماة فخربت واحرقت زردخاتها ، ولم تخرب اسوار المدينة
 لانه كان بحماة رجل يقال له ابراهيم بن الفرنجية بذل لخسر وشاه نائب هولاء في
 حلب جملة كثيرة من المال وقال : الفرنج قريب منا في حصن الاكراد ومتى خربت
 اسوار المدينة لا بقدر اهلها على المقام فيها ، فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب الاسوار
 وكانت قد امر هولاء الاشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص ايضا فلم
 يخرّب منها الا شيئا قليلا لانها بلدة ، واما دمشق فان نائب هولاء قدم الى اهلها
 بالفرمان والامان فتلقياه كبراء المدينة وانفذت مناتج دمشق الى هولاء . قال سبط
 ابن الجوزي : وكثرت الاراجيف بدمشق بسبب التتار فهرب كثير من الدمشقيين
 وبعوا اصلهم وخرجوا على وجوههم مفرقين في البراري والجبال والحصون ، وصادف
 ذلك ايام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم ونهب آخرون . وقال القلقشندي في
 كلامه على البيت الهولاء كوهي : ولو تمكنوا من دمشق لحوا آثارها وانسوا اخبارها
 وان ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرص لينقوى به .

ولم يتعرض عسكر هولاء الى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليه فحاصرها
 التتار وجرى على اهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة ثم تسلموا القلعة بالامان
 ونهبوا جميع ما فيها وجدوا في خراب اسوار القلعة واعدام ما بها من الزردخات

والآلات ثم توجهوا الى بعلبك ونازلوا قلعتها واخذوا نابلس بالسيف وتسلموا قلعة عجلون واستولوا على قلاع الصلت وعجلون وصرخد وبصرى والصبيبة وهدم الجميع ووقعوا على العرب عند زيزاء وحسبان فيزموهم ، وغنموا اولادهم ونساءهم وانعامهم واستاقوا الجميع ، وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد الى البراري فساوقواخلته واخذوه ثم قتلوه عندهم . واستولى النثار من بلاد الفرنج على صيدا ونهبوها واسروا منها ثلاثمائة اسير . وعاث النثار في بلاد حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل والخليل والصلت وما اليها وجاؤا بالاسرى الى دمشق فمنهم من اقتدى نفسه ومنهم من هرب .

وظل النثار يتنقلون في الشام حتى فتحوه الى غزة واستقرت شجائنهم فيه لان الناصر صاحب دمشق لما بلغه اخذ حلب رحل من دمشق في عسكره الى الديار المصرية وفي صحبته المنصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تخلي ملكهم عنهم توجهوا الى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها الى هولاكو وطلبوا منه الامان لاهل حماة وشحنة تكون عندهم فأمنهم هولاكو وأرسل الي حماة شحنة رجلاً أعجمياً اسمه خسرو شاه فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى النثار (٦٥٨) على ميفارقين بعد ان حاصروها سنين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بلوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر بن العادل ابي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطاقوا به في البلاد فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغاني والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفراديس الى ان عادت دمشق الى المسلمين .

قال الذهبي : ان نصارى دمشق شمخت اثناء مجي هولاكو الى البلاد ورفعوا الصليب في البلد وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت ، ونقضوا العهد وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فلما انتصر المسلمون على هولاكو على عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبوا جاء الخبر الى دمشق في الليل فوقع النهب والقتل في النصارى وأخرقت كنيساتهم العظمي . وقال ابو الفداء : ان النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع . قال في المذيل : ان النصاري بدمشق قد شمخوا بسبب دولة النثار وتردد ايل شبان وغيره من كبارهم

الى کنائسهم وذهب بعضهم الى هولاکو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناءً منهم
وتوجه في حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرثعة وهم ينادون حولها
بارثقاء دينهم دون دين الاسلام ویرشون الخمر على الناس بابواب المساجد ، فركب
المسلمين من ذلك همٌ عظیم فلما هرب النار من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى
ينهبونها ويخربون ما استطاعوا فيها وخرّبوا كنيسة اليعاقبة وأخربوا كنيسة مريم
حتى بقيت کوماً والحیطان حولها تعمل النار في أخشابها وقتل منهم جماعة واختلف
الباقون وجرى عليهم أمر عظیم اشفى به بعض الاشفاء صدور المسلمين ثم هموا
بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لانهم لم يصدر منهم ما صدر من
النصارى اه .

اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر هرباً من النار فلما انتظمت أحوالهم واستجمعوا
قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز ابيک على الخروج الى الشام لقتال النار ، وسار
ومعه صاحب حماة المنصور وأخوه الافضل علي حتى التقى مع النار في الغور وكان
كتبغا نائب هولاکو على الشام ومعه صاحب الصببة الملك السعيد فانهمز النار
هزيمة قبيحة على عين الجالوت وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه ونفروا في البلاد ،
ومنهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون ، وجرد قطز ركن الدين بپرس في أثرهم
فتبعهم الى أطراف البلاد الشرقية ، وكانت في صحبة النار الملك الاشرف موسى
صاحب حمص ففارقهم وطلب الامان من المظفر قطز فأمنه ، وأقره على ما يده وهو
حمص ومضافاتها ، وأسر صاحب الصببة وضربت عنقه ، وأقر المنصور على حماة
وبارين والمعرة وأخذ منه سلية وأعطاهام أمير العرب ، ودخل دمشق فتضاعف شكر
المسلمين على هذا النصر العظيم فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على النار
لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولانهم ما قصدوا إقليماً الا فتحوه ، وتوافقوا مع
عسكر الا هزموه . قال ابن ابي شامة : ومن العجائب ان النار كسروا وأهلكوا
بابناء جنسهم من التتر وقيل في ذلك :

طلب النار على البلاد فجاءهم
من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم
ولكل شيء آفة من جنسه

ورتب شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة وجيز عسكراً إلى حلب لحفظها ، وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي ونيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل ، ولما استقر هذا في نيابه حلب سار سيرة ردئية وكان دأبه التحيل على اخذ مال الرعية .

• قتل المظفر قطز وسلطنة } سار الملك المظفر قطز إلى مصر بعد ان ظفر
الظاهر بيبرس وأحداث } بالنار ورد فلأهم إلى الشرق وكان اتفق بيبرس
البندقداري وبعض أعيان الدولة على قتله ، فساروا معه وقتلوه في القصر بطرف
الرميل على مرحلة من الصالحية في طريق مصر ، وتسلمن بيبرس البندقداري وتلقب
بالمملك الظاهر ، ودخل مصر ففتحت له واستقرت قدمه في المملكة . ولما بلغ نائب
السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتل قطز وسلطنة الظاهر جمع الناس وحلفهم لنفسه
بالسلطنة ، فأجابوه إلى ما أرادهم عليه ، ولم يتأخر عنه احد ولقب نفسه الملك المجاهد
وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب المنصور صاحب حماة في ذلك فلم
يجبه وقال صاحب حماة : انا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان . اما السعيد
نائب السلطنة بحلب فحملته امراء حلب إلى الشفر وبكاس معقلاً لما اندفع العسكر
الحلبي من بين ايدي النار على البيرة وقدموا عليهم الامير حسام الدين الجوكندار العزيزي
ثم سار النار إلى حلب وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرنبا شرق حلب فأفندوا غالبهم
بالسيف واستولوا على اعزاز وخرّبوا قلعتها واستولوا على حارم وقتلوا أهلها عن آخرهم
وسبوا النساء وملكوا حلب وأعمالها نحو أربعة أشهر . وقارب النار حماة فخرج منها
صاحبها وباقي العسكر واجتمعوا بجمص مع سائر الاجناد فوقع بين النار وعساكر
المسلمين مصاف في حمص وكان النار اكثر من المسلمين فانهمز النار وهاموا على
وجوههم إلى افامية ومنها إلى الشرق ومنهم من دخل في خدمة المسلمين . وجيز الملك
الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكراً إلى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولي على
دمشق فخرج هذا لقتالهم فانهمز إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى
الديار المصرية فاعقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت

له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها ثم استقر ابدكبن البندقداري الصالح في دمشق لتدبير امورها .

وفي هذه السنة دخل الحلبي الى قلعة دمشق وتسلطن وحاصره المصريون وبرز اليهم وحاربهم فلما كانت الليل ركب وقصد قلعة بعلبك فعصى بها ثم أخذ وحبسها الظاهر زمنًا . وفي سنة ٦٦٠ وصل من مصر الى دمشق عسكر مقدمه الامير عز الدين الدمياطي وقبض على علاء الدين طبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق وقبض حواصله ، وكان طبرس قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدهم والترسيم عليهم واخراج عيالهم وإهانتهم ، وضيق على الناس وخوفهم من النار .

ولما بلغ هولاء في بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر بن أيوب وإخاه الملك الظاهر غازي وكانا في أسره وقال للناصر : أنت قلت ان عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر : لو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟ فضرب هولاء عنقه . فقال الناصر : يا خوند^(١) ، الصنيعة . فنهأ اخوه الظاهر وقال : قد حضرت ثم رماه فقتله . ثم أمر بضرب رقاب الباقيين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا الملك العزيز بن الناصر لانه كان صغيراً .

والملك الناصر هو صاحب حلب تملك حرّان والزّها والرقّة ورأس عين وحمص ودمشق وبعلبك والاغوار والسواحل الى غزّة ، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبره شمس الدين لولو الارمني ومخامرة مماليك ابيه العزيزية . وكان الناصر حليماً وتجاوز به الحلم الى حد أضرّ بالملكة ، فكان اذا حضر اليه القاتل عفى عنه وقال : الحى أفضل من الميت . فانتشرت اللصوصية في البلاد وأصبح المسافرين في ايامه من دمشق الى حماة وغيرها لا يقدر على السفر الا برفقة من العسكر ، وكثير طمع العرب والتركمان في ايامه .

(١) الخوند السيد معرب خنداوند .

ويقتل الناصر والظاهر قل الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب ، وضعت
عصيتهم وأنصارهم من الأكراد وغيرهم ، وكان انقراضهم بيد المماليك البحرية الذين
غذوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم ببض ايادهم وبيد السفاك هولاء وجماعة من النصار .
وكان شأن بني أيوب في هذا المعنى شأن بني العباس مع الاتراك ، ادخلوهم في خدمتهم
واحسنوا اليهم ورفعوا منزلتهم وولواهم الاعمال ، فما كان منهم الا ان نقضوا ببيان تلك
الدولة وفتحوا السبيل لعدوها يستبجح حماها ويستصفي ارضها .

ولم يشبع المغول بما سفكوا من الدماء ، وعادوا سنة ٦٥٩ الى حلب فانهمزم جميع
اهل القرى والمدن الى حلب فنقدم قائدهم ان يخرج اهل القرى والمدن الى ظاهر
البلد ويبقى اهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدونهم ويسيرون كل قوم الى
مكانهم وموطنهم ، ويسلمهم المغول كأنهم يسرون الى ضياعهم وعندما يبعدون
يقولون لهم : انتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمت من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم
ولم يفلت منهم غير اهل حلب لانهم لم ينتقلوا عنها .

حروب الظاهر } وكانت الملك الظاهر بين عاملين في خلال هذه المدة .
وفتوحه } عامل دفع المغول وعامل دفع الصليبيين ، والغالب انه ترجح
عنده معاناة الثاني فأفلح فيه . وقد جيز سنة ٦٥٩ من مصر بدر الدين الأيدمرى
فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة الى حلب (٦٦٠) وكانت
مقدمهم شمس الدين سنقر الرومى فأمنت بلاد حلب وعادت الى الصلاح بعد افساد
المغول فيها ، ثم اوعز الى صاحب حماة وصاحب حمص وسنقر الرومى ان يسيروا الى
انطاكية وبلادها للاغارة عليها ، فساروا اليها ونهبوها ولم يتيسر لهم فتحها . وقبض
الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طبرس الوزيري وكان رديئ السيرة في اهل
دمشق حتى تزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه وقتل الظاهر صاحب الكرك المغيث
بتهمة انه كتب الى النصار بطعمهم في ملك مصر والشام ، وقيل لانه اكره امرأة
الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم الى الناصر يوسف صاحب دمشق

وهرب الظاهر وبقيت امرأته في الكرك ، فانتقم الظاهر منه بان اسلمه الى زوجته في قلعة الجبل بمصر وامرت جواربها فقتلته بالقباقيب .

وفي سنة ٦٦١ ارسل الظاهر وهو نازل على الطور عسكراً هدموا كنيسة الناصرة واغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ، ثم ركب الظاهر بنفسه واغار ثانياً على عكا وبلادها وهدم برجاً كان خارج البلد . واغار صاحب سيس الارمني على العمق والمعة وسرمين والفوعة . ومات في هذه السنة الملك الاشرف صاحب حمص وكان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم واوهم شيركوه بن شاذي . وكانت بقيت في ايدي الاسماعيلية الى آخر سنة ٦٦٢ ثمان قلاع بالشام وهي الكهف والعليقة والقدموس والحواري والمذبة ومصياف والرصافة والقلعة . وروى ابن مسير ان النصارى لما ملكوا الشام سلموا اليهم اربع قلاع ، فلما كسروهم قطز عادت الاربعة قلاع اليهم فتسلمها رئيسهم وقتل اصحابه الذين سلموها للنصارى قال : وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح والى سنة بضع وعشرين وستائة عظيماً . وقد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقبة والامير ادوارد من امراء انكليترا .

وفي سنة ٦٦٣ سار الملك الظاهر من مصر ونازل قيسارية وضايقة وفتحها من الفرنج وامر بها فهدمت ثم سار الى ارسوف ونازلها وفتحها وفتح القليعات (٦٦٤) وحلبا ومرة على صفد وضايقة وفتحها ثم قتل اهلها عن آخرهم . وجهاز عسكراً ضخماً من دمشق وقدم عليهم المنصور صاحب حماة وامرهم بالمسير الى بلاد الارمن فانهمز الارمن واسرا بنان لصاحبهم وامتلات ايدي العسكر الاسلامي من الغنائم . وعندما توجه الملك الظاهر من دمشق للتي عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس اصدر امره لما نزل على قارا بين دمشق وحمص بنهب اهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة ، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية من الفرنج ، واخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء . وشن الظاهر الغارة على بلاد الفرنج (٦٦٥) من اطرافهم واستدعى بالمناجيتي من دمشق وفي سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر الى الشام ففتح يافا من الفرنج وهدمها وقلعتها وملك

الباشورة بالسيف وعوض اهل القلعة اربعين الف درهم ، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف
تيرون فنزل تحتها في وادي العواميد وحاصرها فلم يقدر على اخذها ، ثم صعد الى اعلاها
وكشف ماءها وبعد هزيع من الليل ذبح في قنائها عدة من الغنم والبقر وقطع كروشها
ورماها فيها ، فلما اصبحوا وجدوا ماءهم منتناً وهودم عبيط فلموها بعد حصار عشرة
ايام ، ووجد بها اربعمائة وثمانين رجلاً فارسلهم الى الفرنج في صور ورتب عليها قوماً
من جماعته وبني برجاً على باب القلعة .

ثم اغار الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغور انهارها وضرب اربعاً وعشرين
من قراها ، فانهاالت عليه المردة من الجبال فذهب الى حصن الاكراد ، ومن هناك
زحف على انطاكية فنازلها بغتة ، وبعد حصار اربعة ايام ملكها بالسيف فقتل اهلها
واحرق كنائسها وغنم منها اموالاً كثيرة ، وأحصي من قتل بانطاكية هذه المرة
فكانوا نيفاً واربعين الفا ثم اطلق من كان بها من الاسرى ، وفي رواية انه قتل من
حماتها بين ١٦ و ١٧ الف صليبي واخذ مئة الف اسير واحرقها وقلعتها ونال من
غنائهما ما لا يدخل تحت حصر ، وخرج جماعة من اهلها يطالبون الامان وشرطوا
شروطاً لم يجب الظاهر اليها وزحف عليها فملكها . وكانت انطاكية للبرنس يميند بن
يميند وله معها طرابلس ، ولما فتحت انطاكية هرب اهل بغراس منها وتركوا الحصن
خالياً فارسل الظاهر واستولى عليه .

ووقع الصلح بين الظاهر وهيتوم صاحب سيس الارمني على انه اذا حضر صاحب
سيس سنقر الاشقر من التتار ، وكانوا اخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاء ، وسلم
مع ذلك بهسنى ودر بساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد يطلق له ابنه ليفون الذي
كان في اسر الملك الظاهر فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى ودخل صاحب
سيس على ابغا ملك التتار وطلب منه سنقر الاشقر فاعطاه اياه ، وتسلم الظاهر بلاطنس
من عز الدين عثمان صاحب صهيون واغار (٦٦٨) على عكا وتسلم حصن مصياف
من الاسماعيلية وفتح من حصونهم الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة وأمر عليهم
نجم الدين حسن بن المشغرافي وفرض عليه ان يرفع اليه في كل عام مئة الف درهم .
ونازل السلطان (٦٦٩) حصن الاكراد فملكه بالامان وملك حصن عكار بعد حصاره

له بالامان ، فتدلل له صاحب طرابلس وبذل له ما اراد وهادنه عشر سنين وتسلم
حصن القرين بالامان وهدمه . واغارت التتار على عينتاب وعلى الرّوج وقسطون الى
قرب اقامية ثم عادوا . فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر وتوجه بهم الى حلب ونازل
التتار على البيرة واراد عبور الفرات الى بر البيرة ونصبوا عليها المناجيق وضايقوها
فقاتله التتار على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتار فرحلوا عن البيرة . وشن الغارة
(٦٦٩) بفرقة من العسكر ومعه ولده الملك السعيد بفرقة اخرى على جبلة واللاذقية
والمرقب وعسرة والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وانطرطوس . وفي سنة ٦٧٣ توجه
السلطان الى بلاد الارمن ودخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا الى دمشق .
وعاد التتار (٦٧٤) ونازلوا البيرة فتوجه الظاهر اليهم وبلغه رحيالهم وهو بالقطيقة فاتم
السير الى حلب وعاد التتار (٦٧٥) فزحفوا على بلاد الشام وخرج اليهم الظاهر وقتلهم
فكسرهم وقتل منهم خلأئق وتبعهم الى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل
انه قتل فيها من الفريقين نحو مئة الف انسان . ثم سار الى قيسارية واستولى عليها
ووصل الى عمق حارم فدمشق .

توفي الملك الظاهر (٦٧٦) بعد ان بطش البطشة	} وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون
الكبرى بالصليبيين في الشام ودفع عادية المغول عنه ما امكن ، وغزا الارمن الذين اصبحوا	

يبدون لدولته نواجد الشر فحرب بلادهم واباد خضراءهم وغضراءهم . وكان ملكاً جليلاً
شجاعاً عاقلاً مهيباً وصل الى الملك بقتل آخر ملوك بني ايوب ومازال يتدرج في مراتب
القوة حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوح الجلييلة . اصله مملوك قبيح في
الجنس وقيل برجعلي وكان ذا همة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره
الا وهو بينهم ، ولولا انه ابلى البلاء الحسن في اعداء البلاد لما كفر عما اتاه من قتل ابن
ايوب ، وبنو ايوب احببتهم البلاد على علائهم لغناء اكثرهم في خدمة الملة والدولة .
ترجم سو برنهايم في المعلة الاسلامية للظاهر بيبرس بقوله : انه كان السبب
بتوسيد ملك الشام الى قطز لما ابلى البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطز

الامراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول ولكن بيهرس الذي كان يرجو ان توسد اليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم فقتل السلطان في الصيد ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً وكانت المملكة المصرية والشامية محاطة من كل جانب بالاعداء في الشمال ملك أرمينية المسيحي وكان في الغرب الصليبيون منتشرين على جميع شاطئ الشام وفي الداخل الحشيشية الاشداء ومن الشرق المغول الطامعون في الغنائم والانتقام ، وفي جنوبي مصر أهل النوبة المجاربون ، وفي الغرب البربر الصعب قيادهم ، وكان يخشى ان ينجم له ناجم في الداخل من بني أيوب ويسمو الى السلطنة ، فيجد على دعوته انصاراً على أيسر وجه ، فرأى ان يبائع لاحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد ان قرضاها المغول من بغداد ، فتوفق الى ذلك وباع له في مصر ، لان من مصلحته ان يظهر أمام العالم الاسلامي بانه حامي الخلافة وبذلك اصبح له نفوذ على حكومات مكة والمدينة ، وعرف كيف يداري معظم امراء الفرنج الشرقيين فعقد محادثات مع الملك مانفريد دي هوهانستوفن ، ثم عقد محالفة مع شارل دأنجو و جاك داراغوت والفونس دي كاستيل ، وعقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومي الذي طرد الصليبيين ، وكانت له صلات حسنة مع ملوك السلاجقة في آسيا الصغرى ومع صاحب اليمن . ثم ذكر ان الظاهر رأى في الصليبيين أشد الاعداء خطراً على المملكة واستفاد من تفرق كتبتهم وكان المدد الذي يأتيهم من اوربا قد ضعف ، وكان في موت شارل التاسع انقاذ بيهرس من أعظم خصومه من الفرنج ، وهكذا فان الظاهر ظل ظافراً بجميع اعدائه ، ولم يتوقف عن شيء ابلوغ غايته ، وكثيراً ما كان يعد وعوداً كاذبة ويكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له ، وكان نجاحه مناط قريحتة في التنظيم وسرعته وشجاعته المناهية ، وكانت مملكته كلها يسافر فيها البريد بسرعة حتى يصل الخبر من مصر الى الشام في ثلاثة ايام وكان اسعد سلطاناً من سلاطين المماليك وأقدرهم . وروى شمس الدين سامي ان السلطنة الاسلامية صارت ذات بهاء في ايامه وانه مات مسموماً بدمشق .

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيهرس ولقبه الملك السعيد وجعله

ولي عمره ، الا انه خبط واراد تقديم الاصغر على الامراء الاكابر ، ففسدت نيات الكبار عليه وقرروا خلعه من السلطنة ، بعد ان دخل بلاد سويس (٦٧٧) وشن الغارة عليها وغنم . فحصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على ان يعطى الكرك فاجابوه الى ذلك فلتحق بها وهلك بعد قليل .

وانفق الامراء لما خلع الملك السعيد نفسه على افامة بدرالدين سلامش ابن الملك الظاهر بپرس في المملكة ، ولقبوه الملك العادل ، وعمره اذ ذاك سبع سنين وشهور ، ثم خلعوه وأجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحی . ولما اضطرب امر المملكة استأثر بالشام سنقر الاشقر الذي كان الظاهر اشترط على صاحب سويس ان يتوسط لدى ملك التتار لاطلاقه من الاسر ففعل ، ونسي سنقر هذه اليد للظاهر ، وجلس على سرير السلطنة بدمشق وحلف له الامراء والعسكر وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر فجوز الملك المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر ، فبرز سنقر الاشقر بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والنقى الفریقان فولى الشاميون وسنقر الاشقر منهزمين ، فجعل الامير لاجين المنصور في نائب السلطنة بالشام ، وهرب سنقر الاشقر الى الرحبة وكان ابغا بن هولاء ملك التتار وأطمعه في البلاد ، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب في الشام مع سنقر الاشقر وقاتل معه وكتب بذلك الى ابغا ايضا موافقة له ، ثم سار سنقر الاشقر من الرحبة الى صهيون واستولى عليها وعلى برزیه وبلاطُوس والشُغر وبكاس وعسكار وشيزر وافامية وصارت هذه القلاع له .

واحرق (٦٧٧) عسكر الشام بلاد الغرب وجبيل بيروت وذلك ان قطب الدين السعد بعد ان استقطع قرية كفر عمية من امراء الغرب آل ثنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولا فاتهم بقتله نجم الدين بن جمحي وكان ابوه وذو قرابته معتقلين في مصر فتوجهت اليه العساكر والعشيران من ولاية بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت واحترقت بلادهم ، ونفرك الثنوخيون أيدي سبا الى ان أمنهم الملك فرجعوا الى بلادهم .

وجاء التتار الى حلب (٦٧٩) فعاثوا وقتلوا من كان بظاهرها وملكوا ضياعها ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس المعتبرة ودور السلطنة والامراء وأقاموا بها

يومين وعادوا من حيث اتوا ، فهب الملك المنصور قلاوون الى غزاة لدفعهم فرحلوا قبل ان يوافيهم ، قال ابن ابي الحديد : وكانت للتتار نهضات وسرايا كثيرة الى بلاد الشام ، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها حتى انتهت خيولهم الى حلب ، فأوقعوا بها وصانعهم عنها اهلها وسلطانها ، ثم عمدوا الى بلاد كي خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قضه وقضيضه وجيشه ولفيفه ، واستكثر من الاكراد العتمرية من عساكر الشام وجند حاب فيقال انه اجتمع مائة الف فارس وراجل فلقية التتار في عشرين الفا ، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمة ، وكانت المقدمة كلها او اكثرها من رجال حلب وهم انجاد ابطال فقتلوا عن آخرهم وانكسر العسكر الرومي ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى الى قلعة له على البحر تعرف بانطاكية فاعتصم بها ، وتمزقت جموعه وقتل منهم عدد لا يحصى .

واستأذن نائب السلطنة بحصن الاكراد في الاغارة على المرقب لما اعتمد اهلهم من الفساد عند وصول التتار الى حلب فأذن له السلطان في ذلك ، فجمع عساكر الحصون فانفق هروب المسلمين ونزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة . وترددت الرسل بين السلطان وسنقر الاشقر ، واحتاج السلطان لمصالحته لقوة التتار ونفادياً من الاشتغال بالعدو الداخلي والعدو الخارجي ، ووقع بينهما الصلح على ان يسلم سنقر قلعة شيزر الى السلطان ويتسلم سنقر الشجر وبكاس ، وكانا قد ارتجعتا منه وحلفا على ذلك واستقر الصلح بينهما ، كما استقر الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر بن الملك الظاهر بيبرس صاحب الكرك .

وبعد ان استقر الصلح بين الاميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف (٦٨٠) العظيم بين المسلمين وبين التتار بظاهر حمص فجمع قلاوون العساكر من مصر والشام ومن جملةهم عسكر سنقر الاشقر وجاء الامراء كلهم في جيوشهم وكان التتار في ثمانين الف فارس وفي رواية مائة الف منهم خمسون الفا من المغول والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والارمن والعجم وغيرهم والمسلمون في خمسين الفا فانهم زعم التتار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون . وعقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتركليام دهباجون مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الاخوة الداوية

بانطراطوس لمدة عشر سنين على ان لا ينال بلاده ولا بلاد ولده الملك الصالح ولا حصونها ولا قلاعها ولا بلادهما ولا ضياعها ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركانهما ولا اكرادهما ولا رعاباهما على اختلاف الاجناس ضرراً ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا اذية .

وسارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشرى (٦٨١) فصعدوا في وادي حيرونا وحاصروا اهدث حصاراً شديداً وبعد اربعين يوماً ملكوها فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل وفتحوا بقوفا وقضوا على اكبرها وهدموها وضربوا حصرون وكفر حارون وخربوا حدث البشرى وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيه عسكراً ليكون للعصاة وهدموا جميع الاماكن العاصية وملكوا قلعة حوفا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لانها داخلة الشير . وتوجهت العساكر ايضاً الى بلاد الارمن فخربت فيها وسبت عقوبة لم عمالته من معاونة المغول على المسلمين .

وقصد المغول دمشق في سنة ٦٨٣ ثم ذهبوا الى وادي التيم فأحرقوها وسبوا اهلها وقتلوا منهم نحو سبعمائة نفس وملكوها وفتح السلطان حصن المرقب (٦٨٤) بعد ان نقب جنده حصنها بسرعة وكان هذا الحصن الاستار فنزل اهلها بالامان وفتح حصن الكرك (٦٨٥) بالامان وجيز عسكراً كثيفاً من العساكر المصرية والشامية الى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الاشقر بالامان . ثم سار جيش السلطان الى اللاذقية ، وكان بها رج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته ، فركب طريقاً اليها في البحر بالحجارة وحاصروا البرج وتسلوه بالامان وهدموه وفتح طرابلس (٦٨٨) ، وكان البحر يحيط بغالب اطراف هذه المدينة ولا تقابل الا من جهة الشرق ، ولما نازله نصب عدة منجنيقات كبيرة وصغيرة والح عليها بالحصار ففتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوة بعد حصار ٣٣ يوماً ، فهرب اهلها الى المينا وركبوا في المراكب وقتل غالب رجالها وسببت ذرارهم ، وغنم منهم المسلمون غنمة عظيمة وامر السلطان فهدمت طرابلس ودكت الى الارض . وكانت في البحر قرية من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطاس وبينها وبين طرابلس المينا ، فلما أخذت طرابلس

هرب الى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فاقتم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة ، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار — نقلت معظم هذا من تاريخ ابي الفداء ويقول ميثو : ان المسلمين لما استعادوا طرابلس اهلكوا ساكنيها من الصليبيين الا قليلاً وامر السلطان باحراق المدينة وهدمها وكان فيها مصادر الثروة والرخاء وكل ما يزهو به السلام ويستخدم في الدفاع زمن الحرب فحرب كل ذلك تحت الفأس والمطربة وقال : لما نزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة ١٣٦٦ م واستولوا على طرابلس اوقدوا النار فيها وكان حظ طرطوس واللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك .

وقال مؤرخو لبنان : ان الكسروانيين والجردبين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج في طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز الامر من حسام الدين لاجين نائب دمشق الى قراسنقر ان يجمع العساكر الشامية ويزحف بها لاستئصالهم . ومن ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من اهلها تشتتوا في كل صقع . قالوا ومن جملة اوامر حسام الدين الى امراء غرب بيروت الذنوخيين اذا توجهوا الى كسروان وجرده بجمعوعها ، ان كل من سبي امرأة منهم كانت له جارية ، اوصيهاً كان له مملوكا ومن احضر منهم رأس رجل فله دينار . وذكروا ان الخراب استولى على الاقطار الشمالية بسبب نقل احوال ملوك مصر والشام والحروب النائرة مع التتار من جهة ومع الفرنج من أخرى فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك ، وقدم الى جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير ومنهم اهل بلاد وادي التيم وملت بلاد وادي التيم من السكان خمسة اعوام ولم يكن فيها بلد عامراً سوى حاصبيا وكذلك البقاع . ثم عاد الناس وعمرها بعض القرى في جبل حاصبيا فقط .

توفي الملك المنصور قلاوون (٦٨٩) وكان ملكاً	} وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واشتغاله في فرنج الساحل
مهيئاً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو ،	
شجاعاً اقام منار العدل واحسن سياسة الملك	

وقام بتدبير المملكة احسن قيام وفتح الفتوح الجليلة التي لم يجسر احد من الملوك مثل

صلاح الدين وغيره على مثالها وهو الذي وُظِدَ حكم المماليك على الشام واصلح كما في
 المعلمة الاسلامية بالتدريج ما احدث المغول فيه من التخريب وقام باعمال مهمة
 من مثل ترميم قلعة حلب وبعليك ودمشق . وهو الوحيد من ملوك المماليك الذين
 تسلسل الملك في اعقابهم وَاَلْفُوا دولة فان اعقابه حكموا الى سنة (٧٨٣ هـ ١٣٨٢ م)
 خمسة بطون . وقد عقدت معاهدات مع الدول التي يخشى بأسها ويمكن الانتفاع بحسن
 الصلات معها ، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة ومعاهدة دفاعية مع الملكين
 الفونس ملك قشتالة وچاك ملك صقلية . وكانت سفراؤه تغدو وتروح الى امبراطور
 بيزنطية والامبراطور رودولف دي هابسبورغ وملك اليمن وامير سيلان وغيرهم
 من امراء الشرق . ولهذا السلطان آثار جليلة في العمران في القدس ودمشق وغيرها
 من ربوع الشام تدل على بعد نظره وحب المصالح .

وجلس في السلطنة بعد قلاوون ابنه الاشرف صلاح الدين خليل وسار على قدم
 ابيه في جهاد الصليبيين . وكان اول عمل اتجهت اليه همته بعد ان قدم تجار الفرنج
 الى عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين (٦٨٩) ان نهض من مصر لفتح عكا بالعساكر
 المصرية والشامية فهرب جماعة من اهلها من الفرنج في المراكب لماهاجمها المسلمون كما فعلوا
 في طرابلس على عهد والده . واستنزل الاشرف جميع من عصى بالابرجة التي كانت
 داخل البلد . وهي بمنزلة قلاع دشاها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها فاستنزلهم
 السلطان وامر بضرب اعناقهم عن آخرهم حول عكا ، ثم امر بالمدينة فهدمت الى
 الارض ودكها دكاً . وكانت كما قال الذهبي من احسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر
 فلما فتحها الاشرف وهدم سورها هرب اهل المدينة منها وصارت خراباً وصار الناس
 من حينئذ يتولون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومما وجد مكتوباً على باب كنيسة
 من كنائس عكا :

جمع الكنائس ان تكن عبثت بكم ايدي الحوادث او تغير حال
 فلطال ما سجدت على ابوابكم ثم الانوف ججاجع ابطال
 صبراً على هذا المصاب فانه يوم بيوم والحروب سجال
 ولما فتحت عكا رعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان وجزيرتها

وقلعتها الجنوبية والشمالية . واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً واستولى على صور وكان أهلها مثل سائر الساحل . وكذلك عسليث وكانوا أوقدوا فيها النار . وسلمت انطربوس بالامان وطرد السلطان الفرنج من جبيل وهدمها ودك قلعتها . وحربوا من انفة والبثرون وصرفند واسكندرونة بالقرب من عكا وذلك في مدة سبعة واربعين يوماً وكان فتحاً مبدئياً .

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الاخيرة ولكن اسنقلت الشام ونجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة والامة ، ولا يؤخذ على الاشرف استئصاله شأفة اعدائه واهلاكه لهم عن آخرهم ، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين وفتح القدس ان يغادروا البلاد جملة واحدة وظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفاً وادرك كل من تولى زعامة الشام بعده انه يستحيل انقاذ البلاد من الفرنج الا باقتنائهم وآخر الدواء الكي .

الحملة الصليبية السابعة | ولقد دخلت الجيوش الصليبية سنة ٤٩١ وخرج
وانتهاء الحروب الصليبية | منها آخر منهزمين سنة ٦٩٠ اي انهم ظلوا قرنين
يحاربون الشام ومصر . تعاقبت فيها عدة دول اسلامية على البلاد وكلها حاربت
هؤلاء الدخلاء بما وسعها ان تحارب وربما قتل من الفريقين في خلال ذينك القرنين
ما لا يقل عن خمسة ملايين من الانفس ، ولو لم تنقطع الرغبات في الغرب وتبطل
النجداث بل الحملات الكبرى التي اصبح الباباوات والملوك يوجهونها في وجهات أخرى
لقتال المسلمين لطال امدها اكثر مما طال .

فلما ان الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الامير فريدريك الثاني ، وهي الحملة
التي عقدت معاهدة مع ملك مصر والشام تنازل فيها هذا عن القدس وبيت لحم والناصره
عشر سنين ، فلما انتهت المدة عادت القدس الى المسلمين وعندها عمدها سان لوي ملك
فرنسا ان يسترجعه منهم وكان هو السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة والثامنة
جاء في الاولى الى دمياط وانهزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر وأسر
وجميع من معه فاضطر ان يدفع فدية عظيمة عن نفسه وعن جماعته ثم عاد الى بلاده

فزين له اخوه ان يذهب الى تونس ومنها يذهب ليفتح مصر والشام فهلك في تونس بالطاعون (١٢٧٠م) وبذلك انتهت الحروب الصليبية . نشأت في فرنسا وانتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه .

ولقد عد الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية انهم اوقفوا سير المسلمين عن التقدم ، وتعلم ملايين منهم اموراً ما كانوا يحلمون بوجودها ، واخذوا عن الروم والعرب ، ما كان عندهم من اسباب المدنية التي لم يكن للفرنج عهد بها . فان كثيراً من اصناف البقول نقلوها الى اوربا وشاعت هناك ولم تكن تعهد عندهم وقد تعلم صناعة الورق رجالان افرنسيان كنا اسيرين في دمشق وادخلا صناعته الى فرنسا ، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل ، ومنها شاع صنعه في سائر بلاد الغرب ، وتعلموا صنع الاقشة الدمشقية والسيوف وغيرها من الصنائع الجميلة ونقلوها الى بلادهم .

ومع كثرة ما بذله اخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين امثال العادل والكمال وببرس وقلاوون وابنه صلاح الدين خليل ، فان الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر وتصرف وجهة الصليبيين الى قتال العرب في الاندلس . وفي الحق ان تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون في البشر ، فقدت فيها اوربا اكثر مما رجت من الانفس والاموال . وما يدربنا ان نلقد دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال ونقضي على مملكة الروم البيزنطية ثم نلقد في فتوحها الى اوربا لو لم يشتغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين في الشام ومصر . وكانت الشام من جملة ممالك السلجوقيين وربما تبعها مصر ففتحها صلاح الدين او غيره باسمهم بدلاً من ان يفتحها باسم نور الدين ، وما نور الدين الا صنعة السلاجقة ، وما جده وابوه الا عاملان من عمالهم .

شملت اوربا بمسألة انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين قرنين ، وتطوعت شعوبها في هذه السبيل ، ومن الامم من لم ينلها الا قتل رجالها وذهاب اموالها ، وكان الراجح على الاكثر اهل ايطاليا فانهم حاربوا حرباً تجارية ربحوا منها ارباحاً طائلة من سفنهم وتجارتهم وخصوصاً البنادقة والجنوون والبيسيون منهم ، اما الالمان والبريطانيون

والفرنسيين والهولنديين والسويسريين وغيرهم فأنهم خسروا خسارة كبيرة .
ساق الفرنج الى الحروب الصليبية الدين والتجارة فلما قُتِرَت نعمة الدين بهلاك من
كانوا يحسنون هناك الضرب على اوتارها ، ولم ير التجار في هذا الشرق ما يكفي لسد
نهمتهم وأيقنوا ان الامر يطول اذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الاسلامية في
آسيا قُتِرَت همهم بالطبع ، ولكن بلاد الشام خربت بعد هذين القرنين وان كانت
الدول الاتاكية والنورية والصلاحية ودولة بپرس وقلاوون وابنه يعمدون حالاً الى
ترميم ما خربه الاعداء في داخل البلاد لا يقانهم انها بلادهم ولا بد لهم من دفع
اعدائهم عنها وانهم يسترجعونها لا محالة وسيدلون منهم .هما طال مقام من استصفوا
بعض سواحل الشام وبيت المقدس فكان الامر كما اعتقدوا .

ما يُلغِ الاعداء من جاهل ما يُلغِ الجاهل من نفسه
وكما طال احتلال الصليبيين كانت الامة تستمرى طعم الموت لاخراجهم من
البلاد ، وكما رأت من ملك او أمير لغاضياً عنهم او انقضاء عاديتهن بالمعاهدات
والمهادنات كانت تستهين به وتدعو ان لا تدوم أيامه . وعلى ما بذل الصليبيون من
استمالة جيرانهم ما عدّهم هؤلاء قط الا غاصبين أرضهم ، دخلاء على الملك الاسلامي .
ولو لم يؤسس الدولة في الشام ومصر ملك عاقل عادل مثل نور الدين ويتم عمله عاقل
عادل من طرازه اي صلاح الدين لما تمّ الفتح الاخير على يد الاشرف خليل ، ولما تم
اخلافه بعده الخطة المرسومة . ولو كان الملك لا يوسد الا للكفنة من ابناء الملك
او لا كبرهم سنّاً ، ولو لم يكن شجر الخلاف بين آل ايوب لضرب الصليبيون الضربة
الناضية الاخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر او بعشرين سنة على الاكثر ، اذ
كان يتأتى للمسلمين ان يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكس ما جاء
الصليبيين من انجذات العظيمة في البحر . ولكن مات صلاح الدين قبل ان يطبق
خطته ، وشغل اخوه رداً لاداه بالنزاع على الملك ، وعدوا الهدنة الطبيعية التي مضت بين أخذ
عكا واستلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشبع نفس كل طامع منهم بالملك
والسلطان ، والعهد في بلادهم وفي غيرها عهد الابطال والفرسان ، وغفلوا عن اعدائهم
الذين لم يكذب يغفل عنهم نور الدين وخليفته صلاح الدين سنة واحدة الا ربما يجمعان

قواهم ، وقد كنا لهذا الغرض يصانمان جميع ملوك الاطراف ليسيروا معهما على قتال
الاعداء ، اما أخلافهم فكانت سياستهم في الأكثر موجهة الى اختراع الطرق
لقضاء بعضهم على بعض او لاستئثار قوتهم بملك مصر او دمشق او حلب او الكرك
والشوبك او ماردين او خلاط ، فشغلوا بداخيتهم أكثر من اشتغالهم بأمورهم الخارجية
وهي أهم وأعظم ، هذا وأكثر أولئك الملوك كانوا قد تشبعت نفوسهم بالتربية العالية
والعلم والادب العزيز ، وكانوا على معرفة تامة باصول الجهاد وفتح المعقل والحصون ،
ومعرفة بعلى الحروب وقواعد السلم ، واعطاء العهد وعقد الهدنة والصلح ، ورثوها
واقتبسوها من أخلاق البانين لمجدهم نور الدين وصنيعته صلاح الدين .

ومما أجز القضاء عشرات من السنين على بقايا الصليبيين في الساحل ظهور النار في
البلاد بعد قضائهم في منتصف القرن السابع على الخلافة العباسية ، فأصبحت الشام
بين عدوين أتى الأول من الغرب فأقام وظال مقامه وجاءها الثاني من الشرق ،
والشر قد يأتي من الشرق ، فكان يخرب في بلادها ويغنم ويقتل ثم يذهب ثم يعاودها .
ولكن ما حدث من حروب الخوارزمية ثم اخلاف هولاكو النثاري في هذا القطر
بعد منارشات اذا قيس بالحروب والخراب الذي حدث بعد ذلك فأهلك الاخضر
واليابس وغدت البلاد غرض النابل وفريسة الصائل .

وفي التاريخ العام انه كان من نتائج الحروب الصليبية اذا صُرف النظر عن ذلك
فيها من ملاين الخلق احداث امارات كاثوليكية في الشرق انتزعت من المسلمين
والبيزنطيين واحتملوا فرسان فرنساويون وتجار طليان . وقد طرد هؤلاء الاوربيون
لقلتهم بدون ان يتركوا سوى آثار معاقبتهم في الموالي وعلى صخور يونان والشام ، ولكن
هيا الصليبيون لنصارى اوربا ان يكونوا على صلات متصلة مع الشرق مدة قرنين اه
قلنا وهذه النتيجة من ربط الصلات مع الشرق كان يتأتى لاوربا الحصول عليها
بدون اهراق هذه الدماء واتلاف الاموال العظيمة وغرس البغضاء في نفوس من
احتلوا بلادهم .

وفي تاريخ فلسطين ان من أضرار الحروب الصليبية في الشام ايقاد جذوة التعصب
الديني بين المسلمين والمسيحيين ، ورأى هؤلاء ان مسلمي العرب أحسنوا اليهم يوم الفتح

أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين أنكروا أبناء دينهم . ومنها تخريب البلدات وقطع الأشجار حتى زادت الاسعار ستة أضعاف ما كانت عليه ومنها تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ، لان مسيحي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم . وقد أجمع المؤرخون على ان المسلمين تقيّدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الانسانية اكثر من الفرنج الناكثي العهد والفسائي الاسرى والذين أخشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحرقوا الديانة المسيحية اه .

لا جرم ان الصليبيين افتضحوا في هذا الشرق باخلاقهم وقلة معرفتهم ، وعرفوا بعد ان أخفقت الحملة الثامنة واصطلموا من الساحل مبلغ قوة اعدائهم ، وانهم في أرضهم ، وهم يحتاجون الى الرحيل أشراً في البر وربما اشهرآ في البحر . وذكر ميشو ان الفرنسيين والنورماندين وسائر شعوب شمالي اوربا المتوحشة في القرن الثاني عشر للميلاد كانوا في حالة البداوة وهذا ما ساعدهم على اعلان الحروب الصليبية في الشرق ، فلما نشأت المدينة الحديثة في القرن السادس عشر وتسربت اولاً الى الملوك اصبحوا لا يرون الاغتراب عن اوطانهم ولا الشعوب ان تفارق مساقط رؤوسها وعمت الصناعات وحسنت الزراعة وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة وتقاليد كل شعب وقطر والالقاب والامتيازات والحقوق المستحصلة والامل في ثمنيتها كل ذلك قد غير من اخلاق الفرنج وبذل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال وجعلها صلات تربطهم بالوطن . وقد كتب التوفيق للملاحه في القرن التالي ان اكتشفت اميركا واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير في التجارة واخذت الافكار نتجه وجهة جديدة وانشأت المضاربات الصناعية التي كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو اميركا والهند الشرقية ، ففتحت امام الغربيين ممالك كبرى واقطار غنية تسد مطامعهم وتشبع نهمه التائقين الى الجهد والثروة والوقائع . فأنتست حوادث العالم الجديد ما في الشرق من عجائب اه . هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم في القرن الماضي واليك ما قاله اديب كبير من ادبائهم المعاصرين كلود فارير : « في سنة ٧٣٢ للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من اشأم الفجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى فغمرت العالم الغربي

مدة سبعة او ثمانية قرون ان لم نقل اكثر في طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الا على النهضة ، وكاد عهد الاصلاح يعيدها الى كثافتها الاولى ، وهذه الفاجعة هي التي أريد ان أمقت حتى ذكرها ، واعني بها الغلبة المكروهة التي ظفر فيها على مقربة من بواتيه برايرة المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب والبربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضي من الكثرة فانهمزوا راجعين ادراجهم .

« في ذاك اليوم المشؤم تراجعت المدينة ثمانية قرون الى الوراء ، وبكفي المرء ان يطوف في حدائق الاندلس او بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالابصار مما يبدو من عواصم البحر والخيال اشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ليشاهد والالم الغريب آخذ منه ما عساها ان تكون بلادنا الفرنساوية لو انقذها الاسلام الصناعي الفلسفي المسلمي المتسامح — لان الاسلام مجموعة كل هذا — من الاله ويل التي لا اسماء لها ، وكان منها ان انتجت خراب غالبا القديمة التي استعبدتها اولاً لصوص اوسترازايا ثم اقتطع جزءاً منها قرصان النورماندين ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في ارجائها من الدعوة للحروب الصليبية ، ثم انفتحت بالجثث بما دهمها من الحروب الخارجية والاهلية الكثيرة العدد ، حدث ذلك على حين كان العالم الاسلامي من نهر الوادي الكبير الى نهر السند يزهر كل الازهار في ظل السلام تحت اعلام اربع دولات سعيدة الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية » .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم	ويسعد الله اقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من لطف حيلته	لكن جدود بارزاق واقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد	يرمى فيرزقه من ليس بالرامي

دولة المماليك

من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠



فتوح ارمينية وعصيان | اصبحت مصر والشام بعد انقراض الصليبيين من
الموارنة بعوامل صليبية | السواحل ووضع السيف في بقاياهم واعتصام جزء
قليل منهم بالموارنة في لبنان مملكة واحدة لا تخلمها ارض لغير مالكيها ، ولا ينازعها
سلطان من غير المسلمين ، واصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار
بالمالك والذهاب بفضل السبق ، والتفكر فيما يدفع العوادي عن حدود البلاد ، او يوسعها
الى المدى المقدّر لها ، وبعد ان كانت الشام مصدر الاعمال والسياسة نازعتها مصر في
هذا الشأن ، فابتاع القطر المصري الشام وعده كما كان زمن الفاطميين جزءاً متمماً لمصر
لا قطراً مستقلاً بنفسه وسياسته . اي ان القوة اصبحت بعد عهد العادل تستمد في
الشام من مصر لغناها الطبيعي ولانها مقر السلطان ، ومصر بين بلاد تحيط بها الصحاري
من اطرافها لا سبيل كل حين الى غزوها كما تغزى الشام من اطرافها الاربعة ، وليس
في امراء طرابلس وبرقة وتونس والنوبة والسودان والحبشان من يستطيع ان يغزو
مصر ويحلم بفتحها ، ولذلك كانت الشام بعد عهد الأيوبيين اشبه بامارة سلطانها الا كبر
في مصر ويتولاها نائبه او نوابه .

ولم يكتب للشام ان تصبج دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية وكان
اهم عدو مجاور لها صاحب سيس ، فان الارمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد ان قضت
على سلطانهم الدولة الأيوبية وانتزعت منهم خلاط اوائل القرن السابع ، وكانت

خلاط قاعدة ارمينية الوسطى اخذها بنو ايوب لمكانهم فيها من عصبية الاكراد وهي قسم من ارمينية الكبرى وقاعدتها سيس ، وقد ذهب الملك الاشرف سنة ٦٩١ في عساكره المصرية والشامية وقصد قلعة الروم ، وهي قلعة على جانب الفرات يتم بها خليفة الارمن كيتاغيكوس فأخذه ومن معه اسرعه ، ورم ما تجرب من تلك القلعة الحصينة .

نقدم ان فرنج الساحل لما اصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم باهل جبل لبنان ونزلوا عليهم ، وعاد آخرون الى بلادهم في المراكب ، وقد اثار هذا القسم اللاجئ الى لبنان في نفوس بعض اهله فكرة العصيان فعصوا ، فتوجست دولة الاشرف منهم خيفة فارسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة الامير بدر الدين بيدرا ، فسار الى جبل كسروان في العسكر وعدة من الامراء ، فانخل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم ، وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لاهل الجبل الطمع والقوة ، فاطاق محابيس لهم بدمشق من ارباب الجرائم العظيمة ، وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم . قال مغلطي : وكل ذلك من الطمع وسوء التدبير .

وجاء الاشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد بلاد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح ورضا السلطان عليهم ، فرضي على ان يسلموا لنواب السلطان ثلاث قلاع وهي : بهسن ومرعش وتل حمدون . وكانت بهسن قلعة حصينة في فم الدربند وباب حلب ، فلما انتقلت من ايدي المسلمين الى ايدي الارمن وقت مجيئ التتار كانت منها على المسلمين اذى ، فلما فتح السلطان قلعة الروم واخذ خليفة الارمن حصل للارمن خوف عظيم فصانعوا عن انفسهم بهذه القلاع . قال مغلطي : ورسم السلطان في هذه السنة للامير عز الدين الافرم بان يسافر الى الشوبك وان يخرب قلعتها فعاوده في ابقائها فنهزه فسافر واخربها ، وكان هذا غاية الخطا وسوء التدبير فان هذا الملك كان طالعه يقضي الخراب فانه اخرج في قلعة الجبل اكثر بنيانها وكذلك في قلعة دمشق اخرج قاعات كثيرة وبظاهر دمشق من حد الميدان الى تحت القلعة وكان على يده خراب جميع الساحل وتعطلت بلاده من جميع الاصناف التي تجلب من البحر

وبقيت بلاد الشام معطلة . قلنا ولكن هذا السلطان وأبوه دفعا الصليبيين عن البلاد واجتثا اصولهم وفروعهم وادخلا البلاد في عهدهما في دور عز وقوة ووحدة حقيقية . واتسعت مملكة الناصر قلاوون حتى خطب باسمه في افريقية (تونس) ببلاد المغرب قال ابن اياس : وكان من اجل الملوك قدراً واعظمهم نهياً وامراً واكثرهم معروفاً وبراً ، وقد جبلت القلوب على محبته سرّاً وجهراً اه . وقد خلف آثاراً مهمة ومصانع خالدة في مصر وبعض بلاد الشام تدل على ذوق وحسن هندسة وحب للعمارة ، وتسلسل الملك في اولاده واحفاده لان الرعاية كانت تحبه فاحبت آل بيته ، وخفت وطأة المماليك في ايامه ثم عادت تدرّيجاً الى القوة والعرامة .

قتل الملك الاشرف (٦٩٣) صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون اغتيالاً بيد بعض اعيان الدولة بمصر وانفق قاتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالقاهر ثم انفق الحزب القوي منهم فبايعوا للملك الناصر ولد الملك المنصور ثم تغلب (٦٩٤) الاميرز بن الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة واستخلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل الملك الناصر في قلعة الجبل وحجب الناس عنه ، فتزعزعت اعصاب المملكة لهذه الحوادث المشؤمة التي تورث النفوس كآبة واعمال الناس فتورا . ولما عاد الملك العادل كتبغا من دمشق الى مصر بالعساكر (٦٩١) ووصل الى نهر العوجا تفرقت ممالكهم وغيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب الملك العادل كتبغا ومعه فريق من الامراء فيؤرب كتبغا الى دمشق ودخل قلعتها واهتم في جمع العساكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقهم عسكر دمشق ورأى منهم التغاؤل فلجج نسه من السلطنة وارسل الى لاجين يطلب منه الامان وموضعاً يأوي اليه فاعطاه صرخد . واما حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا نزل بدليله على نهر العوجا واجتمع معه الامراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً التزمها منها ان لا ينفرد عنهم برأي ولا يسلط ممالكهم عليهم كما فعل بهم كتبغا ، فاجابهم لاجين الى ذلك وحلف لهم ، فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ، ورحل بالعساكر الى الديار المصرية وارسل الى دمشق سيف الدين قبيق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام .

ومن اهم ما وقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من احفاد هولاكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد ان بذل له اهلها مالا عظيماً . ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر والشام (٦٩٧) لشن الغارات على بلاد سبى فضاقت على الارمن الارض بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم وغنموا حتى اضطر ملكهم ان يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام والاجابة الى ما يرسم به سلطان الاسلام والى الاعتراف بانه نائب السلطان في بلاده ، فطلب منه العسكر ان يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والارمن وان يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون والبلاد ، فاجاب عظيمهم الى ذلك واخذ من البلاد حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع .

وفي سنة ٦٩٧ وفد احد مقدمي المغول الى الملك المنصور لاجين وطلب فجدة ليعود الى الروم طمعاً في اجتماع اهل الروم عليه ، فجرد معهم من حلب عسكراً مقدّمهم سيف الدين بكتمر الجملي وساروا مع المقدم سلا مش المغولي حتى تجاوزوا بلاد سبى فخرجت عليهم النار واقتتلوا معهم فقتل الجملي وجماعة من العسكر الاسلامي وهرب الباقون .

وفي سنة ٦٩٨ وحشت نفوس الدولة مما يأتية منكوتر من امساك الكبار وسقى بعضهم ، وذهب نائب دمشق قبيجق بالعساكر فزلوا بارض حمص وهناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصر بين فتكلموا في مصلحتهم وان منكوتر لا يفتقر عنهم فانفقوا على المسير الى غازان ملك النار اعلمهم باسلامه فساروا الى حمص ونزلا بنحو اصها ، فاخذوا على ناحية سلمية وعديا الفرات فلم يكن بعد عشرة ايام من سيرهم الا وقد جاء البريد بقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وقتل منكوتر نائبه وعلم الامراء المخامرون بقتلها ، فانفق رأي ارباب الدولة في مصر على اعادة الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الى مملكته فجيء به من الكرك وجلس على سرير سلطنته للمرة الثانية . ووصلت هذه السنة الى بيروت مراكب كثيرة وهي ثلاثون بطاسة وفي كل واحدة سبعائة مقاتل من الفرنج للطلوع الى الساحل والاغارة على بلاد المسلمين فاصابتهم عاصفة اغرقت سفنهم الا قليلاً ورجع الباقون خائبين .

وقائع النصار } لم تكن نازلة الصليبيين فتحسم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين والنفار في سنة ٦٩٩ فسار غازان بن أرغون خان بن هولاءكو بن تولي بن جنكيز خان وهو السابع من ملوك الايلخانية في فارس ، بجموع عظيمة من المغول والنفار والكرج والمزندة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعه الى حلب ثم الى حماة ونزل على وادي مجمع المروج وسارت العساكر صحبة الملك الناصر الى جهة المجمع ، وكان سلار والجاشنكير متغلبين على المملكة فداخل الامراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الامور الفاسدة التي اوجبت هزيمة العسكر على رأي ابي الفداء . ثم ساروا والنقوا بالقرب من مجمع المروج في شرقي حمص على نصف مرحلة منها فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به النفار وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان الى جهة حمص ، فولت العساكر الاسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر وانهمز السلطان الى نحو بعلبك بعد ان تلاقى عسكر مصر وعسكر النفار على مرج راهط تحت جبل غباغب ووقعت بينهما وقعة عظيمة . وكان مع العسكر المصري من العسكر الشامي وعربان من جبل نابلس نحو مائتي الف انسان في بعض الروايات ومع غازان مثل ذلك أو اكثر .

تبع النفار المنهمزين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق واستولوا عليها ونهبوا ضياعها وسبوا أهلها ، وساقوا في أثر الجفأ الى غزة والقدس وبلاد الكرك . ولما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قيقق الامان لاهلها ولغيرهم منه . وكانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها وكان الامير بها سيف الدين ارجواش المنصوري فقام في حنظها اتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها — هذا ما قاله ابو الفداء وابن اياس . ووصف مغلطاى ما حلَّ بدمشق وضواحيها من النفار وما جرى على العساكر المصرية والشامية ، وما تم من تخريب الدور والمساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية والخواضر البرانية من العقبة والشاغور وقصر حجاج وحسكر السماق وقد خرب منها واستبيح ما لم يصبه الحريق من الاماكن قال : انهم أسروا من الصالحية نحو اربعة آلاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمائة او اربعمائة اكثرهم في التعذيب

على المال . ودام النار نحو اربعة اشهر . وكان عدد من دخلوا دمشق من النار اربعة آلاف مقاتل . وقد احترقت اماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الاشرفية وما قبلتها الى العادلية الصغرى والعادلية الكبرى وأحرقت دار السعادة وكانت مقر نواب السلطنة وما حولها ، واحتاط النار بهذه النواحي والاماكن التي لم يصل اليها الحريق فنهبت ونقضت أخشابها ، وقلع ما فيها من الرخام وأخذ ما فيها من الاثاث ، وكذلك فعل بجميع الصالحية .

وعقب ان تم كل هذا الحيف جاء رسول النار الى دمشق بالامان ومما شرطه في فرمانه اي امره وانقليده وكان مكتوباً بالعربية ، ان لا يتعرضوا لاحد من أهل الأديان على اختلاف اديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فانهم انما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية . وقال صاحب النار : انه حارب حكام مصر والشام لانهم خارجون من طريق الدين غير متمسكين باحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا زمام ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومدت الايدي العادية الى حريمهم وأموالهم ، والتخطي عن جادة العدل والانصاف . قال مغلطي : انه حمل الى خزانة غازان ثلاثة آلاف الف دينار وستمئة الف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء وغير ذلك . وقال الصفدي : والى شيخ الشيوخ الذي نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة الف درهم والى الاصيل بن نصير الدين الطوسي مائة الف درهم .

ولقد أقام غازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنبقية . ثم عاد الى بلاده الشرقية وعاصمتها تبريز وقرر في دمشق قبجق ولم يستفد الا تخريب البلاد وقتل بعض جيشه وجيشي مصر والشام ، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان الى الصالحية ، ثم اتفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلاطه وبهرس الجاشنكير بالعساكر الى الشام فساروا بالعساكر ، وكان قبجق وبكتمر والالبكي قد كاتبوا المسلمين في الباطن وصاروا معهم ، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا النار وساروا الى مصر ، وبلغ النار بدمشق ذلك

فخافوا وساروا من وقتهم الى البلاد الشرقية ، ورتب الامير جمال الدين اقوش الافرم في نيابة السلطنة بدمشق ، وأقر سنقر في نيابة السلطنة بحلب ، وقطلوبك في نيابة السلطنة بالساحل والحصون ، والامير كتبغا زين الدين المنصوري بجماة . وسار جمال الدين اقوش الافرم من دمشق وصحبته من الرجاله والفلاحين جمع كثير الى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين واخذ عُددهم ، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتزموا به وحملوه وأقطعت بلادهم وأراضيتهم .

وكان الارمن في السنة الماضية لما وصل غازان بمجموع المغول الى الشام طمعوا في البلاد التي افنتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها ، فتركها الذين بها من العسكر والرجال فاستولى الارمن عليها ، ولم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان ، واستولى الارمن على غيرها من الحصون والبلاد التي كانت جنوبي نهر جيحان ، فجردت مصر والشام في السنة التالية عسكراً الى بلاد سويس ونهبت وخربت . وعاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكراً على الشام بدعوى ان عساكر صاحب مصر والشام أغارت على ماردین وبلادها فطرقت البلاد على حين غفلة من أهلها وهتكوا المحارم فأناه أهل ماردین وبلادها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الاسلامية — وكان دان بالاسلام حديثاً — فلاقى العسكر وفرق شملهم ، وان سبب رحيله المرة الاولى عن الشام ان الرعية تضررت بمقامه لكثرة جيوشه ومشاركتهم الرعية في الشراب والطعام فرحل وترك عندهم من يجرسهم من تعدي بعضهم على بعض ويحفظ الشام من أعدائه المتقدمين وأكراده المتوردين .

ولما عبر الفرات في المرة الثانية جفل الناس من المغول ودخلوا بلاد حلب وعاثوا في ارجائها ، وسار نائب السلطنة بحلب الى حماة ووصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بظاهر حماة وأقام المغول ببلاد سرمين والمرة وتيزين والعمق وجبال انطاكية وجبل السماق ينهبون ويقتلون ، وسار السلطان من مصر بالعساكر المصرية ووصل الى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الامطار والايصال فرجع الى مصر ، واقام المغول يتنقلون في بلاد حلب نحو ثلاثة اشهر ثم عادوا الى بلادهم . والمغول هم والنار

شيء واحد والشار صنف من أم المغول . فقول المؤرخين المغول أو الشار من الالفاظ المترادفة نقر بآ .

وفي سنة ٧٠٢ فتحت جزيرة أرواد قبالة أنطرموس وهي ليعقوب الطرطوسي وكان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا وكانوا يظلمون منها و يقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل وكان النائب على الساحل اذ ذاك سيف الدين اسندمر الكرجي فسأل ارسال اسطول من مصر فصار اليها وجرى بين الفرنج والمسلمين قتال شديد انتصر فيه المسلمون وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخرّبوا أسوارها وكانت القتل نحواً من الفين والاسرى نحو خمسمائة . وفي هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت ورفعت الشكايات الى نائب دمشق الاقزم في الجردبين والكسروانيين — وكانوا أعواناً للفرنج والحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع باهل كسروان — فحدث جيوش الشام لمقاتلتهم وكانت الواقعة على ما روى ابن القلاعي عند مدينة جبيل فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا اكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم واخذوا اربعة آلاف رأس من خيلهم وقدمت الاكراد لنجدتهم ، فصدّهم كمينان في القدار والمدفور فلم يخلص منهم الا القليل وخرّبوا بعض بلاد الغرب ، وكان امراء الغرب التتوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة وبخطوش وغيرها . ويقول صالح بن يحيى : ان السبب في قتالهم ان الهاربين من وجه الشار من العسكر نفرقوا (٦٩٩) في البلاد فحصل لهم اذية من المفسدين وخصوصاً من أهل كسروان وجزين واكثرهم اذية للهاربين أهل كسروان فانهم بلغوا الى ان أمسكوا بعضاً منهم وباعوهم للفرنج واما السلب والقتل فكان كثيراً الى ان عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم . وفي هذه السنة عادت الشار قصد الشام وساروا الى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسارت منهم طائفة تقدير عشرة آلاف فارس وكانوا كلهم نحواً من خمسين ألفاً عليهم خطوشاه نائب غازان واغاروا على القريتين وتلك الارحاء ، وكانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة اسندمر الكرجي نائب السلطنة بالساحل بمعاونة عسكر حلب وحماة فاقتتلوا مع الشار في موقع يقال له الكوم قريب من

عرض بين تدمير والرتصافة فانهزم النصارى وقتلوا عن آخرهم ، وكان المسلمون النصارى وخمسمائة فارس والنصارى ثلاثة اضعافهم وهم الطائفة التي كانت وصلت الى القريةتين ونهب التركان .

ثم سار النصارى بجمعهم العظيمة صحبة قطوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا الى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين ايديهم واجتمعت عساكر مصر والشام في دمشق بمرج الزنبقية ظاهر دمشق ثم ساروا الى مرج الصفر لما قاربهم النصارى وبقي العسكر منظرين وصول الملك الناصر وسارت النصارى وعبروا على دمشق طالبين العسكر ووصلوا اليهم عند شحج بطرف مرج الصفر فالتقى الفريقان واشتد القتال فانهزم النصارى ولحق المسلمون اثر المنهزمين الى القريةتين يقتلون فيهم ويأسرون ، ووصل النصارى الى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدر على العبور والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها الى بغداد فانقطع اكثرهم على شاطئ الفرات ، واخذ العرب منهم جماعة كثيرة ورجع غازان من حلب في خيول صدر من كسرة اصحابه وتمزقهم ابعد المسافة وتخطف اهل الحصون لهم . قال شرف الدين الوحيد في انتصار التتار مرة وكسرتهم تارة أخرى :

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الايام في الحكم بيننا فكانت له الاولى وكانت لنا الاخرى

غزوة الارمن والكسروانيين } ولما ارتاح ذهن صاحب مصر والشام من
وتزعزع السلطنة } النصارى عاد فجرد عسكراً من مصر وحماة وحلب
(٧٠٣) ودخلوا بلاد سويس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالامان وارتجعوها من الارمن
وهدموها الى الارض . وكان من نتائج معاونة النبوخيين في غرب لبنان لجيش دمشق
على قتال الكسروانيين ان تأصلت العداوة بين الفريقين حتى اذا كانت سنة ٧٠٤
ارسل اقوش الافرم نائب دمشق الى الجلباين والكسروانيين الشريف زين الدين
عدنان ، يأمرهم ان يصلحوا شؤونهم مع النبوخية ويدخلوا في طاعتهم ، ثم ارسل اليهم
ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق ، فافتي العلماء حينئذ بنهب

بلادهم بسبب استمرارهم على العصيان وابطائهم الدخول في الطاعة ، ولذلك جردت
العساكر من جميع بلاد الشام ولم تنزل تزداد الجموع الى سلاح هذه السنة . وقال سيف
الدر المنظوم ان اقوش المذكور فتح كسروان من جهتها الشمالية ولذلك دعيت فتوحاً
وقال آخر : ان الافرم جمع رجال الدروز (٧٠٦) وكانوا عشرة امراء بعشرة آلاف
مقاتل والتمت الجموع عند عين صولر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على
الامراء فهربوا بجرمهم واولادهم واموالهم ونحو ثلاثمائة نفس من رجالهم واجتمعوا في
الغار غربي كسروان المعروف بغار تهبية فوق انطلياس بالغرب من مغارة البلانة
فدافعوا عن انفسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم . ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا فامر
نائب دمشق ان يبنوا على الغار سداً من الحجر والكس وهالوا عليه نلاً من التراب
وجعلوا الامير قطلوبك حارساً عليهم مدة اربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار ، ثم احاط
العسكر بتلك الجبال ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً من خلق الله يصل
اليها ، فحربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا واسروا جميع من صادفوا
من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعه بعد عزتها .

وكل حصن وان طالت اقامته على دعائمه لا بدَّ مهديم

ويقول مؤرخو لبنان : ان الافرم في هذه الحملة كان في خمسين الف فارس
وراجل . ويقول ابو الفداء وابن الوردي : ان هذه الحملة كانت على بلاد الظنبيين^(١)
وغيرهم من المارقين عن الطاعة وكانوا يتخطفون المسلمين ويبيعونهم من اعدائهم ويقطعون
الطرق . وفي تاريخ بيروت ان سيف الدين أسندُ مر نائب طرابلس كان نسب
الى مباطنة الكسروانيين فافحش فيهم القتل لينفي عنه هذه التهمة اللاحقة به
وان الكسروانيين بادوا ونفروا في البلاد واقطع هذا النائب بعضهم املاً كاً من حلقة
طرابلس وجازى بعضهم بالرواتب .

وفي سنة ٧٠٥ ارسل نائب السلطنة بحلب مع قشمر مملوكه في عسكر حلب
الاغارة على بلاد سيس ايضاً ، وكان ضعيف العقل قليل التدبير ، ففرط في حفظ العسكر

(١) جبال الظنبيين علي ما في تاريخ بيروت هو الجبل الذي يعرف اليوم بجبل

الضنية قرب عكار .

ولم يكشف أخبار العدو واستهان بهم ، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتار وانضمت اليهم الارمن والفرنج ووصلوا على غرة الى قشمر فالتقوا بالقرب من اياس فلم يكن للحلبين قدرة بن جاءهم فتولوا يتدرون الطريق . وتمكنت التتار والارمن منهم فقتلوا واسروا غالبهم واخفى من سلم في تلك الجبال .

ولم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شيء يستحق التدوين حتى سنة ٧٠٨ وقد خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه الى الحجاز ، فلما وصل الى الكرك امر الامراء الذين حضروا في خدمته بالمسير الى الديار المصرية واعلمهم انه جعل السفر الى الحجاز وسيلة الى المقام بالكرك . وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبهرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالامور وتجاوزا الحد في الانفراد بالاموال والامر والنهي ، ولم يترك له غير الاسم فاشتور الامراء فيما بينهم وانفقوا على ان تكون السلطنة لبهرس الجاشنكير فجلس على سرير السلطنة على ان يكون سلار مستمراً على نيابتها .

وفي السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بهرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر ، ووصلوا الى السلطان بالكرك واعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبه ، فاعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وانهم باقون على طاعته ، وكذلك وصلت اليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك الى حمان وهي قرية قريبة من رأس الماء وعاد فرجع الى الكرك واستمرت العساكر على طاعته وانحلت دولة بهرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف بعد ان ساعفته الايام ولم يهم الا انه سيتجونه الاقدار ولا تظني ان ما بناه على شفا جرف هار .

ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقائهم على طاعته وولائه عاود المسير الى دمشق فسار الى البرج الابيض من اعمال البلقاء ، فاظاعه جند دمشق وجند حماة والساحل ، وطلب نائب السلطنة الافرم الامان فأمنه ، ولما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار الى مصر وبلغ بهرس الجاشنكير ونائبه ذلك فجردا عسكراً ضخماً اقاموا في الصالحية بطريق مصر . ولما وصل السلطان الي

غزة قدم الى طاعته عسكر مصر اولاً فأولاً ثم ثابعت الأطلاب والكتائب ، وبويع له بالسلطنة للمرة الثالثة ولما تحقق يهدرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وطلب الامان واعطاه السلطان صهيون ومئة مملوك ثم قبض وقتل . وكذلك فعل بسلاار واكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

وفي سنة ٧٠٩ وقعت فتنة في حوران بين اليمنية والقيسية وحشدوا وبلغت المقتلة الف نفس وكانت بقرب السويداء وفي سنة ٧١٠ اقام السلطان ملكاً على حماة اسماعيل بن علي الملقب بابي الفداء وهو آخر من بقي من سلالة المملوك الاقدمين في الشام . ولولا حسن سياسة ابني الفداء ما وصل الى هذا المنصب لان الدور اصبغ دور المماليك والغرباء عن البلاد وجميع مواطن النيابة اصبغ فيها مماليك السلطان او ممالك والده او ممالك ممالك والده ، وجميعهم مرتبون من الابواب الشريفة . ولم يكن كل ملك او قبيل من هؤلاء المملوك والاقبال حراً بمملكته كما زعم بعضهم ، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك في بلدان صغيرة من الشام اشبه باصحاب اقطاعات لا يزالون في حربهم وسلمهم تحت امر السلطان . واذا شذ في الاحاين بعضهم وعدوا على سلطانهم فانهم لم يخرجوا عن كونهم ولاية او عمالاً خرجوا على السلطان ليس الا .

الغزوات في الشمال) وفي سنة ٧١١ قصد قراسنقر كبير الامراء في حلب وظهور دعوة جديدة) امير العرب مهنا بن عيسى وكان على مسيرة يومين من حلب يستنصره ، وكان في ثمانمائة مملوك ، على الملك وكان يريد أن يبطش به . فركب مهنا فمين اطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفاً ، وقصدوا حلب وأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقر ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك ودخلت سنة ٧١٥ فارسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام ومصر الى ملطية ففتحوها ، وسبب ذلك أن حكومتها كانت تعتدي على ابناء السبيل ومن جاورها من سكان القلاع ، وان المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى انهم زوجوا النصراني بالمسلمة وثبت أنهم كانوا يطلعون التتار والارمن على أخبار المسلمين ، ثم رجع الجيش الي مرج دابق قرب حلب ، وترددت الرسل الي

صاحب بلاد سيس الارمني في اعادة البلاد التي جنوبي جيجان وزيادة القطيعة اي الاتاوة فزادت حتى جعلها نحو الف الف درهم . وصدر امر السلطان بان لا تكون بحماة وبلادها حماية للدعوة الاسماعيلية أهل مصيف ، بل يتساوون مع رعية حماة في اداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك .

وأغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجاعة من التتار والعرب على التراكمين والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم ووصل في اغارته الى قرب البهضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه الى الشرق . وجيز نائب السلطنة (٧١٧) بحلب عدة كثيرة من عسكر حلب وغيرهم من التراكمين والعربان والطاعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا الى آمد وبغتوها ونهبوا اهلها المسلمين والنصارى . وبالغوا في النهب الحرام فخلت آمد من اهلها . وظهر في جبال بلاطنس من عمل اللاذقية انسان من النصيرية وادعى انه محمد بن الحسن العسكري ثاني عشر الائمة عند الامامية ، وقيل زعم تارة انه المهدي المنتظر وأخرى انه علي بن ابي طالب وطوراً انه محمد المصطفى وان الامة كفره . فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف ، وهجم مدينة جبلة والناس في صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة ، وجرد اليه عسكر من طرابلس فلما فاربه تفرق جمعه وهرب واخفى في تلك الجبال فتبع وقتل وباد جمعه ولم يعد لهم ذكر ، بعد ان قتل مائة وعشرون رجلاً من رجاله .

وفي سنة ٧٢٠ تقدمت مراسيم السلطان باغارة العساكر على بلاد سيس فسار الجند الشامي من الساحل ودمشق وحماة وحلب فنازلوا قلعة سيس حتى بلغوا السور ، وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي ونهبوا وخربوا . وسار جمع عظيم من العساكر الشامية والعرب في أثر آل عيسى ، وكانت منازلهم في سلمية ، حتي وصلوا الى الرحبة فعانة فحرب آل عيسى الى ما وراء الكبيسات ، وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن ابي بكر بن علي بن حديشة بن عصبة ثم رضي السلطان (٧٢٢) على الامير فضل بن عيسى وأقره على إمرة العرب . وضع محمد بن ابي بكر أمير آل عيسى . وجردت بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية الى بلاد سيس ونازلوا اياس

فهربت الارمن منها واخلوها والقوا النار فيها فملكها المسلمون وخرّبوا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر الى بلده .

وفي سنة ٧٣٢ مات الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة وكان سلطان مصر يحبه ويستدعيه كل سنة لزيارته ومرافقته في صيوده وبنعم عليه حتى سلطته سنة ٧٢٠ لكثرة ما شاهد من علمه وحسن سياسته ، اي انه ارسل اليه شعار السلطنة ، وكانت مؤلفاً عظيماً وعالماً مفضلاً على العلماء . قال ابن الوردي : ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون انه ليس في الملوك بعد المأمون افضل منه ، وتملك حماة ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد .

وهذأت الاحوال في هذه الحقبة في البلاد ولم يحدث سوى امور طفيفة مثل قدوم مراكب فرنج جنوبية (٧٣٤) الى بيروت ، قاتلوا اهلها يومين ودخلوا البرج واخذوا الاعلام السلطانية والمراكب . وكان السلطان يعقل بعض الخوارج عليه او من يرى في سيرهم ما يدعو الى الشبهة ثم يطلقهم وبنعم عليهم ، وربما اخر اهلاك من يخافهم على السلطنة مثل نكز نائب الشام عشر سنين ثم قتله وكان قتل خلقاً فارتاحت البلاد ، وما كانت افكار السلطنة موجهة الا الى قتال الارمن مخافة ان يستطيعوهم ، فكانوا يغزون كل مرة وآخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر حلب (٧٣٥) ، وكان الارمن ملكوا مدينة سبس وطرّدوا من كان بها من المسلمين ، فغربوا في بلد أذنة وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشي وغنموا وأسروا ، وما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر ، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم ، فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسهم في خان ثم أحرقوه وقلّ من نجا ، فعلوا ذلك بنحو الذي فعل من التجار والبغادة وغيرهم . وبعد مدة سار العسكر من مصر والشام بقيادة ملك الامراء يجلب علاء الدين الطنبغا الى بلاد الارمن (٧٣٧) ونزلوا على مينا اياس وحاصروها ثلاثة ايام ثم قدم رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على ان يسلموا البلاد والقلاع التي شرقي نهر جيحان ، فسلموا ذلك منهم وهو ملك كبير وبلاد كثيرة كالمصيصة وكويرا والهارونية وسرفندكار واياس وباناس ونجيمة والنقيير وغير ذلك ،

فحرب المسلمون برج ايباس الذي في البحر . قال ابن الوردي : وهذا فتح اشمل على فتوح وترك ملك الارمن جسداً بلا روح .

كانت حكومة المماليك تكثر من نصب الولاة وعزلهم ولا سيما في دمشق ، فتولي في كل وقت نائباً جديداً وربما في كل شهر ولم تطل مدة واحد من الولاة كما طالت نيابة انكز فان ولايته دامت من سنة ٧١٢ الى ٧٤٠ قال الكتبي : وهابه الامراء بدمشق ونواب الشام وأمن الرعايا ، ولم يكن احد من الامراء ولا ارباب الجاه بقدر ان يظلم احداً آدمياً او غيره خوفاً من بطشه وشدة ايقاعه . قال : وكان الناس في ايامه آمنين على أموالهم ووظائفهم . وهو صاحب الابنية العظيمة في دمشق وغيرها من بلاد الشام وكان ممن ينشط الزراعة . ولما اخذه ملك مصر وقتله في الاسكندرية تأسف عليه أهل دمشق .

وتوفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ بعد ان خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم ، وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر ، وتألم الناس لفقده لانه أبطل المكوس وعمر البلاد وانشأ جوامع ومدارس وكانت ايامه ايام أمن وسكينة ، فتولى الملك بعده ابنه السلطان الملك المنصور ابو بكر وكان تسلمن قبل موت والده . وملك الناصر محمد ابن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث واربعون سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً ، تملك المرة الاولى بعد وفاة اخيه الاشرف سنة كاملة ، والمرة الثانية بعد قتل لاجين ، ومدة ملكه ثمانية عشر سنين وستة شهور واثنى عشر يوماً ، والدولة الثالثة أقام بها ثنتين وثلاثين سنة وثلاثة شهور وخمسة ايام ، وكانت في الثالثة حاكماً متصرفاً ليس له منازع ولا معترض ولا من يخالف امره بخلاف المدينين الأولين . وشأن قلاوون قليل في الملوك ، لانه ندر من يتحلى او يخلع من الملوك ان يعود الى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات . ومن غريب ما وقع له ايضاً انه تسلمن ثمانية من أولاده لصلبه ، وهذا مما يعد في باب سعادة آل قلاوون .

وفي سنة ٧٤١ فتح الامير علاء الدين ايدغدي الزراق ومعه بعض عسكر حلب قلعة خندروس من الروم ، وكانت عاصية وبها أرمن وثار يقطعون الطرقات ، وفي السنة التالية (٧٤٢) بايع السلطان الملك المنصور ابو بكر الخليفة الحاكم بامر الله ابا العباس احمد بن المستكفي بالله ابي الربيع سليمان وكان قد عهد اليه والده بالخلافة فلم يبايع في حياة الناصر فلما ولي المنصور بايعه بمصر وجلس معه على كرسي الملك وبايعه القضاة وغيرهم ، وكان الخليفة من اولاد العباس يقيم في مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة ويبايع السلطان عند جلوسه .

<p>خلع السلطان الملك المنصور ابو بكر فاحتج عليه قوصون الناصري ولي نعمة ابيه بجحجج ونسب اليه اموراً ، فأخرجه الى قوص فقتله</p>	}	<p>خلع الملك المنصور ومقتل غير واحد من اخوته الذين خلفوه</p>
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	---	--------------------------------------------------------------

واليها ، وأقام في الملك اخاه الملك الأشرف كجك وهو ابن ثمان سنين . اي ان الخوارج على السلطنة بعد ان سكنوا بحسن سياسة الملك الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلعه نفسه ومكثه في الكرك حتى رجع الى السلطنة بعد ان اطاعه عسكر الشام ومصر ، عادوا يبدون نواجد الشر ويقتلون ملكهم ، وقتل الملوك من أشام ضروب الخراب في الممالك ، فقتل الملك الجديد ونسب اخوه الصبي ليكون الحكم لقوصون الناصري كما وقع ذلك في أدوار مختلفة ، ثم أرسل قوصون مع الامير قطبغا الفخري الناصري عسكراً لحصار السلطان احمد بن الملك الناصر بالكرك ، وسار الطنبغا نائب دمشق والحاج ارقطاي نائب طرابلس باشارة قوصون الى قتال طشتمر بحلب ، لان هذا انكر على قوصون ما اعتمده في حق أخيه المنصور ابو بكر ، ونهب الطنبغا بحلب مال طشتمر وهرب هذا الى الروم ، واستمال الملك الناصر في الكرك قطبغا الفخري وكان ذهب لقتاله وحاصره اياماً بامر قوصون من مصر فبايعه وبايع للناصر من بقي من عسكر دمشق المتأخرين عن المضي الى حلب صحبة الطنبغا ، ثم سار الفخري الى ثنية العقاب واخذ من مخزن الايتام بدمشق مالا ، ولما باغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل اليه الفخري لما قرب من دمشق القضاة ،

وطلب الكف عن القتال فبقيت نفس الطنبغا وابى ذلك ، وطال الامر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخري ثم المينة وبقي الطنبغا وجماعته في قليل من العسكر ، فهرب الطنبغا ومن معه من القواد الى جهة مصر ، فجزز الفخري وأعلم الناصر بالكرك وقد خطب له بدمشق وغزة والقدس فلما وصل الطنبغا الى مصر ، وهو قوي النفس بقوصون تغير امر قوصون . وكان قد غلب على الامر لصغر الملك الاشرف ، ثم قبض جماعة الامراء على قوصون وأرسلوه الى الاسكندرية وأدلك بها ، وقبضوا على الطنبغا وحبسوه ، وسافر الملك الناصر احمد من الكرك وعمل أغرية لوالده واخيه ، وامر بتسمير والي قوص لقتله المنصور وخلف الاشرف الصغير ، وجلس الناصر على الكرمي هو والخليفة ثم أعدم الطنبغا وغيره ، وتواتر عزل الولاة والنواب لمجلب ، جرى كل هذا في مدة يسيرة . وجرى في هذه السنة (٧٤٢) من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر في مئات من السنين على رأي ابن الوردي .

ولم يصف جو السلطنة للملك الناصر احمد في مصر وسافر الى الكرك وحصنها واتخذها مقاما له ولما حصل بها وقتل بها طشمر والفخري قتلة شنيعة (٧٤٣) انقلب عليه عسكر الشام وهو بالكرك وكاتبوا مصر فخلع الناصر واجلس اخوه السلطان الملك الصالح اسماعيل ، واستناب آل ملك وحصر السلطان الملك الناصر بالكرك واجتمع عليه اخوه الملك الصالح بما اخذه من اموال بيت المال ، وخرج الامير ركن الدين بپرس الاحمدي من مصر بعسكر لحصار الكرك وكذلك من دمشق ، فحاصروا الناصر بالكرك وذكر المؤرخون انه وردت المراسيم الى جميع ولايات الاعمال الشامية بتجريد العشران وغيرهم الى الكرك ، فذهبوا اليها سنة ٧٤٣ ووجدوا في القلعة مع السلطان احمد خلقا كثيرا ، وقد نصبوا على القاعة في اعلاها خمسة مناجيق ومدافع كثيرة ، ونصب المحاصرون على باب القلعة منجنيقا يرمي بحجارة وزنها خمسة وثلاثون رطلا وخرجت السنة ولم يحصل فيها شيء يذكر وانار التركن مرات على بلاد سيس فقبلوا ونهبوا واسروا وشفوا الغليل بما فتكت الارمن ببلاد قرمان ، وعاد العسكر (٧٤٤) المحجز الى بلاد سيس وما ظفروا بطائل ، وكانوا قد اشرفوا على اخذ اذنة وفيها خلق

عظيم واموال عظيمة وُجفال من الارمن فارثى اقسنقر مقدم عسكر حلب من الارمن وثبط الجيش عن فتحها واحثج بان السلطان مارسم باخذها . وحاصر يلبغا النائب بحلب زين الدين قراجا بن دلغادر التركماني بجبل عسر الى جانب جيجان فاعتصم منه بالجبل ، وقتل في العسكر واسر وجرح ، وما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه وعظم على الناس شره ، وكانت هذه حركة رديئة من يلبغا ثم اوقع دلغادر بالارمن وفتح قلعة كابان (٧٤٦) وبعد فتحها قصد النائب بحلب ان يستنيب فيهما من جهة السلطان فعتا ابن دلغادر عن ذلك ، فجهزوا عسكراً لهدمها ثم اخذتها الارمن . وفي سنة ٧٤٥ حوصرت الكرك ونقبت ، وأخذ الملك الناصر احمد وحمل الى اخيه الملك الصالح بمصر فكان آخر العهد به ، وفي هذه السنة كانت الواقعة بين اهل البقاع ووادي التيم وقتل من الفريقين خلق كثير ، واحرق ابن صبح قرية من وادي التيم ، وانقطعت السبل لاسيما طريق الزبداني . وتوفي الملك الصالح اسمعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٦) وجلس مكانه اخوه السلطان الملك الكامل شعبان . وفي سنة ٧٤٧ خرج نائب الشام يلبغا الى ظاهر دمشق خوفاً من القبض عليه وشق عصا الطاعة وعاضد امراء مصر حتى خلع السلطان الملك الكامل شعبان واجلسوا مكانه اخاه الملك المظفر امير حاج ، وسلموا اليه اخاه الملك الكامل فكان آخر العهد به ، وكان هذا الملك الكامل شعبان سيئ التصرف يولي المناصب غير اهلهما بالبذل ويعزلهم عن قريب ببذل غيرهم ، وكان يقول عن نفسه انا ثعبان لاشعبان .

وفي سنة ٧٤٨ سافر الامير ناصر الدين بن المحسني بمسكر من حلب لتسكين فئنة بيلد شيزر بين العرب والاكراذ قتل فيها من الاكراذ نحو خمسمائة نفس . وفيها عزمت الارمن على نكبة اياس ، فاقوع بهم امير اياس حسام الدين محمد بن داود الشيباني ، وقتل من الارمن خلقاً واسر خلقاً ، واحضرت الرؤوس والاسرى الى حلب واقتتل سيف الدين بن فضل امير العرب واتباعه مع احمد فياض من الامراء في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت امواله وجرى على المعرة وحماة وغيرهما من العرب اصحاب سيف واهم فياض من النهب وقطع الطرق مالا يوصف وكانت هذه الحرب ضربة قاضية على بادية حماة فطفق البدو ينهبون القرى ويغيرون على حماة

والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى . وفي هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر امير حاج ابن الملك الناصر بن قلاوون بمصر واقيم مكانه اخوه السلطان الملك الناصر حسن ، وكان الملك المظفر قد ادلك اخاه الاشرف بكك وفتك بالامراء وقتل من اعيانهم نحو اربعين اميراً .

احداث وكوائن وعصيان } ومن الاحداث ان نائب الشام يلبغا الجيادي
ومخامرات } هرب فتبعه جماعة من عسكر دمشق فنقاتل معهم
فقتل فقطعوا رأسه وحملوه الى السلطان بمصر . وفي سنة ٧٥٠ دخل الامير جبغا
نائب طرابلس مدينة دمشق في جماعة كثيرة من عسكر طرابلس ، وكان ارغون شاه
نائب الشام مقيماً بالقصر الابلق فدخل عليه الامير جبغا وهو نائم بين عياله وقبضه ،
فلما اصبح الصباح طلب الامير جبغا القضاة والامراء بدمشق واخرج لهم مرسوم
السلطان بالقبض على ارغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا
ان ذلك صحيح فسجنه واحتاط على موجوده ، ثم وجدوا ارغون شاه مذبحاً في السجن
ففشا الكلام بين الناس بان ذلك من فعل الامير جبغا فوثب عليه عسكر دمشق
وحاربوه فزرب جبغا الى المزة فلم يتبعه احد من العسكر وخافوا عقبي ذلك ،
وكتب امراء دمشق السلطان بما وقع من الامير جبغا فانكر ما وقع لارغون
شاه ، ورسم لامراء دمشق ان يحاربوا الامير جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ،
وحاربوه وهو في طرابلس فانكسر جبغا وقبضوا عليه وشنقوه .

وفي سنة ٧٥١ اثار شخص من الثار اسمه هندو على مدينة سنجار وملوكها ، فارسل
سلطان مصر والشام له تجريدة فحاصروه فطلب الامان ثم رحل عن سنجار . وفي سنة
٧٥٤ قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج الى صيدا فقتلوا طائفة من اهلها
واسروا جماعة وقتل منهم خلق كثير وكسر مركب من مراكبيهم ، فوصل الصرينج
الى دمشق ، فاجتمعت العساكر من صفد ودمشق واسرعوا الى فك الاسرى ، واخذوا
من ديوان الاسرى ثلاثين الفا واعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم .
وان الخلل الذي طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عظماء السلاطين من اولاد

فلاوون وسرعة قتلهم واستخلاف غيرهم من الممالك ، قد سرى من شرارته شيء كثير في هذه الحقبة من الزمن ، ومسألة اليحياءوي مع أرغون شاه مثال منها . ومن أمثلة الخلل في تلك الدولة خروج يبيغا اروس نائب حلب عن الطاعة واطهاره العصيان للسلطان ، وكذلك الامير بككش نائب طرابلس ، والامير احمد نائب حماة ، والامير الطنينا براق نائب صفد ، ولم يبق على الطاعة الا نائب دمشق الامير أرغون الكاملي ، فأرسل يخبر السلطان في مصر بما قد جرى من النواب ، ثم اضطر نائب الشام لما رأى عين الغلبة الى الحرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزوة ، فأقام يعلم السلطان والامراء بما جرى ، والنف على الامير يبيغا اروس العربات والعشائر مع العساكر الحلبية والشامية وكان معه نحو ستين اميراً لما فتح دمشق واستعرض العساكر بها ثم أرسل الى نائب قلعة دمشق بطلب منه اطلاق امير كان مسجوناً فيها فاعتذر عن ذلك الا بمرسوم السلطان ، وحصن القلعة تحصيناً عظيماً وركب عليها المكاحل بالمدافع وارسل يقول لاهل المدينة لا تفتحوا دكاناً ولا سوقاً ولا تبيعوا عسكر حلب شيئاً ، فلما بلغ الامير يبيغا اروس ذلك اشتد به الغضب ، وامر عسكره بان ينهبوا ضياع دمشق والبرساتين ويقطعوا الاشجار ، فلما سمعوا هذه المناداة ماأبقوا ممكنة من الاذى والفساد ، فنهبوا حتى النساء والبنسات والقماش ، وجرى على أهل دمشق من يبيغا اروس ما لم يحجر عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق .

ثم ان سلطان مصر جيز عسكراً عظيماً وجعل عليهم من امراء الطبليخانات والعشراوات ^(١) نحو ثمانين اميراً وكان صحبتته القضاة الاربعة والخليفة الامام احمد الحاكم بامر الله فأمر بقتال جماعة يبيغا فانهمزم هذا ولحق ببلاد التراكمة ، وجيء بجماعته في القيود يرسفون . ثم عاد السلطان الى مصر بعد ان عزل من عزل وولى

(١) الطبليخانات من الرتب العسكرية وظيفتها الضرب بالآلات الموسيقية وكان عدة من في باب السلطان منهم اربعين اميراً وبخدمة كل واحد منهم اربعون مملوكاً ولهم الطبول الصغار والزمارات والابواق . قال الظاهري : وبالطبلخانات من الكوسات (الطبول الصغيرة) التي تدق على باب السلطان اربعون حملاً وأربعة طبل دھول وأربعة زمور وعشرون نفيراً ولها مهتار وبها عدة خدام .

من ولي . والسلطان هذا هو الملك الصالح صلاح الدين صالح وهو العشرون من ملوك الترك واولادهم . والثامن من اولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون . ثم انت نائب حلب ببيغا ونائب طرابلس بكمش ونائب حماة احمد الذين كانوا هربوا من بلاد السلطان الى بلاد التركات قطعوا رؤسهم وارسلوها الى السلطان بمصر .

وخلع السلطان على الامير ارغون الكامي واستقر به نائب حلب عوضاً عن بيغا اروس وجرد ارغون الى قراجا بن ذي القدر امير التركمان في مرعش وحواليها ، وكان ذنب قراجا انه وافق بيغا اروس على العصيان فلما وصل اليه الامير ارغون هرب منه فتبعه الامير ارغون الى أطراف بلاد الروم فقبض عليه وارسله الى السلطان بمصر فسمره على جمل .

وفي سنة ٧٦٠ توجه الامير بهدمر الخوارزمي نائب حلب الى بلاد سيس وحاصر أهلها فطلبوا منه الامان فتسلمها وكذلك المصيصة ، وفتح في تلك السنة عدة قلاع ثم رجع الى حلب . وفي سنة ٧٦٢ أظير بهدمر الخوارزمي نائب الشام العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الاخبار ، وخرج قاصداً الشام ، ولما بلغ دمشق أرسل له أماناً فقبض عليه وقيده .

وفي سنة ٧٦٥ جاء الفرنج الى قلعة اياس وحاصروها فخرج اليهم الامير منكلي بغا الشمسي نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاءوا في مائتي مركب حربي الى طرابلس ، وكان النائب غائباً عنها فطمعوا في أخذها ثم خرج اليهم بعض عسكرها فوقعوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة من المسلمين نحو ألفي انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاؤا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت الفرنج كسرة قوية ورحلوا عن طرابلس .

وفي سنة ٧٦٧ عصا على السلطان نائب دمشق بهدمر واجتمع اليه مقدمو البلدان

وحضر اليه ابن اكلكش ومعه آلاف وقدم الزبداني ومعه الف نفس فأرسل السلطان اليه جيشاً وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتله .
وفي سنة ٧٧١ وقع تشاجر بين الامير جبار من آل الفضل امير العرب وبين نائب حلب قشمر المنصوري فخرج اليه نائب حلب بالعساكر الحلبية فقاتل مع الامير جبار فقريت العربان على نائب حلب فقتل في المعركة .

مقتل الاشرف شعبان } وفي سنة ٧٧٨ قتل في القاهرة الملك الاشرف
والاحداث بعده } شعبان . قال ابن اياس : وكان من محاسن الزمان
في العدل والحلم وكان ملكاً هيناً ليناً محباً للناس منقاداً للشرعية محسناً وكانت الدنيا
في أيامه دأثة من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية وفساد العرب وساس الناس
أحسن سياسة . وتولى الملك بعده ابنه الملك الصالح بن الحاج وله من العمر نحو
احدى عشرة سنة وهذا آخر من تولى السلطنة من ذرية بني قلاوون وبه زال
الملك عنهم وقد أقامت السلطنة في قلاوون وذريته مائة سنة وثلاث
سنين وأشهرأ .

وفي سنة ٧٧٣ شدد الامير سيف الدين منجك نائب الشام وكان تولها للمرة
الثانية منذ سنة ٧٧٠ على أهل اللهاو بدمشق وامر بقطع الاشجار والصفصاف الذي بين
النهرين وتخريب المكان الذي أحدث في الشرف الاعلى وأزال المنكرات من هذا
المكان ومن الذي فوق الجبهة ايضاً وهدم الابنية والخوانيت المنجدة هناك . قال ابن
طولون : انه فعل الخيرات وبني المحطات في الدروب وبني زاوية بالكسوة وعمل لها
سماطاً وعزل الطرقات وعدل في الرعايا . وفي السنة التالية أرسل الجاي اخاه طقتمر
الحسني الى دمشق لعرض الاجناد فيها فحصل اموالاً عظيمة ، حتى قيل ان الذي خصه
خمسون الف دينار ، وأخذ من ذخائر القلعة اشياء نفيسة وبالغ في الظلم ، فاستغاث
الناس الى منجك نائب الشام فكتب فيه ثم توجه المذكور الى جهة حلب ففعل في
بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق . قال ابن حجر : ولولا تلطف النائب وناظر الجيش
س هلكوا معه .

وفي سنة ٧٧٦ خرج نائب حلب الى مدينة سيمس هو والعساكر الحلبية وفتحها وكانت في أيدي الارمن . وفي سنة ٧٧٩ خامر جميع نواب البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة فسأقت مصر تجريدة عليهم . وفي سنة ٧٨٠ خرج نائب الشام بهدم الخوارزمي عن الطاعة وقصد الحرب الى بلاد التركمان ببركه ورجاله فقبضه عسكر دمشق وسجنوه بالقلعة فأرسل سلطان مصر واخذ منه وسجنه ثم اطلقه بعد ثلاث سنين وأعيد الى منصبه . وفي سنة ٧٨٠ نازل الفرنج طرابلس في عدة سراكب فالتقاهم يلبغا الناصري فهزمهم ، ثم امر العسكر ان يتأخروا فطمع فيهم الفرنج وتبعوهم الى ان أبعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزمهم وقتل منهم جمع كبير قبض على اكثرهم وأقلع من بقي في المراكب . وثار اقبغا عبد الله (٧٨١) وجماعة معه على نائب الشام وكان قد تجرد مع نائب حلب في عسكر البلدين بسبب التركمان فوقع بينهم وبين اقبغا المذكور ومن معه وقعة فكسروهم نائب الشام وهرب اقبغا الى نعيم امير عرب الفضل . وفي سنة ٧٨٣ نهبت طائفة من التركمان بعض ضياع حلب وعاثوا وافسدوا وعين لهم الاتابك برقوق في مصر تجريدة وخرج اليهم ثلاثة من الامراء المتقدمين وخمسمائة مملوك فالتقوا مع التركمان وكسروهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ونهبوا أموالهم وطردهم الى ملطية .

وفي سنة ٧٨٤ حضر الى القاهرة رسول صاحب سيمس ومعه كتاب يخبر فيه بان الارمن الذين هناك مات كبيرهم فامروا عليهم زوجه فحكمت فيهم مدة ثم عزلت نفسها ، فاتفق رأيهم ان يفوضوا امرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم ، فاتفق لهم برقوق واحداً من الارمن الاسارى الذين يسكنون ظاهر القاهرة ويبيعون هناك الخمر فاخذوه معهم فملكوه عليهم . وفي السنة التالية جاءت رسل صاحب سنجار ورسول صاحب قيسارية ورسول صاحب تكريت يسألون صاحب مصر ان يكونوا تحت حكمه ويخطبوا باسمه فاجيب سؤلهم وكتب لهم بذلك ثقايلد وخلع عليهم . وفي هاتين الواقعتين دليل على ان صاحب مصر والشام في تلك الفترة كان اقوى من جاوره من الملوك خطب وده الاتراك والاكراد والارمن من مجاوريه .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت بين قبلاي نائب الكرك وخابر امير العرب بها قتل عظيم

فانكسر قبلاي وخلص خاطر ، وكان قبلاي امسكه قبل ذلك منهم ثم تحيل قبلاي على خاطر الى ان حضر عنده فذبجه وذبح ولديه غدراً . وفيها نازل الفرنج بيروت في عشرين مركباً فراسلوا نائب الشام فنقاعده عنهم واعتلّ باحتياجه الى مرسوم السلطان فقام اينال اليوسفي فنادى الغزاة في سبيل الله ففر معه جماعة فحال بين الفرنج وبين البحر وقتل بعضهم ونزل اليه بقية الفرنج فكسروهم وقبض من مراكبهم ستة عشر مركباً فسر المسلمون بذلك سروراً عظيماً ، وكان الفرنج دخلوا صيدا فوجدوا المسلمين قد بدأوا بهم فاحرزوا اموالهم واولادهم بقرية خلف الجبل فوجد الفرنج بعض امتعتهم فنهبوها واخذوا ما وجدوا من زيت وصابون واحرقوا السوق وقصدوا بيروت فتداركهم المسلمون ثم رحل النائب وانكسر الفرنج ثم عاد الفرنج الى مباحلة بيروت فتيقط لهم اهلها فحاربوهم ونزل طائفة من الفرنج فوجدوا بالساحل خمسة عشر نفسا فقتلوهم ثم قتل من الفرنج جماعة .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت فتنة بين نعيم بن مهنا امير العرب وابن عمه عثمان بن قارا ، فساعد يلبغا الناصري عثمان فكسر نعيم ونهبت امواله حتى قيل ان من جملة ما نهبت له ثلاثون ألف بعير . وفيها سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وبعض الشامية الى جهة التركان ، فنازلوا احمد بن رمضان التركاني عند الجسر على الفرات فكسر التركان وأسر ابراهيم بن رمضان وابنه وابوه ، فوسطهم يلبغا الناصري ، ثم تجمع التركان وواقعوا الناصري عند اذنة فانكسر العسكر وقلعت عين الناصري وجرح ثم تراجع العسكر ولم يفقد منه الا العدد اليسير ، فطردوا التركان الى ان كسروهم فغدر التركان بنائب حماة وبيتوه فانهمزم ثم ركب يلبغا الناصري فبزمهم .

وفي سنة ٧٨٧ توجه نواب الشام الى قتال التركان فانكسر العسكر وفتك فيهم التركان وقتلوا سودون العلائي نائب حماة وغيره . وكان اصل ذلك ان السلطان امر نواب الشام بالتوجه الى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركان فوصلوا الى طابون وهي بين مرعش وابلستين فالنقى بهم سولي فقتل سودون نائب حماة في المعركة وكذا سودون نائب بهسين فبلغ السلطان ذلك فشق عليه ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل اخاه .

سلطنة برقوق وحالة المماليك | دخل الهرم في دولة الاتراك المصرية وزاد
البحرية والشراكسة | فساد العربان في البلاد ، وخامن غالب النواب
في الشام وخرجوا عن الطاعة ، فاجتمع الاتابك برقوق متولي الامر والقضاة مع
الخليفة وسائر الامراء في مصر فأوا الحاجة فاسة الى إقامة سلطان كبير تجتمع
عليه الحكمة ويسكن الاضطراب فتكلم القضاة الاربعة مع الخليفة في سلطنة
الاتابكي برقوق فخلعوا الملك الصالح امير حاج من السلطنة وسلطنوا الاتابك
برقوق (٧٨٤) وهو اول ملوك الشراكسة بمصر والشام والخامس والعشرون من
ملوك الترك .

وكانت هذه الدولة التركية والشركسية التي أولدها عجبا في ضعف الادارة
وقيام الخوارج ، لان الملك على الاكثر كان ضعيفا يُنزل عن عرشه كل من عصا
عليه ، واستكثر من المماليك وقدر ان يتسلط على عقول السذج من العربان وارباب
الدعارة والطمع من الناس « والمماليك السلطانية الذين جرت العادة على انهم يفعلون
الامور المشهورة عنهم من اخذ اموال الناس وهتك حريمها » . والقاهرة لا شأن لها
بعد ان ينقاتل المقاتلون على الملك او يقاتل القواد ارباب العصيان والتمرد ويظفر
احد المتنازعين على السلطنة ، او الامير الذي وسد اليه اجنثا دابر العاصي ، الا ان
تزين أسواقها سبعة ايام او ثلاثة ايام على الاقل . لنعل ذلك لاقل حادث يحدث
حتى ولو قبض جماعة السلطان على احد صماليك المماليك ممن خامر عليه واستتبع أناسا
من الغاغة . وكانت دمشق في ايام الشراكسة ثم في ايام الاتراك اخلافهم تزين
سبعة ايام لاقل ظفر يقع ، فيفرح السلطان وتصدق البشائر . وكان من سلاطين
المماليك اهل خير تغلب عليهم الرحمة وحسن السياسة ، وكان ضعفهم آتيا من جماعتهم
المماليك لان لكل امير منهم جوقة ينفانون في حبه اذا تغلب عليه خصمه سجنهم
او اقصاهم او نكبهم ، فلا يزالون يعملون على إثارة الخواطر حتى يطلق سراحهم ثم
يعودون الى ما نهوا عنه وهكذا دواليك . والامة من اجل هذا تخرب ديارها ،
وتهاك ابناؤها وتذهب اموالها وعروضها ، حتى يسعد الطالع احد المتخاصمين في تغلب
على من يريد التغلب عليه . وهناك خليفة في مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد ،

و يبايعهم يوم نصابهم ، وربما سجنوه واقصوه عن انظار الامة اذا شعروا بان هواء مع
غيرهم او يمكن ان يكون كذلك : اتخذوه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من
سلاطين السلجوقيين والبوليقيين وغيرهم في بغداد .

وقائع تيمورلنك

من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣



بداة تيمورلنك | بينما كانت امور الدولة في الشام ومصر مختلة معتلة لا تستقر
ومناوشة جيشه | الادارة الشركسية على حال ، والمتوثبون على السلطنة
يكثرون ويقلون بضعف الملك وقوته ، جاء تيمورلنك من الشرق واخذ يتقدم نحو البلاد
بجيوش جرارة لا قبل للمالكين زمام الامر بدفعها ان لم يستعينوا بجيوش أخرى
فاصبحت البلاد بين عدوين داخلي وخارجي ، كما اصبحت في اواسط القرن السابع بين
عدوين احدهما من الشرق وهم التتار والآخر من الغرب وهم الصليبيون . وتيمورلنك
هو ابن ترغاي بن ابغاي مؤسس مملكة المغول الثانية ، ومعنى تيمور الحديد والملك الاعرج
والكسيع بلغتهم ، لان راعياً ضربه فيما قيل بسهم في فخذه ادخله به في زمرة العرجان ،
وفي رواية انه اصاب بسهم في الحرب في صباه . ولد تيمورلنك في قرية خواجه ايلغار من اعمال
كش من وادن ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م (ومات في اوترار سنة ٨٠٧ هـ - ١٤٠٥
بينما كان ذاعباً لفتح بلاد الخطا في الصين وجيء به الى سمرقند فدفن فيها) .

وكان تيمور يمت بقرابة بعيدة الى آل البيت الملوكي من المغول ذرية جنكيز
خان ، وذلك من جهة الامهات لا الآباء ، ورأس ابوه قبيلة برلاس التركية وحكم
ولاية كش وقد تيم صغيراً وسلبه جيرانه امارته ، فتوسل تيمور الى امير بلاد كشغر
ملك الجغتاي فانعم عليه بولاية ماوراء نهر جيحون ، ثم نزع يده من يد امير كشغر
وانضم الى عمه حسين ، ولما ماتت زوجته وقيل انه هو الذي قتلها بيده اصبح تيمور في

حل من امره ، وداهم حسيناً وتغلب عليه واستولى على بلخ فأصبح ملكاً على بلاد الجغتاي كلها « ولما استولى تيمور على ما وراء النهر وفاق الاقران تزوج بنات الملوك فزادوه في القابله كوركان وهو بلغة المغول الختن » وكان عهد تيمور كله عهد حروب وفظائع في القتل ، يقتل الناس بالالوف وعشرات الالوف ، اذا لم يخضعوا لسلطانهم في الحال قال المستغوي : وكان يقرب العلماء والسمراء والشجعان والاشراف وينزلهم منازلهم ولكن من خالف امره ادنى مخالفة استباح دمه ، فكانت هيبتهم لاتداني بهذا السبب ، وما اخرب البلاد الا بذلك فانه كان من اطاعه من اول وهلة آمن ومن خالفه ادنى مخالفة وفي ، انجند تيمور احد الخانات على ازروس خان ملك قسم من بلاد روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان وهرات وطوريس وقارص ونفليس وشيراز واصفهان وكشغر ومازندران والعراق بأسره وخرتب حفيده محمد بلاد بولونيا وروسيا ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها وفتح افغانستان وجلب من الهند الى بلاده المهندسين والنقاشين . ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (٨٠٥) وولىه ووضعته في قفص من حديد واخذه يعرضه على الناس فهلك قيراً ، وباستيلائه على ازميز اضطر امبراطور القسطنطينية ان يؤدي اليه الجزية .

هذا الفساح خرب عاصمتي الشام حلب ودمشق وكم خرب من مدن عامرة جداً في آسيا وكانت ملوك اوربا يخافونه وكثيراً ما ارسلوا الوفود لتمنيته بانصاراته .

هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته المشؤومة الا باسباب اوجدها النواب والامراء والملوك على الارجيج ، فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة ٧٩٨ ان اطمش قريب تيمورلنك قبض عليه قرا يوسف التركاني صاحب تبريز وارسله الى الملك الظاهر فاعتقله ، فكانت هذه الفعلة اعظم الاسباب في حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية . وقال في حوادث سنة ٧٩٩ وصلت كتب من تيمورلنك فعوقرت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم الى القاهرة ومضمونها التحريض على ارسال قريبه اطمش الذي اسره قرا يوسف ، فامر السلطان اطمش المذكور ان يكتب الى قريبه كتاباً يعرفه فيه بما هو عليه من الخير والاحسان بالديار المصرية ، وارسل ذلك السلطان

مع اجوبته ومضمونها اذا اطلقت من عندك من جهتي اطلقت من عندي من
جهتك والسلام .

فالقائمون بالامر هم الذين فتحوا تيمورلنك السبل لغزو البلاد فيما بعد ، غزوة اذلت
العزيز وافقرت الغني وخربت العامر . قال ابن حجر ايضاً : لما رجع تيمورلنك الى الشرق
وكان هذا دأبه اذا بلغه عن مملكة كبيرة وملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها
الى ان يحصل مقصوده فيتركها بعد ان يخرجها و يرجع ، فعل ذلك بالشرق كله وبالهند
وبالشام وبالروم .

ارسلت مصر في سنة ٧٩٠ عسكراً على تيمورلنك في سيواس فانكسر عسكر تيمورلنك
وكان ذلك من الوقائع الاولى بين تيمورلنك وعسكر الشام ، ولو كان في الدولة اذ ذاك
رجال عقلاء لعموا شملها حتى تقوى على عدوها الزاحف عليها ولكن شغلت البلاد بنفسها .
ومن الاحداث في هذه السنة منازلة الفرنج طرابلس الشام فواقعهم المسلمون فكسروهم
واخذوا منهم ثلاثة مراكب .

خامر يلبغا الناصري نائب حلب (٧٩١) وخرج عن
الطاعة وقتل الامير سودون المظفري الذي كان نائب
حلب قبله وقتل اربعة أنفس من مماليك سودون ، وامسك حاجب الحجاب بحجاب
وجاعة من امرائها ، وأظفر يلبغا الناصري العصيان والنف عليه جاعة كثيرة من
مماليك الاشرف شعبان ، وكان من جملة من النف على يلبغا قمر بغا الافضلي المدعو
منطاش مملوك الظاهر برفوق ، وعهد سلطان مصر الى اينال اتابك العساكر بدمشق
ليكون نائب حلب وحلف السلطان الامراء من الاكابر والاصاغر بان يكونوا معه
كلية واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصري فحلفوا على ذلك جميعهم ، وأرسل الى
يلبغا تجريدة . وانتشب القتال بين امراء الغرب التنوخية وبين عشرين البر أهل
كسروان والامراء اولاد الاعمى وكان التنوخية مبالغين الى الملك الظاهر وكانت
الكساروة مع أرغون نائب منطاش شيخ بيروت فاستظفروا أهل كسروان على امراء
الغرب وقتلوا منهم نحو ٩٠ نفرأ وأمسكوا جماعة فسمروا بعضهم ووسطوا آخريين

وأحرقوا عدة قري من الغرب وتلقبوا بعشران البر ، ثم انت العساكر الظاهرية زحفت على تركان كسروان وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل فقتلوا منهم جماعة كثيرة .

ولما استولى كمشبغا على قلعة حلب عمر أسواق هذه المدينة أحسن عمارة في أسرع وقت وكانت من وقعة غازان خراباً ، فلما انتصر كمشبغا على اعدائه قتل غالب اهل محلة بانقوسا وكانوا زيادة على اربعة آلاف نفس وقتل كبيرهم احمد بن الحرامي وخربها الى ان جعلها دكاً .

عوامل الخراب / ذكر الاسدي ان السبب في خراب الشام في القرن الثامن انتشار قيس ويمين / الشرور بين القيس واليمن ووقوع الحرب والقتال بينهم ، والسبب في ذلك تغيير العوائد والتدليس على الملوك والحكام وولاة الامور بالاغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل ، والعسف في الحكم والميل مع القوي ، وانهاك الضعيف وعدم رد لفظة الملهوف ، ومع تغيير العوائد وقع الاغراء فيما بينهم والشرور والتحاسد فاضطر كثير من اهل الزرع والضرع الى التردد والعصيان والتشرد عن الاوطان وتسلمت العربان والعشيران^(١) على الاراضي والبلدان ، وتراكت الأهواء ووقع التماسد والاغراء الموجهان لسفك الدماء ، فنهبت الاموال وقتلت الرجال وتخلت العشائر وعظمت الفتن بين القبائل ، وصار اهل الزرع والضرع من الفلاحين على صهوات الخيول مارقين ، الى ان اوجب ذلك الخراب في كثير من رستاق الشام والقرى والبلدان ، وصارت دماً ليس فيها انسان ، وفي ذلك ما يشهد به الديوان من اسماء القرى التي صارت مزارع وتسمى بالخراب الباثري في هذا الزمان ، والموجب لهذا جميعه سوء التدبير مع نقص القوة والامكان ، ونقض سنة العدل وسوء التصريف والاخذ في جانب النقصير والنقصان الى ان صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشيران وصار الاعيان منهم يطهرون

(١) العشيران جمع عشير أطلق في الشام على بعض القبائل التي سكنت في البقاع وجبل لبنان . قال المقرئ : عشير الشام فرقتان قيس ويمين لا ينفقان قط وفي كل مدة يشور بعضهم على بعض .

الطاعة للسلطان و يبطنون المخالفة والعصيان ، ويستخرجون الاموال بالظلم والطغيان ، و يرضون ببعضها من له في الدولة كلام وامكان ، وبما يحملونه من الهدايا والاموال يرشون به الاعوان ، فيسعى لهم ويلبسون التشاريف الملوكية بين يدي الملك والامير والسلطان ، فيتصير كل واحد منهم في بلده وإقليمه اذا عاد اليه ذاقوة وسلطان ، وسطوة وأعوان ، وخيول وميدان ، واقطاعات ونعم وديوان .

فلما وهذا الاختلاف الدائم بين قيس وبين كان يقوى ويضعف بحسب الوازع ، فاذا وفقت البلاد الى حاكم يقول ما كان يقول ويعمل به السندي والي دمشق في القرن الثالث وهو يسوي بين القوطاني والعدناني : « لسنا تقدمكم الا على الطاعة لله عز وجل والخلفاء ، وكلكم اخوة وليس للزاري شيء ليس لليمني مثله » وكان يتغدى مع جلة الفريقين ويسوي بينهم في الاذن والمجالس . فاذا كان الحاكم من هذا الطراز تسكن نعمة القيسي واليمني والا فينتقلون ويخربون العمران ويقتلون الانساب . وكانت هذه النعمة شديدة في بلاد دون أخرى من ارض الشام ، فقد كانت في القديم في حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا : « اذل من قيسي بحمص » وذلك ان حمص كلها لليمني ليس بها من قيس الا بيت واحد . ثم كانت ترى آثارها في حوران ولبنان وربما انتقلت نعمتها من حوران منذ عهد جلاء كثير من الأسر المسيحية الى جبل لبنان وبقيت في هذا الجبل الى القرن الماضي ثم اضمحلت .

وفي هذه الاثناء ركب عسكر طرابلس على النساب وقتلوا من امراء طرابلس جماعة وركب مماليك نائب حماة سودون العثماني مع عسكر حماة وأرادوا قتله فهرب الى دمشق ، ف وقعت النلنة في سائر بلاد الشام . ولما تحقق يرفوق ان البلاد قد اقلنت خاف على نفسه وامر نائب القلعة بمصر بان يفتق على الخليفة ويمنعه من الاجتماع بالناس ، وكان مسجوناً بالقيد في برج بالقلعة ، وأصدر امره بالتفتيق على السادة اولاد السلاطين في دير الحرم ، ووصلت التجريدة من مصر الى دمشق وانتهى عسكر مصر مع عسكر بابغا الناصري فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وانتصر عليهم بلبغا ، ثم جيش بلبغا وساق جيشه الى مصر فالتف اكثر امراء مصر عليه

وقاتل قليلاً حتى اضطر السلطان برقوق الى ترك سرير السلطنة وأعيد الملك الصالح امير حاج بن الملك الاشرف شعبان ساطناً على مصر والشام ، وأخذ الظاهر برقوق الى قلعة الكرك فجن فيها واندبوا بعد حين لقتله رجلاً فقتله الرجل الذي بخدمة الملك الظاهر ، وأراد اقارب الرجل الذي بخدمة الملك قتل نائب الكرك فاستجار بالملك الظاهر فأجاره واستولى برقوق على القلعة بعد ان قامى من الحزن والاهوال امرأ عظيمًا واتله مماليكه الذين كانوا بقوص من ارض مصر وقتلوا واليها والتحقوا به واللف عليه العربان وقصد دمشق فجاءه نائب غزة في خمسة آلاف مقاتل من غريان جبل نابلس فأوقعوا مع الظاهر برقوق وقعة عظيمة انكسر فيها نائب غزة فنهب عسكر برقوق عسكر غزة فلققوا بتلك الغنيمة ، وكان الظاهر كلامر بقرية يخرج اليه اهلها ويلاقونه ومعهم العلف والضيافة ، ولما بلغ برقوق قرية شحوب خرج اليه عسكر دمشق وأوقعوا معه هنسك واقعة عظيمة فقتل بها من امراء دمشق ستة عشر اميراً ومن المماليك نحو خمسين غملاً وكان قتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

وصادف ان خرج عن الطاعة كمشبع الحموي نائب حلب واستولى ابناء اليوسفي على قلعة صفد وهو من جماعة الظاهر فتويت شوكته ودخل الظاهر برقوق دمشق ، ونزل في الميدان فكبس عليه اهل دمشق واخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد ، لان بعض مماليكه عبت ببعض السوقه واخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوقى فحضر اليه جماعة من اهل دمشق وتعصبوا له فاستطال ذلك المملوك وضر بهم فرجه اهل دمشق ، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليع ، فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق ومن معه من الامراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا فدخل العوام الى الميدان ونهبوا برك الظاهر برقوق وأغلقت ابواب دمشق وكان برقوق اشرف على اخذ قلعة دمشق وراج امره فتمطل بسبب ذلك .

ثم جرد الملك المنصور امير حاج عسكراً من مصر وجاء الشام لينزع الملك من الملك برقوق ، فلما وصل العسكر الى غزة تسحب اكثر عسكر الملك المنصور الى الملك برقوق لان دواهم كان معه ، ووقعت بين عسكر الملك المنصور وعسكر الظاهر برقوق

على شقحب (٧٩٢). فانكسر الظاهر برقوق، كسرة قوية فهرب برقوق في نفر قليل من
العسكر ونوارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة، فأتى اليه
بعض العرب واخبروه بان الملك المنصور تحت ذلك الجبل، وكان على يوم من دمشق
فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر وكانوا نحو اربعين انساناً فخذع عسكر المنصور
وغلقت ايديهم عن القتال، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالبار على الطائر واحتوى على
كل ما معهم من البرك والاثقال والقماش والسلاح وخزائن المال، فلما جرس ذلك
تسامع به الناس فجاؤا اليه افواجا من كل مكان، وبلغ ذلك منطاش وحضر معه
عساكر دمشق وغيرهم فحصل بينهم واقعة اعظم من الواقعة الاولى وقتل بها كثير من
الخلائق فانكسر الاتاكي منطاش وعسكر دمشق فولوا هاربين الى نحو دمشق فواقام الظاهر
برقوق بمنزلة شقحب، ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين
الملك الظاهر برقوق وبين الملك المنصور امير حاج في ان يخلع نفسه ويسلم الامر الى
الملك الظاهر برقوق، فاجاب الملك المنصور الى ذلك واحضر الخليفة المتوكل والقضاة
الاربعة وخلع نفسه من الملك واشهدوا عليه بذلك. ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا
الملك الظاهر برقوق بالسلطنة وذلك بمنزلة شقحب واقام الظاهر هناك تسعة ايام،
ثم رحل الى مصر ومعه الخليفة والملك المنصور والقضاة الاربعة ودخل مصر بلا منازع،
وكان مما ليكه قد وطدوا له الامر قبل وصوله وخطبوا له على المنابر فساد واستولى
على مصر والشام.

الخوارج على / وملك منطاش (٧٩٢) مدينة بعلبك والتف عليه جماعة من
ملوك مصر / عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ومن
عربان جبل نابلس ونهب عدة ضياع من الشام، وارسل منطاش شخصا يسمى تمان تمر
الاشرفي الى مدينة حلب، وكان نائب حلب كمشبعنا الجموي قد ثقل امره على اهل
حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب اشد الحاصرة وتعصبوا لمنطاش
فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع، فصار كمشبعنا نائب حلب بقواتهم من داخل النقب
على البرج، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة اشهر، فانهصر كمشبعنا نائب حلب على

ثمان تمر الاشرفي الذي ولاء منطاش على حلب فانكسر ثمان تمر وولى هارباً ثم توجه منطاش الى طرابلس فحاصرها حتى ملكها وهرب من كان فيها من الامراء والنائب وهرب اكثر اهلها الى دمشق ، ثم حاصر منطاش دمشق فالتقى عوامها على ان يسلموه المدينة ليلاً وكانوا يجبنونه اكثر من الملك الظاهر برفوق .

فلما بلغ ذلك الامراء الذين من قبل الظاهر برفوق خرجوا الى ظاهر دمشق ووقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو الف انسان . ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة ثم توجه منطاش الى عينساب فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ، فحاصروا المدينة اشداً ما يكون من المحاصرة فملكها ، وهرب النائب الذي كان فيها فلما دخل الليل جمع نائب عينساب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش فقتل من عسكره نحو مائتي انسان وهرب منطاش نحو الفرات ، ثم ان منطاش جمع قوته وخاض على السلطان اكثر التركمان والعربان والمغول على منطاش (٧٩٣) فتوجه الى دمشق وحاصرها فخرج اليه نائبها فهرب منطاش الى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد فيها احداً من الامراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باباً فدخل منه الى المدينة ونهب الاسواق واخذ اموال التجار والخيول ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته .

بلغ السلطان في مصر ما وقع في الشام فقوي عزمه على الخروج الى منطاش ، فجاء دمشق ونادى فيها بالامان لان اهل دمشق لما خرج الظاهر برفوق من الكرك ودخل الى دمشق رجوه واخرجوه من بلادهم هائماً على وجهه ونهبوا اثقاله وقماشه ، فضج اهل دمشق له بالدعاء وسكن ما كان عندهم من الاضطراب ، وافانم اياماً في دمشق . ولما توجه الى حلب جاء نعيم بن جبار امير آل فضلى ونهب خياع دمشق وكان نعيم عاصياً على السلطان وهو ملتف على منطاش واخرب غالب بلاد الشام ونهب ضياعها فلما بلغ نائب دمشق محيى نعيم خرج اليه ووقع معه واقعة قوية في قرية انكسوة فانكسر نائب دمشق وقتل عسكر دمشق جماعة ثم رجع نعيم الى بلاده . فلما بلغه محيى السلطان من مصر هرب الى بلاد التركمان .

ولما عاد سلطان مصر الى عاصمته هجم (٧٩٤) نحو خمسة عشر مملوكاً وقيل خمسة
انفس على نائب قلعة دمشق وتوجهوا نحو السجن الذي بها واخرجوا من كان به من المحاييس
الذين من عصابة منطاش وكانوا نحو مئة مملوك ، فقويت شوكتهم بانسجاء وهجوموا على
نائب القلعة وقتلوه وملكوا القلعة ، فقاتلهم عسكر دمشق وحاصروا من بالقلعة ثلاثة
ايام فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم عسكر دمشق على باب القلعة واحرقوه ودخلوا
الى القلعة وقبضوا على المالك كاهنهم ووسطوهم اي قطعوهم نصفين تحت باب القلعة
وامسكوا الشائرين فلم يبقوا منهم الا من هرب .

وعاد منطاش (٧٩٤) فحاصر حلب مع جماعة التركمان فخرج اليه عسكر حلب
وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هارباً الى الفرات ، ثم ان منطاش ونعير بن جبار
امير العربات انفقا (٧٩٥) بن معهما من العسكر وحاصرا حماة فخرج اليهم نائبها
فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماة وهرب ، فدخل منطاش ونعير الى
المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا اموال التجار ، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو
وعساكر حلب وكبس على بلاد نعير ونهب امواله وأخذ اولاده ونساءه وأحرق بيوتهم
وقتل من عربانهم كثيراً فأرسل نعير يطلب من نائب حلب اولاده ونساءه الذين
أسبرهم فأرسل نائب حلب يقول له : ما أطلق لك اولادك ونساءك حتى تسلمنا
منطاش . وكان منطاش قد تزوج من بنات نعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير
ان السلطان ونائب حلب عليه وقد نهبوا امواله ومواسيه وأسروا اولاده ونساءه ، قصد
ان يرضي السلطان بإيصال منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه في حق السلطان ،
فندب نعير الى منطاش اربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع في أيديهم أخرج من تكته خنجراً
شق به بطنه فغشي عليه فحمله العبيد واتوا به الى نعير فقيده وأرسله الى نائب حلب ثم
حمل الى القاهرة ، وجعل الموكل بحمله يعاقبه ويعصره ويقرر على الاموال التي غصبها
من البلاد فلم يقرب بشيء ، ودخل عليه النزع فقطع رأسه ووضع في علبة وحمله الى السلطان
في مصر ثم أرسل السلطان الى نعير خنعة وأقره على عادته امير آل فضل .

قال ابن اياس : وعند اخذنا هذه الحوادث فما صدق الناس بان فتنه منطاش
قد خمدت عنهم حتي استؤنفت لهم فتنه أخرى ، فوردت الاخبار بان تيمورلنك اخذ

تبريز وشيراز وركب الظاهر برقوق الى الشام وجاءه فيه نجل فاصد من عند ابن عثمان ومعه مطالعات مضمونها ان يكون هو والظاهر يداً واحدة على دفع تيمورلنك فأجابه الظاهر الى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره ، ثم حضر اليه فاصد فلقميش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه الظاهر كما أجاب ابن عثمان . فلما اقام الظاهر بحلب بلغه ان جاليس (اعلام) عسكر تيمورلنك قد وصل الى البصرة . ثم بلغه ان تيمورلنك رجع الى بلاده فلما تحقق ذلك نادى هو الى مصر . وفي سنة ٧٩٩ اخذ عسكر تيمورلنك مدينة ارزنجان وقتل اهلها ونهب ما فيها فلما سمع سلطان مصر والشام ذلك ارسل الى نوابه في الشام ان يتوجهوا الى شاطيء الفرات ويحصنوا البلاد فخرجوا كلهم واقاموا هنالك ، وكانت ارزنجان من جملة البلاد التي خطب فيها لصاحب مصر والشام الملك الظاهر برقوق كما خطب له في تبريز والموصل وماردين وسنجار ودوركي ، وضربت السكة باسمه في هذه الاماكن .

وفي سنة ٨٠١ تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان ووصلت طلائعه الى الابليستين وهو قاصد حلب فوقع الاتفاق في مصر على محاربتهم والخروج عليه ، وان يؤخذ من اجرة الاملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو ، ثم ظهر ان ابن عثمان وصل الى ملطية وبمكها ولم يشوش على احد من اهلها وامر عسكره بان لا ينهبوا لاحد من الرعية شيئاً ، فأقام بملطية اياماً ثم رجع الى بلاده فبطل امر التجريدة عليه .

وفي سنة ٨٠١ توفي الظاهر برقوق وتولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج . وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام	وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
كثير طمع القريب والبعيد في اكتساح البلاد . وكان من ذلك الحظ الاكبر تيمورلنك حتى انه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح واعطى من بشره بذلك خمسة عشر الف دينار ، وتهيأ للمسير الى الشام فجاء الى بغداد واخذها ثانية .	

وفي سنة ٨٠٢ خامر نائب الشام واطير العصيان واطلق من كانت مسجوناً من
الامراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب وكان اسمه نثم عسكرياً عظيماً من الشام وقصد
نحو الديار المصرية ووصل ارائل عسكريه غزوة ، فجيش السلطان الملك الناصر فرج
وسار الى الشام ، فلما وصل كان اقبحا اللكاش نائب غزوة خرج هو ونائب حماة ونائب
صفد الى قتال الملك فدهش النواب ، فكان اول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم
نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان . وكان
مع نثم نائب الشام نواب طرابلس وحب وحماء وصفد وكثير من العربان وظن
نفسه انه اصبح سلطاناً — خامر الجميع على نثم نائب الشام وتوجهوا اليه في غزوة فملك
السلطان غزوة وبلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو وبقية الامراء واتوا الى مدينة
الرملة فصار السلطان في غزوة وهم في الرملة ، فراسلهم السلطان في الصلح فابوا . فتلاقى
العسكران (على مكان يسمى الحبطين) فكان بينهم هناك وقعة عظيمة ففوقعت الكسرة
على نثم نائب الشام وامسك واحتاطوا على بركه ودوابه ، وقبض الملك الناصر فرج
على جملة من الامراء الذين خامروا عليه وقيدهم وحبسهم في قلعة دمشق . ودخلها في
موكب عظيم وقدامه نثم نائب دمشق . وهو مقيد راجكب على كدش ابلق ومعه
عشرة من امراء دمشق وهم في قيود فحبسهم في القلعة ، ثم قتل وخنق عدة امراء منهم
وذكر ابن حجر هذه الحوادث بما نصه : وفيه (٨٠٢) توجه اقبحا اللكاش ومعه جماعة
الى غزوة من جهة نائب الشام فملكها في ربيع الاول ، وتوجه حلتان ومعه جماعة الى
حلب فحاربوا صاحبها ثم تبعهم الامير نثم بن تآخر معه ، فلما وصل الى حمص تسلمها
وتسلم القلعة ولم يشوش على النائب بل قرر غيره في النيابة ، ثم وصل الى حماة
فحاصرها فانصل به وصول التمش ومن معه فرجع منها الى دمشق ، ووصل اليه نائب
طرابلس فبلغه بعد ان خرج من طرابلس ان اهلها وثبوا على نائبه واقفلوا ابواب
البلد الجدد فرجع عليهم ودخلها عنوة وقتل من اهلها مقتلة عظيمة ، حتى قيل ان
اقل من قتل منهم الف نفس منهم مفتي البلد وقاضياها ومحدثها وهرب اكثر اهلها
ومن تأخر اما قتل واما صودر قال : واراد يونس الرماح نائب طرابلس احراق البلد
فاشتريت منه بثلاثمائة وخمسين الف درهم جبيت ممن بقي بها من اهلها .

الحرب الأولى . وفي هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمورلنك - في وقعة مع تيمورلنك . مع صاحب بغداد القان احمد بن اويس وقرا يوسف امير التتر كان ، فلما انكسر النصار اتوا الى ملطية وكانوا نحو سبعة آلاف انسان فأرسلوا الى نائب حلب يقولون له عين : لنا مكانا ننزله ، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو و نائب حماة فتوجهوا الى عسكر تيمورلنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، وكانت هذه اول الفتن الكبرى بين عسكر مصر والشام وبين تيمورلنك في هذه الديار ، فأمر السلطان نواب دمشق وصفد وطرابلس بان يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها ، فأرسل تيمورلنك الى دمرداش نائب حلب بغده بان يبقيه على نيابته بشرط ان يسلك سويديون نائب الشام ، فأطلع دمرداش على ذلك سودون فوثب على الرسول فضرب عنقه فلما بلغ ذلك تيمورلنك نازل حلب . تيمورلنك تظاھر البشر ا كسة بالقوة أمامه يعرف ما نندمج عليه فيموسهم وتصل اليه قرايهم ، واذا انكسر له فيلق صغير لم يكن الا على تأتم المعرفة بملكه من يزيد فتح بلادهم ، وكان له « جوابيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها ، فكانوا ينهون اليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه بجميع ما يروم ، فلا يتوجه الى جهة الا وهو على بصيرة من امرها ، وبلغ من دهائه انه كان اذا أراد قصد جهة جمع اكابر الدولة وتشاوروا الى ان يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني الى الجهة الفلانية ، فيكاتب جوابيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة جذرها ويأمن غيرها ، فاذا ضربوا النفير واجتمعوا سائر بين ذات الشمال عزج بهم ذات اليمين ، فالى ان يصل الخبر الثاني يكون دم هو الجهة التي يريد واهلها غافلون » .

وذكر ابن حجر انه كان ابتداء حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية في سنة اثنتين وثمانمائة . وأصل ذلك ان احمد بن اويس صاحب بغداد ساءت سيرته وقتل جماعة من الامراء وعسف على الباقين ، فوثب عليه الباقون فأخرجوه منها ، وكانوا نائب تيمورلنك بشيراز الب بتسلها فتسلها ، وهرب احمد الى قرا يوسف التتر كان في الموصل فسار معه الى بغداد فالتقى به اهل بغداد فكسروه ، واستمر هو وقرا يوسف من زمين الى قوب حلب ، وقيل بل غلب على بغداد وجلس على تخت الملك ، ثم صار

صحبة قرا يوسف فوصلا جميعاً الى أطراف حلب وسألا انت بطالع
السلطان بامر هوام فكاتب أحمد بن اويس يستأذن في زيارته . مضراً فأجبت به فويش
الامر الى النائب فخشي دمرداش نائب حلب ان يقصد هو وقرا يوسف حلب فسار
دمرداش نائب حلب ومعه طائفة قليلة منهم نائب جماعة ايكبس احمد بن اويس
بزعمه ، فكانت الغلبة لاحد فانكسر دمرداش وقتل من عسكره جماعة ، بورجع
منهم ما وأمر نائب جماعة ثم فدي به ستة الف درهم ، ثم جمع نعيم والنائب بهشتي
جماعة والنقوا مع احمد بن اويس فكسروه واستلبوا منه سيفاً يقال له سيف الخلافة
وصحفاً واثناً ، كثيرة . فوصلت الاخبار بذلك الى القاهرة فسكن الحال بعد ان كان
امر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمرداش وأرسل يريدياً الى الشام
بالنهيض الى جهة حلب .

تيورلنك على ابواب / وصل تيورلنك بعد فتح عينتاب الى الباب و براعة
حلب . / بالقرب من حلب وأرسل الى نائب حلب فاصد مجموعته
المكاتبات من تيورلنك فيها عبارة خشفة لنائب حلب . وذكر ابن حجر انت كتاب
تيورلنك الى نائب حلب يقول فيه : انا وصلنا في العام الماضي الى البلاد الخليفة
لاخذ القصاص بحق قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعني الطاهر ، وبلغنا امر الملك
وما هم عليه من الفساد فتوجهنا اليهم فاخبرنا الله تعالى بهم ، ثم رجعنا الى الكرج
فاخبرنا الله بهم ، ثم بلغنا قلة ادب هذا الصبي ابن عثمان فاردنا عرك اذنه فشدنا
بسيواس وبغيرها من بلادهم ما بلغهم ، ونحن نرسل الكتب الى مصر فلا يعود جوابها
فتعلمهم ان يرسلوا قريتنا اطمش وأن لم يتعاونوا فدماء المسلمين في اعتناقهم والسلام
حق نائب حلب وامر بضرب اعتساق قضائهم تيورلنك ، فاضطربت عنده ذلك
احوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين ، وقد ارتكب نائب
حلب خطأ فاحشاً بقتل الرسول والرسول لا تقتل في العادة ، ظاناً وجماعته من
الخليبيين ان لهم قوة تقاوم قوة تيورلنك . قال بعض المؤرخين : لما كان اهل حلب
وصاحبها ينشاورون في دفع عادية تيور عنهم قال نائب طرابلس في جملة قوله : اننا

نظم الى الآفاق اجنحة البطائق الى الاعراب والاكراد والتمراكة فيتسلطون عليه
من الجواب . وفي ذلك دليل آخر على جهل امراء الشام بقوة تيمورلنك وعجزهم عن
كشف اخبار جيوشه وتقدير مبلغ قوته . وذكر بعض المؤرخين ان عسكر تيمورلنك
كان لما أسر سلطان المماليك اربعمائة الف فارس وستمائة الف راجل . وذكر ابن حجر عن
ابن الشحنة عن الخوارزمي ان ديوان الملك اشتمل على ثمان مائة الف مقاتل ، وعلى كل
فصكره كان بضع مئات الالوف .

لما بلغ تيمورلنك ما فعل الخلبون بقصاده زحف الى قرية حيلان واحاط بمدينة
حلب ونهب ما حولها من الضياع ، فخرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم ، وخرج
للتصال تيمورلنك من أهل حلب حتى النساء والصبيان ، ووقعوا مع تيمورلنك فكان
بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقد دهمتهم عساكر تيمورلنك كأموال البحر
المتلاطمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مديري الى المدينة ، وقد
دأست حوافر الخيل أجساد العامة ، وكان اختفى بالزارات والمساجد الجم الغفير من
النساء والاطفال ، فدخل النار اليهم وأسروهم وقرنوه بالحبال وأسرفوا في قتل
النساء والرجال ، وصارت الابكار تفتض في المساجد وآبائهن يشاهدونهن ، ولم
يرعوا حرمة الجوامع وأصبحت كالحجزة من القتل واستمر ذلك بتزايد أربعة ايام .
وفي كنفوز الذهب ان جيش تيمورلنك لما دخل الى حلب نهب وأحرق وسبي
وقتل وصاروا يأخذون المرأة وبعباء ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها ويضربون
بها ما لا يليق ذكره ، فلجأ النساء عند ذلك الى جامعها ظناً منهن ان هذا يقين من
أيدي الكفرة وصارت المرأة تغطي وجهها بطين او بشيء حتى لا ترى بشرتها من
حسنها ، فيأثم الله اليها ويفسل وجهها ويجمعها في الجامع . قال : وحكى بعض
من حضر الوقائع بان تيمور عرض الاسرى من بلاد الشام ونواحيها فكانوا ثلاثمائة
الف اسير وستين الف اسير .

رأى دمر داش نائب حلب عين القلب فنزل من القلعة هو وبقية النواب ،
واخذوا في رغبهم مناديل وتوجهوا الى تيمورلنك يطلبون منه الامان ، فلما مثلوا بين
يديه خلع عليهم أقبية مخمل احمر والبسهم تيجاناً مذهبة ، وقال لهم : انتم صرتم نوابي ،

ثم ارسل معهم جماعة من امرائه يتسلطون القلعة ، وكان فيها من الاموال والمخازن والحلي والسلاح ما تعجب الملك من كثرتة ، حتى اخبر بعض اخصائه انه قال : ما كنت اظن ان في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ، فاستزلوا من كان بها وهم في قيود وغدر بهم بعد ان امنهم ، واخذ جميع ما كان فيها من الاموال والمتاع ثم خرب القلعة واحرق المدينة . واستمر مقيماً على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الاشجار التي بها ويهدمون البيوت ، وقد اسرفوا في القتل ونهب الاموال ، وصارت الارجل لا تخطى الا على جثة انسان لكثرة القتلى ، حتى قيل انه بنى من رؤوس القتلى عشرة آذان ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعاً ، وضوعدها في الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح وتركوا اجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش . فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من اهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين الف انسان ، عدا من هلك من الناس تحت ارجل الخيول عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة وهلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك — هذا ما قاله ابن تغري بردي وابن حجر وابن اياس وعنه تلخص . وقال ابن حجر : ان اعظم الاسباب في خذلان العسكر الاسلامي ما كان دمرداش نائب حلب اعتمده من القاء الفتنة بين التركمان والعرب حتى اعانه بعض التركمان على اموال نعيم فتهبها فغضب نعيم من ذلك وسار قبل حضور تيورلنك فلم يحضر الواقعة احد من العرب . وقال بعضهم : ان دمرداش كان باطن تيورلنك لكثرة ما كان تيورلنك خدعه ومناه .

* * *

<p>تيورلنك على حماة وسلمية وحمص جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين . وذكروا ان ابن رمضان امير التركمان جمع عساكره وجاء حلب بعد رحيل تيورلنك وطرد من بها من عساكر تيورلنك النازلين بحلب . وفعل تيورلنك باهل حماة كما فعل باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها ، ولم تطل</p>	<p>ووصل تيورلنك الى حماة وسلمية فأرسل جماعة من عساكره الى نحو طرابلس فتأهوا عن الطريق فدخلوا في وادي بين</p>
--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	--------------------------------------------------------------------------------------------------------------

يده الى حمص فوهيها كما قال خالد بن الوليد . قال ابن حجر : وذكر بعض من
يوثق به انه قرأ في الحائط القبلي بالجامع الأموي النوري بحجة منقوشاً على رخامة
بالفارسي ما نعه : ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انهي استخلاصنا الى
بغداد ، فجاوزنا سلطان مصر والشام فراسناهم لنتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا ، فظفرت
طائفة من التركمان بجماعة من اصلنا فسيجئوهم ، فتوجهنا لاستخلاص قريبتنا من ايدي
مخالفينا وانفق في ذلك نزولنا بحجة في العشرين من شهر ربيع الآخرة .

تيمورلنك على . (وجاء تيمورلنك دمشق فنزل عند سفح جبل الثلج (الشيخ)
دمشق (اي في غربي دمشق في قطنا واقليم البلان الى ميسنوت
وقوي عزمه على فتحها لما بلغه ان الملك فر منها الى مصر فأرسل تيمور الى نائب
دمشق رسولاً من قبله فقتله قبل ان يستمع كلامه . جرى في ذلك على ماجرى عليه
نائب حلب فزاد تيمورلنك حنقاً .

ومن الغريب ان نائي حلب ودمشق لم يقدر ا قوة تيمورلنك حق قدرها وهي
منها على قيد غلوة وظنا باعتصامهما في قلعتي المدينة و بالتقليل ممن عندهما من العسكر
واحداث البلدين يستطيعان ان يتغلبا على جيوش تيمورلنك المؤلفة كما قال عرشاه :
من رجال توران ، وابطال ايران ، ونمور تركستان ، وفهود بلخشان ، وصقور الهند
والخطا ، ونسور المغول و كواسر اجتا ، وافاعي نخند ، وثمايين ابدكارت ، وهوام
خوارزم ، وجوارح جرجان ، وعقبان صغانيان ، وضواري حصار شادمان ، وفوارس
فارس واسود خراسان ، وضباع الجبل وليوث مازندران ، وسباع الجبال وتماسيح
رستمدار وطالقان ، واهل قبائل خوز وكرمان ، وطأس ارباب طيالس اصبهان ،
وذئاب الري وغزني وهمدان ، وافيال الهند والسند وملتان ، وكباش ولايات
المور وتيران شواهي الغور وعقارب شهرزور ، وحشرات عسكر مكرم وجندي سابور .

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحداً
مع ما اضيف اليهم من اعيار الخدم ، وفواعل التراكمة والاباش والحشم ،

وكلاب النهاب من رعا ع العرب وهمج العجم ، وحثانة عباد الاوثان ، وانجاس مجوس الامم ، ما لا يكثفه ديوان ، ولا يحيط به دفتر حسابان اه .

غلطة ارتكبها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه ومن معه من المتعصبة والمتلصصة وارباب الدعارة من الشطار والاحداث الاغيار ، قضت على اعظم مدينة في الارض كانت في غابر الايام . وذكر ابن اياس : انه كان بين اهل دمشق وبين عسكر تيمورلنك في اول يوم واقعة عظيمة فقتل من عسكر تيمورلنك نحو النفي انسان ، فارسل تيمورلنك يطلب من اعيان دمشق رجلاً من عقلائهم ، يمشي بينه وبين اهل دمشق في الصلح فلما اتى قاصد تيمورلنك بهذه الرسالة اشتور اهل دمشق فيمن يرسلونه الى تيمورلنك فوقع الاختيار ان يرسلوا اليه القاضي نقي الدين بن مفلح الحنبلي فانه كان انساناً طلق اللسان يعرف بالتركي وباللسان العجمي فأرخواه من اعلا السور بسر ياق ضخم ومعه خمسة انفس من اعيان دمشق ، فغاب عند تيمورلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بان تيمورلنك تلطف معه في القول ، وقال له : هذه بلد فيها الانبياء وقد اعتنقها لهم . وشرح من محاسن تيمورلنك شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل اهل الشام عن قتاله ويرغبهم في طاعته ، فصار اهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربتة وكان اكثر اهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ثم غلب رأيه ورأي اصحابه ، فقصد ان يفتح باب النصر فنعمد من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : ان فعلتم ذلك احرقتم البلدة جميعها ، ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً قال : ثم قبض تيمورلنك على ابن مفلح واصحابه واودعهم في الحديد وآجر الطب الكي .

وصف افعال تيمورلنك } وذكر ابن تغري بردي انه لما قدم الخبر على اهل
في دمشق } دمشق بأخذ حلب نوذي في الناس بالرحيل من
ظاھرھا الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا في ذلك فقدم عليهم المنهزمون
من حماة فعظم خوف اهلها ، وهموا بالجللاء فمنعوا من ذلك ، ونودي من سافر نهب
فعاد اليها من كان خرج منها ، وحصنت دمشق ونصبت المناجيق على قلعة دمشق
ونصبت المكاحل على اسوار المدينة واستعدوا للقتال ثم نزل تيمور بعساكره على قطنا ،

فملاّت عساكره الارض كثرة ، وركب طائفة منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان والامراء قد تهيأوا للقتال ، وصفت العساكر السلطانية فبرز اليهم التمرية وصدموهم صدمة هائلة ، وثبت كل من العسكرين ساعة فكانت بينهم وقعة انكسرت فيها ميسرة السلطان ، وانهزم العسكر الغزاوي وغيرهم الى ناحية حوران وجرح جماعة وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة لياخذ دمشق ، فدفعته ميمنة السلطان باسنان الرماح حتى اعادوه الى موقفه ، ونزل كل من العسكرين بمعسكره وبعث تيمور الى السلطان في طلب الصلح وارسال اطمش احد اصحابه اليه وانه هو ايضا بيعت من عنده من الامراء المقبوض عليهم في واقعة حلب . ثم هرب الملك لانه بلغه انهم يسلمون غيره في مصر فاراً بجماعته .

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور ، ما عدا العساكر الذين خلفوا بدمشق من اهل دمشق ولما اصبحوا وقد فقدوا السلطان والامراء والنائب غلقوا ابواب دمشق ، وركبوا اسوار البلد ونادوا بالجهاد ، فتهيأ اهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من اعلى السور اشد قتالاً ، وردوهم عن السور والخنديق ، واسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عدة كبيرة وقتلوا منهم نحو الالف وادخلوا رؤوسهم الى المدينة ، ولما اعياى تيمور امرهم جعل يخاضعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور النطقزات اي التسعة الاصناف من الماء كحل والمشروب والمبلوس وغيره وهذه كانت عادته في كل بلد ينتقمه صلحاً . فأجابه الدمشقيون الى ما طلب باقناع ابن مغلق لم وثقرر ان يجيى تيمور من دمشق الف الف دينار ففرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة اموالهم ، فلم يرض تيمور وقال : ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب . قال ابن حجر : واستقر الصلح على الف الف دينار فتوزعت على اهل البلد ثم روجع تيمور انك فتسخطها وقال : انه انما طلب الف تومان فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، ولما اخذه ابن مغلق

وحمله الى تيمور قال هذا لابن مفلح واصحابه : هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار وظنر لي انكم عجزتم ، ثم سلمت اموال المصريين وكراعهم وسلاحهم واموال الذين فروا من دمشق ، ولما كمل ذلك الزمهم ان يخرجوا اليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها فأخرجوه كله ، فلما فرغ من ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته والزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحراراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرقه على امرائه وقسم البلد بينهم فساروا اليها بمالهم وحواشيهم ونزل كل امير في قسمة وطلب من فيه وطالبهم بالاموال فحينئذ حلّ باهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ، وجرى عليهم من انواع العذاب وهتك الاعراض شيء نقشعر منه الجلود ، واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خالق لا يعلم عددهم ، ثم امر امراءه فدخلوا دمشق ومعهم سيوف مسلوطة مشهورة وهم مشاة فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها وسبوا نساء دمشق باجمعهن ، وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ، ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع الى السحاب ، وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام ثمانين يوماً وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت ابوابه ونفطر رخامه ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت اطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق بها الا اطفال . قال ابن تغري بردي : ولقد ترك المصريون دمشق اكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا واعمرها .

قال بهاء الدين البهائي يرثي دمشق المظلومة ويصف ما حل بها من النار في سنة ثلاث وثمانمائة ويذكر حلب وحماة :

لحني على تلك البروج وحسناها	حفت بهن طوارق الحدثان
لحني على وادي دمشق ولطفه	وتبدل الغزلان بالثيران
وشكا الحريق فؤادها لما رأت	نور المنازل ابدلت بدخان

جنايتها في الماء منها اضرمت
كانت معاصم نهرها فضية
ما ذاك الا تركهم ولجت بها
كرهت جداولها حوافر خيلهم
خافت خدود الارض من افعالهم
فتساقطت هرباً كحيل رهات
فتلثمت بعوارض الريحان
والآن صرن كذائب العقيان
فتخضبت منها باحمر قات
فجبت للجنات في النيران

* * *

لوعايت عيناك جامع نكز
وتعطش المرجين من اورادها
لاتت جفونك بالدموع ملوناً
قطرات جفن. ثرجت عن حرقتي
ابني امية ابن يمين وليدكم
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا
لم يرحموا طفلاً بكى فقلوبهم
قصوا جناح النسر بعد نهوضه
الواحه اجرت دموعي اسطراً
ان انكروا يوم الحساب فعالم
لهفي على كتب العلوم ودرسها
اعروسنا لك أسوة بجمائنا
ثابت بدور الحسن عن هالاتها
ناحت نواخير الرياض لفقدهم
حزني على الشهباء قبل حمائنا
لاتدعي الاحزان يا شقراءنا
رتعت كلاب المغل في غزلانها
لهفي عليك منازلًا ومنازها
والبركتين بحسبها الفتان
وتهدم الخراب والايوان
دمعاً حكي اللولو على المرجان
فكأنهن قلائد العقيان
والمغل ثقل في ذرى الاركان
القوا عرابدهم على النسوان
في الفتك صخر لا ابو سفيان
ياليته لو فاز بالطيران
كتبت على اللوحين من اجفاني
فشهدنا عثمان ذو القرائن
صارت معانيها بغير بيان
في ذا المصاب فانثا اختان
فاستبدلت من عزها بهوان
فكأنها الافلاك في الدوران
هو اول وهي المحل الثاني
السبق للشهباء في الاحزان
وتحكمت في الحور والولدان
ومقام فردوس وباب جنان

ثم رجع ورثي دمشق فقال :

لم ادر من ابكي واندب حسرة للقصر للشرفين الميادات
للحبيبة الغراء ام خلخالها للزرة الفيضا ام اللوات

الخراب الاعظم واخلاق وعلى ما منيت به دمشق من قتل سكانها وسي
تيمور ونجاة فلسطين منه نسائها واولادها ، واحراق مصانعها وبهوتها ،
واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها من تيمورلنك مصيبة لا نقل عن تلك في ارجاعها
القهقري واضعاف مادياتها اضعافاً لا يجبر كسره في قرون واليك ما قاله ابن عربشاه
في تفصيل هذا الهول العظيم : وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو
يتطلب الافاضل وأصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضائل واستمر نهب عسكر
تيمور لدمشق ثلاثة ايام ، وارتمل وجماعته وقد أخذ من نفائس الاموال فوق طاقتهم ،
وتحملوا من ذلك ما عجزت عنه قوى استطاعتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب
والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً في أوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ،
وأصبحت القفار والبراري والجبال والصحاري من الامة والافشة كأنها سوق
الدخشة ، وكأن الارض فتحت خزائنها ، وأظهرت من المعادن والنفقات كامناتها ،
وأخذ تيمور من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع وكل ماهر سيفه فن من الننون
بارع من النساجين والخباطين والحجارين والتجارين والاقباعية والبيطرة والخيمية
والنقاشين والقواسين والبازدارية وبالجملة اهل اي فن كان ، وأخذ جملة من العلماء
وربما أخذ أناساً من الاعيان والسادة النبلاء ، وكذلك كل امير من امرائه وزعيم
من زعمائه ، اخذ من الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن والفضلاء واهل الحرف والصناعات
والعبيد والنساء والصبيان والبنات ما لا يسعه الضبط .

ونقل في الضوء اللامع ان تيمور كان يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يجب
المزاح ويحب الشطرنج وله فيها يدطولى ومهارة زائدة ، وزاد فيها جملاً وبغلاً ، وجعل
رفعته عشرة في احد عشر بحيث لم يكن بلاعبه فيه الا افراد قال : وكان ذا رأي
صائب ، ومكاند في الحروب عجيبة ، وفراسة قل ان تحطى ، عارفاً بالتواريخ لادامته

على سماعها ، لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سرفاً وحضراً ، مغرى بمن له معرفة بصناعة ما اذا كان حاذقاً فيها ، أمياً لا يحسن الكتابة ، حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة ، ويعتمد قواعد جنكيزخان ويجعلها أصلاً ، ولذلك أفنى جمع جم بكفره مع ان شعائر الاسلام في بلاده ظاهرة .

ولما رحل تيمورلنك عن دمشق ، وقد أصبحت اطلالاً لا مال ولا رجال ولا مساكن ولا حيوان ، صار من بقي فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العرباب والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس في وسطهم ، فجرى عليهم من العرباب والعشير ما لم يحجر عليهم من عسكر تيمورلنك ، فذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة ، فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثم بلغه ان تيمورلنك رحل عن دمشق وهو مريض فعذل عن حملته ، وأرسل تيمورلنك الى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قرابه الذي كان أسرى في ايام الملك الظاهر برقوق وانه اذا أطلقه يطلق ما عنده من الاسرى فأطلقه وكساه السلطان وأحسن اليه ، فلما وصلوا الى تيمورلنك اكرمهم وقبل مراسيم السلطان ونفارش وبكى واعتذر مما وقع منه وقال هذا كان مقدراً . رحل تيمورلنك عن دمشق ولم يتعدها الى فلسطين وكان علماء القدس انشدوا الشيخ محمد فولاد بن عبد الله وجهزوه بمفاتيح الصخرة الى تيمور ولما بلغهم اخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع .

وكانت اكثر المدن الصغرى في أواسط الشام قد خضعت وصافت بحكم الطبيعة ومنها طرابلس أحضر له منها مال وقد اجتاحت بعلبك ونهبها ، ولما وصل الجبول في عودته لم يدخلها وامر بتخريبها واحراقها ، وحرقت حلب مرة ثانية وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل وأسركل من وجدهم في طريقه وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق الشرف موسى الانصارى والكمال عمر بن العسديم وجماعة معها واخذ بقيتهم الى بلاده فمنهم من هرب من الطريق ومنهم من وصل الى بلاده . قفل تيمور راجعاً بعد ان أذاق الشام كأس

الذبل والحمام ، وربما اذا جمعت جملة بتجر بيانه لا يتأتى وقوع مثلها في مئات من الاعوام ، عملها بجيشه الجرار في عشرات من الايام .

قال تيمور : ان ما فعله كان مقدراً فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين ، بيد انه كان مغرياً بغزو المسلمين والنجلي عن غيرهم صنع ذلك في بلاد الروم وبلاد الهند وغيرها ، ولكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من تنافى في الوصول الى غرض ، ويستحيل بعد ان فتحت عليه الاقاليم وفتح ثلث آسيا نقر بياً بالقيصر والسيف وجعل جيشه مؤلفاً كالجيش العثماني من جميع العناصر التي كانت تحت حكمه ان لا يكون على شيء من العلم وبعد النظر . وكان يمتحب معه في رحلاته زمرة من العلماء المحققين . ومن جملة ما قرأته في هذا الباب وهو مما ينهم عن عقله وانه كان يرمي الى ان يفتح افريقية كما فتح آسيا قوله لما اجتمع بابن خلدون في هذه المدينة على ما نقل ذلك عنه تليذه ابن ازمككاني : اين بلدك فقال ابن خلدون : بالمغرب الجواني فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب فقلت : هو في عرف خطابههم معناه الداخلي اي الابد . لان المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه فالاقرب الى هنا برقة وافر يقية ، والمغرب الاوسط لسان وبلاد زناته ، والاقصى فاس ومراكش . وهو معنى الجواني فقال لي : واين مكان طنجة من ملك المغرب فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية الى الاندلس اقرب مسافته لان هناك نحو العشرين ميلاً فقال : وسجلاسة فقلت في الحد ما بين الارياف والرمال من جهة الجنوب فقال : لا يقنعني هذا وأحب ان تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها فقلت له : يحصل ذلك بسعادتك قال ابن خلدون : وكتب له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في ثلثي عشرة من الكراريس المنصفة القطع الى ان قال : وأقيمت في كسر البيت واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب ، فكسبته في ايام قليلة ودفعته اليه فأخذه من يدي ، وامر موقعه بترجمته الى اللسان المغلي . ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجياً بنفسه من تيمورلنك مخافة ان يسقط في يده أسيراً ويحمل الى بلاده ، وكان قدم له هدية

يوم اجتماعه الاول به منها علب حاوى مصرية فتحها تيمور وأطعم منها رجاله ولم يذوقها ، وأهداه سجادة صلاة فوضعها الى جانبه ، وأهداه مصحفاً شريفاً فقبله ووضعها الى جانبه . وكان تيمور يتظاهر بالتدين والتصوف ويصدر عن رأي المتصوفة لانهم اعانوه بنفوذهم في العامة على تدوين الاقطار وعقد القلوب على محبته .

ولو قدر للبلاذ ان يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ، ويخالف ابن عثمان صاحب الروم وغيره من امراء الشرق الذين فاضوا ملك مصر والشام في امر تيمورلنك قبل انهبال جمهرة جيوشه على بلادهم ، ونظموا قواهم وهم في أرضهم وديارهم ، واستعملوا اللين تارة والشدة أخرى ، ولم يفتحوا للفتح العظيم باباً من أبواب الحرج التي يحجبهم بها في عرف السياسة والفتح ، لكانت البلاد أمنت عادة تيمورلنك او لكان اكتفى بمعاهدة تضمن له بعض الغرامات فرحل عن البلاد بسلام ، لان تيمورلنك يعرف بان بلاده ومملكته أوسع مجالاً يثيسر بقاؤها لآله لقربها من مهد عصبيته ودار ملكه .

بعد انه لم يكن في مصر ولا الشام على ذلك العهد رجل سياسي بعيد النظر والغور في السياسة كالظاهر بقوق والظاهر بپرس مثلاً فكان ما كان لان البلاد أصبحت بلا راع يرعاها ، وأصبح الحكم للمالك الطبقة الثانية من عماله ، ولمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون بلادهم بجهلهم الى الخراب . والغالب ان السبب في مغادرة تيمور البلاد انتشار الجراد فيها حتى اكل الناس اولادهم فأصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم وبهذا الرأي قال ابن حجر فذكر ان رحيل تيمورلنك انما كان لضيق العيش على من معه فخشي ان يهلكوا جوعاً .

وقيل ان تيمورلنك أراد ان يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له الطرق ، فلما عادوا قصوا عليه مارأوه وهو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم : ان مصر لا تنتج من الزبل تحتاج الى اسطول لنفتح من البحر وبذلك صرف النظر عن فتحها ، وكهذا نجت مدن الجنوب في الشام من تخريبه وكذلك مصر وما اليها من بلاد افرريقية فنجت الدولة الشراكسية من عادية جيوشه .



عهد المماليك الاخير

٨٠٣ الى ٩٢٢



البلاد بعد الفتنه التيمورية } خرجت حلب وحماة ودمشق خصوصاً من بين مدن
ومخامرة العمال . } الشام بعد فتنه تيمور كالهيكل العظمي للاحم ولا دم
وأصابت بنقص في الانفس وخراب في العمران ، يبكي لما كل من عرف ما كانت عليه قبل تلك
الحقبة المشؤومة من العمران وكثرة السكان ، ولم يقيض للبلاد سلطان عاقل قوي يداوي
جراحاتها فبقيت نافرة نفارة . ولما رحل تيمورلنك عن دمشق نصب صاحب مصر
المقر السيفي تغري بردي في نيابة دمشق ورسم له ان يخرج الى الشام من يومه ليعمر
ما افسده تيمورلنك من عاصمة البلاد ، ونصب نواباً آخرين على نيابات الشام ممن كانوا
في أسر تيمورلنك فاطلقهم ، مثل نائب الكرك ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب بعلبك
ونائب صفد وغيرهم ، وامرهم ان يعمروا البلاد المخربة وهيئات ان يعمر في قرب
ما خربه تيمورلنك في ثلاثة اشهر . بيد ان الضعف المتأصل في جسم المملكة ابقى تلك
الاورام اللطيفة خبراً على ورق وطمع النواب في البلاد .

رجم اهل دمشق (٨٠٤) نائب الشام تغري بردي وارادوا قتله فهرب الى نائب
حلب فلما بلغ سلطان مصر ذلك ارسل تقليداً الى المقر السيفي اقبتنا الجمالي باب
يستقر نائب الشام . وخامراً امير غزة وخرج عن الطاعة واسمه الامير 'صريق'
الظاهري فادفع الامير جرم وعرباب نابلس مع صريق ، فانكسر صريق ، وقتل

في المعركة ، وخرج ايضاً عن الطاعة نائب طرابلس شيخ المحمودي وامسك حاجب طرابلس جماعة من امرائها سجنهم بسجن المرقب واستخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير وعمل له برك عظيم . وخرج دمر دأش نائب حلب الى الامير دقماق الحمدي الذي خلفه في نيابتها ووقع معه واقعة قوية فانكسر دمر دأش ونهب بركة وهرب الى ملطية . وفي سنة ٨٠٦ نازل الفرنج طرابلس فأقاموا عليها ثلاثة ايام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض اليهم مسرعاً فانهمزموه فأوقع بهم وكان ذلك مبدأ سعادته . ثم توجه الفرنج الى بيروت وكانوا في نحو من اربعين مركباً فواقعهم دمر دأش ومن معه من الجنود والمطوعة وقتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير ، وكان نائب الشام يبعثك فجاء الخبر فتوجه من وقته وارسل الى العسكر يستجده به ومضى على طريق صعبة الى ان وصل الى طرابلس ثم توجه من فوره الى بيروت فوجدهم قد نهبوا ما فيها وأحرقوها وكان أهلها قد هربوا الى الجبال الا المقاتلة منهم ، فوقع بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر النائب باحراق قلبي الفرنج ثم توجه الى صيدا ومعه العساكر فوصل اليها وقد أخذ الفرنج من البهار الذي للكتلان شيئاً كثيراً فوصل النائب بالعسكر فوجدهم في القتال مع أهل صيدا ولم يتقدمه احد بل كان معه عشرة انفس لحمل على الفرنج فكسروهم وفروا في مراكبهم راجعين الى ناحية بيروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض اصحاب النائب فغلبوه على الماء واخذوا حاجتهم وتوجهوا الى جهة طرابلس — نقلته من ابن حجر .

ودامت الفوضى في البلاد حتى خامر النواب الا قليلاً في الشام (٨٠٦) واصبح الناس فرقتين فرقة مع الملك الناصر وفرقة عليه الى ان خلع سنة ٨٠٨ وفي سنة ٨٠٦ اوقع نائب الشام بعرب آل فضل وكان كبيرهم علي بن فضل قد قسم بلاد الشام سنة ثلاث وثمان مائة فطمع ان يفعل ذلك هذه السنة فبلغ هذا النائب فقبض عليه ونهب بيوته وفيها وقع بين نعيم امير عرب آل فضل وبين حجا بن سالم الدوكاري المتريكاني وقعة عظيمة قتل فيها ابن سالم وانكسر عسكره وغاب نعيم وارسل برأس ابن سالم الى القاهرة . وكان عسكر حجا طاف في اعمال حلب وافسد فيها الفساد الفاحش وذلك في بلد عزاز وغيرها وكان وقع بينه وبين نعيم قتال بين جعبر

وابلستين واستمر اياماً الى ان قتل حجا . وفي هذه السنة وقع بين دمرداش والتركمان وقعة عظيمة فانكسر دمرداش . وفي ايام الملك الناصر فرج بن برقوق نصب الامير نوروز الحافظي على دمشق والامير جكم العوضي نائباً على حلب فلما توجهها الى عملها اظهر كل منها العصيان والمخامرة على السلطان فتملطن جكم العوضي بحلب وتبل الامراء الارض بين يديه وتلقب بالملك العادل ووضع يده على البلاد الحلبية وكتب الى نواب الشامات فأطاعوه الا القليل منهم واخرج اوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب وصار يحكم من الشام الى الفرات فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية وصار حكمه لا يجاوز غزة .

وفارق جكم حلب (٨٠٧) فثار بها عدة من امرائها ورفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع اليهم العسكر وتحالفوا على طاعة السلطان وقام بتدبير امور حلب الامير بونس الحافظي وامتدت أبدي عرب ابن نعيم والتركمان الى معاملة حلب فقسموها ولم يدعوا لاحد من الامراء والاجناد شيئاً . ومدح المؤرخون جكم بانه كان يتحرى العدل ويحب الانصاف ولا يتمكن احد معه من الفساد .

وفي سنة ٨٠٧ حاصر دمرداش نائب حلب انطاكية وبها فارس بن صاحب الباز التركماني فأقام مدة ولم يظفر بها بطائل وكان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده الى طرابلس فغلب عليها وطرد عنها وهو شيخ السليماني ثم توجه الى حلب فنزلها وبها دمرداش فالتقيا وجرى بينهما قتال كثير فانكسر دمرداش وخرج من حلب فركب البحر الى القاهرة وملكها جكم ثانية ثم خرج الى جهة البيرة وغزا التركمان وأسروا منهم جمعا كبيرا .

والنف الامير نوروز الحافظي على الامير شيخ الحمودي نائب طرابلس واطهرا العصيان والنف عليها جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات وليس بيد الملك الناصر سوى مصر وأعمالها . وخربت صفد واعمالها خراباً شنيعاً وذلك لان شيخ الحمودي ومن معه من النواب والتركمان حاصروها مدة لان واليها بكتمر جلق لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر .

وخرج نعيم بن مهنا الحيارى البدوي (٨٠٨) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا

العساكر وتواقعوا بالقرب من قرية عنراء خارج دمشق فانهمزمت عساكر الشام وامراء غصب بيروت واستولت العرب على دمشق وزادوا في الجور والضرب . واستولى التركمان على كثير من البلاد الشمالية وكان رأسهم اياس ووصلوا الى حماة فغلبوا عليها ثم ردوا عنها .

وفي سنة ٨٠٨ كانت الواقعة العظمى بين جكم نائب حلب والتركمان ورئيسهم فارس وبدعى اياس بن صاحب الباز صاحب انطاكية وغيرها وكان قد غلب على اكثر البلاد الشمالية ودخل حماة وملكها وكان عسكره يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجال فواقعه جكم بمن معه فكسره كسرة فاحشة وعظم قدر جكم بذلك وطار صيته ووقع رعبه في قلوب التركمان وغيرهم ، ثم انه واقع نعيم ومن معه من العرب فكسره ، ثم توجه جكم الى انطاكية وأوقع بالتركمان فسألوه الامان وان يمكنهم من الخروج الى الجبال والى مواطنهم القديمة ويسلموا اليه جميع القلاع التي بأيديهم فنقز الحمال على ذلك وأرسل الى كل قلعة واحداً من جهته ودخل الى حلب مؤيداً منصوراً ، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازي بن اوزر التركماني وكان بينهما عداوة فقتله وقتل ولده وجعله من جماعته وكان اميراً كبيراً شجاعاً بطلاً اسجد بانطاكية مدرسة بجوار تربة حبيب النجار . وكان قد استولى على معظم معامل حلب ومعاملة طرابلس فصار في حكمه انطاكية والقصير والشعر وبغراس وحارم وصهيون واللاذقية وجبله وغير ذلك ، فلما أحيط به تسلم جكم البلاد ورجعت معاملته كل بلد اليها على ما كانت اولاً .

وبرز جكم الى دمشق فالتقى مع ابن صاحب الباز وجمعهم من التركمان فكسره كسرة ثانية وضرب أعناق كثير منهم صبراً وقتل نعيماً وأرسل برأسه الى القاهرة واستعد نائب الشام لقتاله ووصل توقيع دمرداش بنياية حلب عوضاً عن جكم من القاهرة فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل اليهم المعجل بن نعيم طالباً ثار ابيه وكذلك ابن صاحب الباز طالباً ثار ابيه وأخيه ، وكان معهم من العرب والتركمان خلق كثير ،

ووصل توقيع المعجل بن نعيم بأمره ابه ووصل نائب الشام ومن معه الى حمص وتكاتبوا مع جكم في الصلح ووقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر اهل دمشق ، ووصل شيخ ودمرداش الى دمشق منهزمين ، وكانت الواقعة في الرستن ثم رحل نائب دمشق الى مصر ، ودخل جكم الى دمشق وبالغ في الزجر عن الظلم وعاقب على شرب الخمر فأفحش حتي لم يتظاهر بها احد وكانت قد فشت بين الناس .

ذكر هذا ابن حجر وقال في وفيات سنة ٨٠٨ ان فارس صاحب الباز التركماني كان ابوه من امراء التركمان فلما وقعت الفتنه اللنيكية جمع ولده هذا فاستولى على انطاكية ثم قوي امره فاستولى على القصير ثم وقع بينه وبين دمرداش في سنة ست وثمان مائة فانكسر دمرداش ثم جمع دمرداش لعياله بانطاكية فحاصره وكان جكم مع فارس ثم رجع عنه بغير طائل فاستولى فارس على البلاد الغربية كلها وعظم شأنه فبنى في انطاكية مدرسة حسنة واستولى على صهيون وغيرها من عمل طرابلس وصارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على اعمالهم ، فلما ولي جكم نيابة حلب تجرد له وواقعه فيزمه ونهب ما معه واستمر جكم وراءه الى ان حاصره بانطاكية سنة ثمان وثمان مائة ولم تزل الحروب بينهما الى ان طلب فارس الامان فأمنه ونزل اليه وسلمه لغازي بن اورت وكان عدوه فقتله وقتل معه ابنه وجماعة منهم في شوال واستنقذ جكم البلاد كلها من ايدي ابن صاحب الباز وهي انطاكية والقصير والشعر وحارم وغير ذلك وانكسرت بقتل فارس شوكة التركمان .

وفي سنة ٨٠٩ بعث شيخ الى نابلس جيشاً قبضوا على عبد الرحمن بن المهتار وأحضروه له الى صفد فقتل بجضرته وكان المذكور قد عصى بأخرة على الناصر واتفق شيخ ونوروز فأرسله الى نابلس فصادر أهلها وبالغ في ظلمهم فكانت تلك عاقبته . ووقعت وقعة بين شيخ والحمزاوي عند حلبين فقتل في المعركة أناس من الامراء وقبض على الحمزاوي . واستولى تربغا المشطوب على حلب وذلك انه لما هرب من الوقعة التي كانت بين جكم وبين قرابلك جاء مع طائفة من المغل الى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان وحاصرها فأوقع بهم وكسرهم ودخل البلد وعصت عليه

القلعة ولما بلغهم قتل جكم سلموها له فاستولى على ما بها من الخواصل وعلى ما يجلب ايضاً من الخيول والماليك المخلفة عن جكم .

ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب ودخل السلطان دمشق وبنى ما كان هدم وامر الناس بالرجوع . وفي سنة ٨٠٩ ثارت طائفة من المماليك ومعهم عامة حلب على شركس المصارع . وهكذا كثرت الفتن في الشام في العقد الاول من القرن التاسع وكما قوي امير قتل رجال الامير الذي كان قبله ، وشأن الظلم في الرعايا عجيب والمصادرات قائمة على ساق وقدم ، وبالجملة فقد كانت الدولة التي تولت امر مصر والشام على حالة سيئة وكثير من ملوكها لم يتم لهم في الملك أشير معدودة ، وناهيك بهذا التبديل قال ابن تغري بردي : وكثرت المصادرات بدمشق وغيرها في ايام هذه الفتن (٨١٠) وأخرجت الاوقاف عن اربابها وخربت بلاد كثيرة بمصر والشام لكثرة التجاريد وسرعة انقمال الامراء من إقطاع الى إقطاع .

قال ابن حجر : وفيها كملت عمارة قلعة دمشق وكانت ابتداءها في العام الماضي وصرف على عمارتها مال كثير جداً وظلم بسببه اكثر الخلق من الشاميين وغيرهم . وبسط نوره زيده في المصادرات بدمشق فبالغ في ذلك حتى ان بعض التجار كانوا يترحمون على تيمورلوك وفرض على جميع الجهات مثلها وتناول حتى الخانات والحمامات وارباب المعاش حتى الذين يبيعون الخزف تحت القلعة حتى باعة الشراطين حتى الباعة في الطبالي حتى انقطعت الاسباب وتعطلت المعاش .

ونازل التركمان حلب (٨١٠) فحصرها علي بك بن خليل بن قراجا بن دلغادر ومعه عدة من امراء التركمان وعدة من امراء العرب ونازلوا حلب اياماً وقتلهم العوام ومن بها ، وكان بها يومئذ قربغا المشطوب فدخلوا ولم يظفروا بطائل ، وكان لعلي بك ولد محبوس بقلعة حلب فصانع اهل حلب اياه بارساله مكرماً فما افاد ذلك وجد في الحصار ونازل المعجل بن نصير حماة وحاصرها ، ونهب علي بك ومن معه القرى التي حول حلب وجدوا في الحصار وبالغ اهل حلب بالذبح عن انفسهم واشتدوا للقتال وهان عليهم الامر خشية على اموالهم وحريمهم بنحيت انهم كانوا كل يوم لا يرجعون

الا وقد انكروا في التركمان نكابة كبيرة ، واوقع نوروز بالمعجل ومن معه من العرب على حماة وكسرهم فرحلوا .

وجرت في هذه السنة وقعة في وادي عقبة من كروم بعلبك بين انصار السلطان وبعض امراء المماليك الفارين من القاهرة فكاثروهم نوروز ومن معه ثلاثة وقتل منهم وحملت رؤوسهم الى مصر . وتصافى شيخ ونوروز بعد الخلاف وتوجها بعسكرهما الى بلاد ابن بشار فافسعوها نهباً وهرب ابن بشار . وقصد تمربغا المشطوب نائب حلب النزول على التركمان فيبتوه وكسروه ورجع منهزماً ، ونهب نوروز للعرب ابلاً كثيرة فكبسوا عليها واستنقذوها وحاصر شاهين دويدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق .

وقال ابن اياس : ومن الوقائع الغربية . جاءت الاخبار (٨١١) بان جاليش (اعلام) الامير شيخ الحمودي والامير نوروز قد جاء من غزة وهم في عساكر لا تحصى فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والامراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة فقوي حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرها كسرة قوية فرجعا الى الشام مبهزومين وانصر عليها الملك الناصر ولكن قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الامراء والمماليك . وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم ثنى نوروز عن نيابة الشام وأرسل السلطان نقليداً الى شيخ بنيابة الشام ونقلداً الى دمرداش بنيابة حلب ، ثم عين نوروز الى القدس بطالاً ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب وهذا من العجائب ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان فجرد اليه ورجع عن غير طائل اه .

وذكر ابن حجر ان نوروز برز الى صفد ثم انثنى الى سعسع ثم انثنى الى بكتمر جلق ومعه محمد وحسن وحسين بنو بشار فافتلوا فقتل منهم جماعة وحرقت الزروع وخربت القرى وكسرهم وأقام بالرملة ، ثم قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ الى دمشق وكان قد جمع من التركمان والعرب والترك جمعاً وسار من حلب فرجع

نوروز فسبقه الى دمشق ، فتراسل شيخ ونوروز في الكف عن القتال ولم ينظم لها
امر وصمم شيخ على اخذ دمشق وباتا على ان يياكرا القتال فأمر شيخ بوقيد النيران
في معسكره واستكثر من ذلك ، ورحل جريدة الى سمسع فنزلها ، وأصبح نوروز
فعرف برحيله وسار نوروز الى سمسع فلقى بها شيخ وهو في نفر قليل نحو الالف
فالتقيا فانكسر نوروز ، ويقال انه كان معه اربعة آلاف نفس ولم يكن مع شيخ سوى
ثلاثمائة نفس ، وركب شيخ أقيمتهم فدخل نوروز دمشق ورحل نوروز الى ماطية
وأرسل شيخ عسكرياً الى حلب لمحاصرها ثم لحق عسكري شيخ بالتركان بانطاكية
وأوقعوا بهم واستنقذوها منهم . وفيها أُلزم النائب اهل دمشق بعارة مساكنهم
والاوقاف التي داخل البلد وضرب فلوساً جديداً ثم نودي عليها كل مائة واربعين
بدرهم . وكتب الناصر الى الشام باسقاط ما على الناس من البواقي من سنة ثمان
وتسعين الى سنة ثلثي عشرة وفي السنة التالية ألزم الناس في دمشق بعارة ما خرب
من المدارس . وفيها توجه الدويدار الى البقاع للاستعداد ليردك لما طرق الشام
فوصلت كشافة برديك الى عقبة سمحورا ثم نزل هو شقيب فتأهب من بالقلعة بدمشق
وخرج العسكر مع سودون بقبجه وحمل هو على عسكر برديك فكسره ثم انهزم برديك
على خان ذي النون فرجع الى صند ونهب من كان معه . واشتد الحصار على نوروز
ودمر داش بجمة فقتل بينهما اكثر من كان معها من التركمان وانضم اكثر التركمان
الى شيخ ووصل اليه المعجل بن نعير نجدة له بمن معه من العرب فخيم بظاهر حماة فوقع
القتال بين الطائفتين واشتد الخطب على النوروزية فمالوا الى الخداع والحيلة ولم يكن
لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فبينما الشينجية مطمئنين اذ النوروزية قد هجموا عليهم وقت
صلاة الجمعة فاقتتلوا الى قبل العصر فكانت الكسرة على النوروزية وتفرق اكثر
العساكر عن نوروز ولحق كثير منهم بشيخ وكتب الى دمشق فدقت بشاره وزينوا
البلد وكبس اصحاب نوروز المعجل بن نعير ليلاً فأنجده شيخ وكتب دمر داش الى
الناصر يستجده ويحثه على المجيء الى الشام والا خرجت عنه كلها فانه لم يبق بيده
منها الا غرة وصفد وحماة وكل من بها من جهته في اسوأ حال .

قال ابن حجر في حوادث سنة ٨١٣ : انه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر

في العام الماضي لما دخل القدس ان يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا في هذا العام الى بابها ومعهم عجل وصناع واخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصناع للعمل بالاجرة فأنام عدة وشرعوا في ازالة ما بطرقهم من الادغال ووسعوا الطريق بحيث تسع عشرة افراس ولم تكن تسع غير فارس واحضروا معهم دهنًا اذا وضعوه على الصخر سهل قطعها فلما رجع الناصر الى دمشق عرفه نصحائه بسوء القالة في ذلك فكتب الى ارغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك والقبض عليهم وعلى من معهم من الصناع والآلات والسلاح والجمال والذهن فحتم على مخازنهم وحملهم ومعهم ما رسم به الناصر اه .

وفي سنة ٨١٤ ارثع الطاعون عن دمشق وما حولها واحصي من مات من اهل دمشق خاصة فكانوا نحواً من خمسين ألفاً وخلت عدة من القرى وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها .

الملك السكير } وبقي الامر على ذلك في الشام منقلباً لان ملك مصر على
وقتلها } هذه الصورة من السخافة والضعف وهو شارب الليل والنهار
تصدر الاعمال عنه مخلة كلها ، ويتسلى في خلواته بقتل مماليكه حتى قتل منهم زهاء
التي مملوك للتسلية والتفلية ، ولما كانت سنة ٨١٣ قطع شيخ الحمودي ونوروز
الحافظي اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق واعمالها ، ونفرت قلوب المالك من
الملك الناصر وصار منهم جماعة (٨١٤) يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز
الحافظي وشيخ الحمودي ، يأتون الشام من العقبة الى غزة فتسحب من العسكر نحو
الثلاث ، فقويت شوكة الحافظي والحمودي والتف عليهما سائر النواب في الشام وغالب
عسكر مصر وكثير من العشير وعربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الامراء
ما يزيد على اربعة وعشرين اميراً من مصر والشام . ولما تحقق الملك الناصر ذلك
جرد عليهم جيشاً فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر خلفهم
ليلاً ونهاراً فأتعب العسكر وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب . ووصل
الملك الناصر الى اللجون (٨١٥) فتلاقى والنواب بعد العصر وكان الملك الناصر قد
اصطحب وهو لا يبي من شدة السكر ، فاراد الكبس على النواب في تلك الساعة فمعه

الامراء ذلك فابى ، فلما رأوا ذلك تسعّبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه الا القليل من العسكر ، فكبس على النواب فانكسر الملك الناصر وهرب بمن بقي معه من العسكر الى نحو دمشق ، واستولى شيخ ونوروز على اثقاله وخزائن المال وانصرا عليه . فلما دخل شيخ ونوروز الى دمشق طلعا الى دار السعادة واجتمع هناك الامراء واحضروا القضاة الاربعة ورسوموا بان يكتبوا محضراً بافعال الملك الناصر بانه سفاك للدماء مدمن للخمر فكتبوا محضراً بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من اعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة واشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ : لا انا ولا انت تتسلطن . ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان ، ويكون الامير شيخ اتابك العساكر ومدير المملكة في مصر ، ويكون الامير نوروز نائب الشام ويحكم في البلاد الشامية من غزة الى الفرات ، يولي من يختار ويعزل من يختار ، فتراضوا على هذا وحلف جميع الامراء على ذلك وتعاهد الامير شيخ والامير نوروز ثم ساطنوا الخليفة واستمر الامير نوروز الحافظي نائب الشام .

واما ما كان من امر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التي وقعت له على اللجون فانه ولى منزله الى نحو دمشق واقام في تربة نثم ، وارسل الى الامير شيخ يطلب منه الامان ، وكان الامير نوروز صير الملك الناصر زوج اخته ، فلو طلب منه الامان اولاً لما اصابه شيء ولكن قصد الامير شيخ فارس الىه من فيده واحضره الى السجن بقلعة دمشق ، ثم انهم اثبتوا عليه الكفر كما قيل ودخل عليه بعد ايام جماعة من الفداوية وقتلوه بالخنجر وهو بالبرج بقلعة دمشق والقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس في وسطه وصار الناس يأتون اليه افواجا ينظرون اليه ، ولو امكن ممالك ابيه ان يحرقوه لفعلوا به ذلك مما فاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة ايام ثم دفنوه » وكانت الدنيا على ايامه حائلة وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية في ايامه من تيمورلنك ومن عصيان النواب وخربت اوقاف الناس في الشام ، وكم قتل من ابطال وبثم من اطفال ، وجرت في ايامه امور شتى يطول شرحها . قال المقرئ : لم تزل ايام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . طرق بلاد الشام الامير تيمورلنك فخر بها كلها وحرقها وعمها بالقتل

والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتمزق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن .

الخليفة السلطان | عهد الامراء الذين قضوا على سلطان الملك الناصر بالسلطنة
وسلطنة شيخ | الى الخليفة العباسي وكان المسكين اشبه بعامل محترم من
عمال الشراكسة لاعصبية له ولا جيش ، الا ما كان له في نفوس الرعية من حرمة
بني العباس ، والغالب ان ذلك العهد بالسلطنة اليه كان دسياسة سياسية من الاميرين
نوروز وشيخ يوم قال الاول للثاني وهما يتفاوضان فيمن يوسدان اليه السلطنة « لا انا
ولا انت نتسلطن » فاستولى الامير شيخ على ملك مصر بالفعل واليه قيادة الجند
واستولى الامير نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك وبقي الامر على ذلك الى سنة
٨١٦ وقد بلغ نوروز الحافظي امير الشام ان المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسي في مصر
وتسلطن عوضه فعز عليه ذلك ولم يقبل الارض للملك المؤيد شيخ واظهر العصيان
واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واعمالها ولم يخطب باسم
الملك المؤيد شيخ ولا ضرب باسمه سكة واستمر مستأثراً بملك الشام من غزة
الى الفرات .

وفي سنة ٨١٧ خرج الملك المؤيد شيخ من مصر في العساكر قاصداً الى دمشق
للقضاء على ساطة نوروز الحافظي ، وكان نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها
المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ حصاراً شديداً طويلاً ونصب حول
مدينة دمشق عدة مناجيق حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ فقطع رأس نوروز
في قلعة دمشق ، وكان نوروز مهاباً شديداً البأس سفاكاً للدماء ما كان في عسكر
الا انهزم ولا ضبط انه ظفر في وقعة قط وهو الذي عمر قلعة دمشق بعد تيمورلنك .
ومهد الملك المؤيد شيخ البلاد الشامية وعزل من عزل وولى من ولى وخلع على
قازباي المحمدي واستقر به نائب الشام وخلع على الامير اينال الصصالي واستقر به نائب
حلب ، وخلع على الامير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على

الامير جاني بك النجاسي واستقر به نائب حماة ، ولم يلبث هؤلاء النواب (٨١٨) ان خامروا على الملك المؤيد شيخ وخرجوا عن الطاعة فجرد اليهم الملك المؤيد ثانياً وخرج اليهم بنفسه وأوقع معهم فانتصر عليهم ، وقبض على قانباي المحمدي نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على ابنال الصلافي وقتله على صدر ابيه ثم قتل الاب بعد ذلك ثم ولي جماعة من الامراء نواباً غير هؤلاء ورجع إلى الديار المصرية فلم يبق سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب ايضاً فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا إلى قرا يوسف امير التركمان فنصب الملك المؤيد نواباً غيرهم ممن يثق بهم ومهد البلاد البمشقية والحلبية وقطم شأفة النواب الذين عصوا سلطانه . ومن الاحداث في هذا الدور دخول قرا يوسف التركماني من العراق إلى حلب (٨٢١) في نحو الف فارس فجعل من كان خارج مدينة حلب باجمعهم ، واضطرب من بداخل سور حلب وألقوا بأنفسهم من السور ولم تسكن الحالة الا بعد رحيله .

* * *

هالك الملك المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ وكان ملكاً جليلاً	} هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القماط
كفواً للسلطنة وافر العقل مقداماً في الحرب عارفاً	
بمكايدها وحيلها وقت النقاء الجيوش حتى ضرب به المثل	

فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ومن حطمة نوروز الحافظي . هذه رواية ابن اياس بيد ان المتر يزي يقول : انه حدث في ايام هذا الملك اكبر خراب مصر والشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن ايام نيابته بطرابلس ودمشق ، ثم ما افسده في ايام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط اتباعه على الناس ، يسومونهم الذلة ويأخذون ما قدروا عليه من غير وازع ولا عقل ولا نام من دين . وتولى بعد الملك المؤيد شيخ ابنه الملك المظفر ابو السعادات احمد وهو في القماط فخامر نائب دمشق جقمق الارغوني ونائب حلب يشبك المؤيدي وكذلك بقية النواب في الشام ، وكان الاتابكي الطنبغا القرشي لما توجه في العسكر المصري أوقع معهم بمن معه من الامراء فهربوا الي نحو صرخد ثم ان الاتابكي الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربات

والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق وهرب منه الى نحو حلب ، فلما ملك الاتابكي الطنبغا دمشق وقلعتها ، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظير العصيات وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والنف عليه العربان والعشير ، فلما بلغ الامراء بمصر ذلك خلعوا على ططر واستقروا به اتابك العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي . ثم اتفق الحال على ان الاتابكي ططر يأخذ السلطان معه في محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشي والنواب فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر احمد في محفة والمرضة معه وكانت امه خوند سماعات صحبة ابنها في المحفة لما خرج الى الشام لتأمن عليه من القتل فدخل الملك المظفر الى دمشق وألقى الرعب في قلب الطنبغا وجقمق فحضر الطنبغا وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك المظفر وهو في المحفة فلما وقعت عليه عين الاتابكي ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق وامر بخنق جقمق والطنبغا ثم قبض على جماعة من النواب وقتل منهم الجباصي نائب دمشق وقبض على أربعين اميراً من الامراء المؤيديّة وسجنهم بقلعة دمشق وقبض على جماعة من المماليك المؤيديّة نحو ثلاثمائة مملوك وجسهم . ثم خلع الملك المظفر احمد من السلطنة وتسلمن عوضه بدمشق وخطب باسمه على المنابر وكان معه الخليفة المعتضد بالله داود ، فكان مثل ططر في هذه الحيلة مثل اكثر عمال هذه السلطنة الشراكسية متي اشتد ساعدهم استأثروا بالملك والسلطان .

وفاة ططر وسلطنة ابنه) هالك ططر بعد ان ملك ثلاثة اشهر واياماً وخلفه
ثم تولى الاشرف برسبائي) في السلطنة ابنه الملك الصالح محمد وله من العمر نحو
من احدى عشرة سنة وجعل جاني بك الصوفي اتابكاً ومدير مملكته ، فعز ذلك على
بقية الامراء فوثب الامير برسبائي الدقائي امير دوادار كبير على جاني بك وقيده
وسجنه فاجتمعت الكلمة على برسبائي وصار صاحب الحل والعقد فتعصب له جماعة من
الامراء وخلعوا الملك الصالح وسلطنوا برسبائي (٨٢٥) فكانت مدة سلطنة الملك

الصالح ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً . وخلع برسباي على المقر السيفي جاني بك الجباصي واستقر به نائب الشام واستقامت احواله في السلطنة وراق له الوقت .

وفي سنة ٨٣٦ سار الملك الاشرف في حملة من مصر قيل انه غرّم عليها خمسمائة الف دينار وقصد الشام وسار منها الى آمد فحاصرها وكانت لابن قرا بلق فلم ينل منها طائلاً ، فغشى بعض الامراء بالصلح على ان لا يتعدى على بلاد السلطان فغلب صاحب آمد على ذلك ولما عاد الجيش المصري ادراجه عاد صاحبها الى العصيان قال ابن اياس : والملك الاشرف هو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البلاد الشامية .

توفي الملك الاشرف برسباي سنة ٨٤١ قال السخاوي : انه ساس الملك ونالته السعادة ودانت له البلاد واهلها وخدمته السعود حتى مات وفشت في ايامه بلاد كثيرة من ايدي الباغين من غير قتال ، وكذا فتحت في ايامه قبرص وأسر ملكها . قال المقرئ يزي : وكانت ايامه ايام هدوء وسكون الا انه كان له في الشخ والجمل والطمع مع الجبن والحذر وسوء الظن ومقت الرعية وكثرة التلون وسرعة التقلب في الامور وقلة الثبات اخبار لم نسمع بمثليها ، وشمل بلاد مصر والشام في ايامه الخراب وقلت الاموال بها وافقر الناس وساءت سيرة الحكام والولاة مع بلوغ آماله ونيل اغراضه وقهر اعدائه وقتلهم بيد غيره . وقد عقد برسباي معاهدة مع فرسان رودس وقهر صاحب مملكة ذي القدرية في آسيا الصغرى وكان الذي يثير عليه الفتن في الشام شاه رخ بن تيمورلنك لان سفراءه اُهيئوا في مصر كما اُهيئ تجاره في جدة وابى عليه صاحب مصر ان يكسو الكعبة المشرفة . وقال ابن اياس : ان الملك الاشرف كان منقاداً الى الشريعة ، وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ولا سيما الاشرفية البرسبيلية فانها من خالص الذهب ، وكان عنده معرفة باحوال السلطنة ، كنبوءاء الملك ، كثير البر والصدقات ، وله معروف وآثار ، لكنه كان عنده طمع زائد في تحصيل الاموال محباً لجمعها من المباشرين وغيرهم نال وكان من خيار ملوك الشراكسة اه .

وكان تولى رجل عظيم مثل برسباي زمام السلطنة بعد سخافة فرج وابنه الطفل

وتخافة ططر وابنه اليافع من أجل الموافقات للبلاد أعاد الى السلطنة عزها الذي
اولاها اياه مؤسسها يرقوق . و برسباي لا يقل عنه تدبيراً وحكمة وربما امتاز
عنه بامور :

اذا تصفحت امور الناس لم تلف امرءاً حاز الكمال فاكنى
عول على الصبر الجميل انه امنع ما لا ذ به اولو الحجبى
وعطف النفس على سبل الاسى اذا استفز القلب تبريح الجوى
والدهر يكدو بالفتى وتارة ينهض من عثرة اذا كبا

الملك العزيز يوسف } تولى الملك بعد الاشرف برسباي ابنه يوسف وسمي
والملك الظاهر جقمق } الملك العزيز وله من العمر اربع عشرة سنة وجعل
الاتابكي جقمق العسلائي نظام المملكة ثم خلع (٨٤٢) وجعل جقمق سلطاناً ولم يملك
الملك العزيز سوى ثلاثة أشهر وخمسة ايام ولقب جقمق بالملك الظاهر . وفي سنة
٨٣٧ ندب السلطان العساكر الى بلاد الارمن فملكوا مدينة اباس . وفي سنة ٨٤٣
خرج اينال الجكمكي نائب دمشق عن الطاعة واظهر العصيان على السلطان وكذلك
تغري برمش نائب حلب فعين السلطان لها تجريدة من مصر وخلق على المقر السيفي
اقبغا التمرازي واستقر به نائب دمشق عوضاً عن اينال الجكمكي وخلق على المقر السيفي
يشبك السودوني واستقر به اتابك العساكر عوضاً عن اقبغا التمرازي فأوقعا مع
النائبين العاصمين واسراما وقطعا رأسيهما وارسلهما الى القاهرة . وفي سنة ٨٥٢
حصل بين نائب حمص تراز المصارع وناظره الاميني عبد الرحمن بن الديري قتال
عظيم بألة الحرب بسبب ابي طبر الساورى امير جرم .

وفي سنة ٨٥٥ طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بهافادر كههم بجموعه
ابن بشاره مقدم العشير بالبلاد الشامية وقاتلهم قتالاً شديداً حتى ازاحهم عن البلد بعد ان
قتل من الفريقين جماعة وامسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم . وفي سنة ٨٥٦ ركب
طوغان نائب الكرك بماليكه فكبس بعض عرب الطاعة وقاتلهم حتى ظفر بجماعة منهم
فامسرف في قتلهم ثم نزل بمكان هناك فكثير عليه جماعة منهم فقاتلهم ثانياً فكسروه

وقتلوه اسوأ قتلة — قال هذا وما قبله السخاوي . وهدأت البلاد من الفتن والتجاريـد على عهد الملك الظاهر جقمق المتوفى سنة ٨٥٧ وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك اربع عشرة سنة وعشرة اشهر وكانت ملكاً جليلاً ديناً خيراً فتواضعاً كريماً ويفعل الخير وقد كانت علاقته حسنة مع سلطات العثمانيين وملوك آسيا الصغرى .

والمنصور والاشرف والمؤيد
والظاهر خشقدم والظاهر
باباي والاشرف قايتباي

وخلف الملك الظاهر جقمق الملك المنصور فخر الدين عثمان فخلع بعد ثلاثة واربعين يوماً وتسلطن بعده الملك الاشرف اينال العلاني وكانت ايامه ايام لهو وانسراح وقيل انه لم يسفك دمًا بغير وجه شرعي فعـد ذلك من النوادر وتوفى سنة ٨٦٥ وخلفه الملك المؤيد احمد وكانت حسن السياسة بصيراً بمصالح الرعية قمع ممالك ابيه عما كانوا يفعلونه من الافعال الشنيعة الا ان مدته لم تطل سوى اربعة اشهر وثلاثة ايام وخلفه الظاهر خشقدم ابو سعيد سيف الدين وكانت اهل الدولة يريدون سلطنة الامير جاتم نائب الشام فلما ابطأ عليهم سلطنوا الظاهر خشقدم (٨٦٥) وسار جاتم الى مصر فارجمه الملك الجديد الى الشام ، ولما بلغها ارسل السلطان الى نائب قلعة الشام مراسيم في الدس بان يقبض على جاتم نائب الشام فرمي عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة فيهرب الى الرها ، واستمر في هياج وعصيان وارسل عليه سلطان مصر تجريدة بقيادة الامير جاتي بك وعين المقر السهني نثم المؤيدي نائب الشام .

وفي سنة ٨٧٢ تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذي القدرية على بلاد حلب فرمى السلطان خشقدم للامير برديك الجمقدار نائب حلب ان يخرج اليه فخرج ثم التف عليه واظهر العصيان على السلطان وقصدا التوجه الى الشام فارسل سلطان مصر عليهما تجريدة وانهمزم الجند الذين ارسلتهم مصر لقتال شاه سوار ودخلوا حلب وهم في اسوأ حال ثم ارسل السلطان تجريدة أخرى فهزمها سوار ايضاً ، فاحتال عليهم حتى ادخلهم في مواضع ضيقة بين اشجار فخرج عليهم السواد الاعظم من التركمان بالقسي والنشاب والسيوف والاطهار فقتلوا من العسكر عدداً كبيراً وقتل من مشايخ جبل نابلس

وعربائه والعشير والتركمان والغلمان عدد كبير جداً واشرف سوار الس . يأخذ حلب
ثم خمدت نائرتة . توفي الظاهر خشفقدم ومملكه نحو ست سنين ونصف وخلعه الظاهر
بلباي وخلع بعد سلطنة ستة وخمسين يوماً وبه زالت الدولة المؤيدية وخلفه الاتابكي
تربغا ودامت سلطنته ثمانية وخمسين يوماً وخلفه الملك الاشرف قابتباي .

مصائب القطر الطبيعية } بعد ان نجت البلاد من فتن التتار وتيمورلنك خاصة
ثم السياسية } ووقائع الصليبيين عاودتها الاوبئة والمجاعات والزلازل
فقد زلزلت حلب مرات سنة ٨٠٦ . تخرب كثير من اماكنها ومساجدها وكانت
كثيرة جداً وفي سنة ٨٢٠ كان بحلب غلاء عقيب طاعون مات فيه سبعون ألفاً وخلا البلد
من السكان وفي سنة ٨٦٣ وقع الطاعون بحلب فاربي من هلك فيها وفي ضواحيها على
مائتي الف انسان وفي سنة ٨٧٤ اشتد الغلاء والفناء بحلب وكانت الحال في البلاد
كلها على ذلك فجارت عليها الطبيعة وكانت من قبل يجور عليها امراؤها . وقال الدويهي
في حوادث سنة ٨٧٥ : ومن اخبار هذا العصر يستدل على انه في دولة المقدمين
واحكامهم العادلة توفرت الراحة لاهل لبنان وكثرت عندهم المدارس والكنائس .
وبينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك او تشترك معهم احياناً وقد غضب
عليها جبار الارض وجبار السماء ظهر لها بل لدولة المماليك الشركسية في مصر والشام
عدوان لدودان او حكومتان مسلمتان نجت من شر الاولى ووقعت في شر الثانية ونعني
بهما دولة حسن الطويل ودولة ابن عثمان . ودولة حسن الطويل هي المعروفة بدولة
الحمل الابيض (آق قيونلي) استولى حسن الطويل على ديار بكر سنة ٨٧١ وقتل في
السنة التالية جهانشاه ومرزا حاكم دولة الحمل الاسود (قره قيونلي) وابا سعيد حفيد
تيمورلنك فاصبح ملك العراقين العربي والعجمي وفارس وكرمان وتلك الانحاء وانشأ
دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها . اما دولة ابن عثمان في الروم اي الاناضول
فقد قويت على ذاك العهد ولاسيما بعد ان غلب السلطان محمد الثاني حسن الطويل
(ارزون حسن) سنة ٨٧٧ .

ففي سنة ٨٧٢ ارسل سلطان مصر والشام عسكرياً على شاه سوارفانكسر كسرة

شنيعة وقتل وجرح كثير من امراء المالك ونهب ائقال الامراء والعسكر قاطبة وعاد الذي سلم الى حلب في اسوأ حال من العربي والمشي ، وقد قوي امر سوار وتوجه الى عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ثم قوي عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام ومصر وكان جيشاً جراراً فقوي عزمه على مداومة حلب ، فجرد سلطات مصر تجريدة ثاوية فكسرها عسكر سوار وفي هذه السنين كثر تبديل نواب حلب فقال ابن الوردي :

هذه امور عظام من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه في كل شهر بن نائب

وفي سنة ٨٧٥ تحرك حسن الطويل على اخذ البلاد الحلبية واظهر العداوة لسلطان الشام ومصر وقد طمع في عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم وهزيمة الشاميين مرتين امام شاه سوار لما فعله سوار معهم ، واستظهر عليهم فتار السلطان لهذا اظهر وقصد ان يخرج الى حلب بنفسه خصوصاً لما بلغه ان سواراً استولى على سبس وقلعتها فان فزعه زاد ، وارسل السلطان هذه السنة الى شاه سوار الامير يشبك الدوادار الكبير وفوض اليه السلطان امور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد وجعل له التصرف في جميع النواب والامراء ما خلا نائب حلب ونائب دمشق فقط ، فقل يشبك عسكر شاه سوار على نهر جيمان ، فانكسر عسكر شاه سوار وقتل منهم جمهور كبير ، وارسل سوار يطلب الصلح من الامير يشبك وان يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده وانه يرسل ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان ذلك الا ان يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان ، ثم قبض عليه في قلعة زمنوطو وحمل الى مصر فقتله سلطان مصر هو واخوته واقاربه .

قال ابن اياس : وخذت فئنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت عليها اموال وارواح وقتل جماعة كثيرة من الامراء وكسر الامراء ثلاث مرات ونهب يركهم وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم حتى ان الفلاحين طمعوا في التملك و«تهيدلوا» عندهم بسبب ماجرى عليهم من سوار وكادت تخرج المملكة عن

الشرا كسة وقد اشرف سوار على اخذ حلب وخطب له في الابلستن وضربت هناك السكة باسمه .

وفي هذه السنة (٨٧٧) جمع حسن الطويل ملك العراقيين جنداً جراراً وزحف على بلاد الشام واستولى في طريقه على كزيا وكركر فانندب ملك مصر الامير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انندب لقتال سوار في السنة الفائتة . اما المعسكر فما صدقوا ان خمدت عنهم فئنة سوار حتى انتشبت فئنة حسن الطويل .

وقبض نائب حلب (٨٧٧) على بعض رجال حسن الطويل في حلب وجماعة آخرين نسبوا الى المواطاة مع حسن الطويل وكانوا يكاتبونه باخبار المملكة ، فامر نائب حلب بصلبهم وارسل في هذه السنة الامير يشبك نائب حلب جيشاً الى البيرة لقتال حسن الطويل فغذل عسكره بعد ما عدوا الفرات وطرقوا البلاد الحلبية من اطرافها وتلاشى امر حسن الطويل فارسل يكاتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وارسل ابن عثمان ملك الترك فاصده الى الامير يشبك بان يكون عوناً له على قتال حسن الطويل وكان حسن الطويل استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر والشام وصاحب الروم ابن عثمان بجرأ وهو بقائهم برأ ولكنه عاد في سنة ٨٧٩ يرسل الى سلطان مصر معتذراً عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه . وفي سنة ٨٨٠ صدرت من برهان الدين النابلسي وكيل السلطان قايتباي قبائح عظيمة باهل دمشق فرجموه ورموا عليه بالسهام واحرقوا داره بالنار وارادوا قتله فركب نائب قلعة دمشق وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الائمة قليلاً وقد كادت ان تحرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي وكان قد طغى على الناس وتجبر .

قال السخاوي : وكان النابلسي يخرب البلاد الشامية بنفسه وبولاه احمد وقد وصفه حسن بن احمد عربشاه في كتابه ابضاح الظلم والعدوان في تاريخ النابلسي الخارجي الخوان ووصف مظالم ابنه بما نقشه منه الابدان وكان طالع النابلسي احمد الخراب ، صادر اهل طرابلس وهتك ستر نائيبها وصادر كثيرين في دمشق ، وأراد ان يعرج على حلب فمنعه صاحبها من اتيان ما عمل في دمشق . اما ابنه فاحتكر الاقوات وطغى الكيل وغش الجيوب وأدار باسمه الطواحين والافران

تسبب في الجزية على المدارس وأتقص معالم الطلبة وجمع من الاموال مالا يحصى به
العد وكثر ظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصداً حاسبه على الاموال
فظهر اختلاسه فنكل به وأقام الناس عليه الشكاوي كما نكل بآبيه في مصر لما أتى
من المساويء هناك وقبض عليهما في وقت واحد .

وذهب في هذه السنة نائب حلب قمر باي في العسكر الى التركمان وانكسر
عسكر حلب كسرة لم تسبق مثلاً من التركمان فعظم شأنهم . وفيها بعث ابن حسن الطويل
ليستجد بنائب حلب على آبيه فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب فقاتلوا
عسكر الطويل فانكسر عسكر حلب وقتل منهم جماعة .

وفي سنة ٨٨٣ خرج سيف بن نعيم الغاوي وقرابته عن الطاعة فقاتله نائب
جماعة فكسر النائب وقتل من عسكره كثير ثم خرج اليه نائب حلب وأوقع معه
ففر منه فتبعه وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

مات حسن الطويل ملك العراقيين (٨٨٣) وانقرضت دولة بني أيوب على يده
وكان تحرش بابن عثمان ملك الروم بان يأخذ من ملكه شيئاً فما قدر عليه ثم
تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الاشرف قايتباي امور وكان الاشرف يخشى
من سطوته لانه كان ملكاً جليلاً عاقلاً سائساً كثير الخيل والخياد . وفي سنة
٨٨٥ كبس عمرو بن غانم البدرى ومن معه من العرب الامير ناصر الدين محمد بن
أيوب نائب القدس باربعاء الغور وحصلت فتنة قتل فيها جماعة .

وقعة مشؤومة) وكانت سنة ٨٨٥ من أشأم السنين على دولة الاشرف
وأحداث) قايتباي فان الامير يشبك الدوادار كان قد ندب ايضاً
من مصر لقتال الامير سيف امير آل فضل فسار ومعه جيش من مصر وكان في
صحبته نواب دمشق وحلب وطرابلس وحماة مع العسكر الشامي والمصري وغير ذلك
من العساكر فتوجه الى الرها واجتمع معه نحو عشرة آلاف انسان وكان المتولي امر
الرها شخص يقال له بابندر احد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل فحصر الامير
يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة وكان يريد بعد أخذها ان يسير لفتح العراق فعاد

عليه بابندر وكسر جيش يشبك وأسره مع النواب الذين في جملة وشئت شمل جيشه وأخذ يشبك وقتله وقتل من امراء الشام عدد كبير جداً وكذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تظأ الا على جثث القتلى من العسكر . قال ابن اياس : وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغربية وكانت مصيبة عظيمة هائلة . وقال : وكان الامير يشبك باغياً على بابندر فانه قصد محاربه من غير سبب ولا موجب لذلك فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان في وكره يوماً فلا يأمن من لسعته

اضطربت الشام ومصر من مهاجمة عسكر يعقوب بن حسن الطويل بلاد حلب ودمشق فان النواب قاطبة كانوا في أسره وسحق جيش سلطان مصر والشام فأعد السلطان له جيشاً آخر قال ابن اياس : ولولا فعله ذلك لخرجت من يده غالب جهات حلب . وفي هذه السنة ثار عامة حلب بمحمد بن حسن بن الصوا الحلبي نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها بحلب فقتلوه وقتلوا حاجب الحجاب بحلب . وفي سنة ٨٧٨ هـ وقعت فتنة بين طائفة الداربية وطائفة الاكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ثمانية عشر نفرًا واستنفر كل من الطائفتين من يننصر لها من العشير فدخلوا المدينة ونهبوا ما فيها عن آخره الا القليل منها وخربت أماكن وكان الامر عظيماً لم يسمع بمثله في هذه الازمنة .

اول مناوشة مع } وفي سنة ٨٨٩ قتل كثير من امراء حلب والشام في
الأتراك العثمانيين } الوقعة التي جرت بين المصريين والتركمان ، وفيها خرج
نائب حلب في جمع من العساكر وقاتل مع علي دولات أخي سوار وأمدته ابن عثمان
يجمع كثير من عساكره فلما التقى الفريقان وقعت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها العسكر
الحلبي وقتل نائب حلب وجماعة من العسكر الحلبي والمصري . وكانت هذه الوقعة
اول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام ومصر . ولما حصلت هذه الكسرة لعسكر
حلب ركب الامير قمرآز هو والامير ازدمر والعسكر المصري وتوجهوا الى علي دولات
فقتلوا معه فانكسر علي دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ونهبوا جميع بركهم

وأخذوا سناجق ابن عثمان ودخلوا بها الى حلب وهي منكسة واستمرت الفتن يومئذ
بين السلطان وابن عثمان .

والشر مبدأوه في الاصل اصغره وليس يصلح بحرب جانيها
والحرب يلحق فيها الكارهون كما تذنو الصالح الى الجربي فتعديها
وفي سنة ٨٩٠ استولى جند ابن عثمان على قلعة كوك من مملكة حلب وفي
السنين التالية استولى على سيس وطرسوس وغيرهما من البلاد الحلبية وطمع في أخذ
سائر البلاد فأخذت حكومة مصر ترسل بالتجريدة إثر التجريدة فسألت حال الشام
وخربت الاصقاع الشمالية منها . ولكن الجند المصري او جيش المماليك الشرکسي
وقع له مصاف سنة ٨٩١ في أرض حلب مع عسكر ابن عثمان وانصر عليه وقتل منهم
جماعة كثيرة قدروهم بأربعين ألفاً وأسرا احمد بك هرسك قائد جند ابن عثمان ومن
أجل امرائه وصفدوا عدة من امرائه في الحديد . وفي هذه الاثناء (٨٩٢) فحش
امر خضر بك نائب القدس وتزايد ظلمه وسفكه الدماء وأخذ أموال الناس . وفي
سنة ٨٩٣ استقر الامير دقماق في نظر الحرمين ونيابة القدس والخليل ببذل عشرة
آلاف دينار للخزائن الشريفة غير ما تكلفه لاركان الدولة قال ابن ابي عذبة : وكان
ذلك من أقبح الأمور وأبشعها فان ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن النشاشيبي كان
من أدل الخير والصالح فأبدل بظالم فاجر .

وفي سنة ٨٩٣ استولى عسكر ابن عثمان على قلعة اياس من غير قتال وبعث ستين
مركباً من البحر مشحونة بالسلاح والعسكر الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر
المصري فباتم له ما أراد . واستخلص جيش السلطان باب الملك من ابن عثمان
نجاة العاصفة وأغرقت غالب المراكب ومن طلع الى البر من العسكر العثماني قتله
العسكر المصري . قال ابن اياس : وكانت لهم النصرة على الجنود العثمانية وكانت
على غير القياس .

ووقعت (٨٩٣) معركة عظمى بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان في اطراف الولاية
الحلبية قتل فيها من الفريقين الف وانهمزم العثمانيون وشرع العسكر المصري في حصار
الجند العثماني في اذنة ودام حصارها ثلاثة اشهر قتل فيها من الفريقين خلق كثير حتى

استولى عليها عسكر المالك ثم رجع في السنة التالية فقطع عسكر ابن عثمان في اخذ البلاد الحلبية فارسل سلطان مصر تجريدة في الحمال لحفظ مدينة حلب ثم مجرد تجار يد اخرى على ابن عثمان . قال ابن اياس : وطال الامر بين السلطان وبين ابن عثمان في امر هذه الفتن فزحف العسكر المصري والعسكر الشامي على اطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية واحرقوها وفتكروا باهلها وكذلك فعلوا في كثير من بلاد ابن عثمان وفي سنة ٨٩٤ كان الفناء العظيم والغلاء الشديد في الديار المصرية والشامية ومات خلق لا يحصى ومات في يوم واحد بدمشق ١٤٢٠ انساناً على ما ورد في سجل الاموات واشتد ظلم نائب القدس على من اتهم بالنقصير في المهم الشريف ببلاد الروم وقبض على بني اسمعيل مشايخ جبل نابلس ومن الناس من تسحب وقبض على من يكون منسوباً اليه من اقاربه واصحابه وجيرانه و باع بعض بناتهم بيع الرقيق وتفاحش الامر . وفي سنة ٨٩٦ حدثت في حلب فتنة كبيرة بين نائبيها وجماعة من اهلها فقتل سبعة عشر من ممالك النائب وخمسون من اهل حلب ثم اجرق جماعة من حاشية النائب بالنار وكادت حلب ان تحرب عن آخرها فاخذ هذه الفتنة قانصوه الغوري حاجب الحجاب بحلب اذذاك وذاق الامر بالناس لان المالك او سلاطينهم كانوا كلما ارادوا ارسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الباحشة على الناس ويسلبون اموال التجار ومساكن البلاد .

وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد الهالكين بدمشق كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم اربعمائة وبالرملة مئة . وفي سنة ٨٩٨ ثارت فتنة كبيرة بدمشق ورجم اهلها قانصوه الجيياوي . وفي سنة ٨٩٩ تغلب البربان على الكرك والشوبك وحدثت فتن هائلة وكان في (٩٠٠) وقعة بين اهل داريا و غوطة الشام فخرج العسكر وقتل ما يربو على مئة قتيل وتوفي نائب دمشق وخلت من الحكم وكثر النهب والفسق ووقع الاختلاف بين القيسية واليمينية ، ولما بلغ السلطان قانصوه خرج بالعساكر المصرية فالتقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين .

وفاة الاشرف قايتباي وتولي | وفي سنة ٩٠١ توفي الملك الاشرف قايتباي
 ابنه ناصر الدين محمد | الحمودي وخليفة الوقت بمصر الامام المتوكل
 على الله ابو العز عبد العزيز العباسي وكانت مدة سلطنة الاشرف بالديار المصرية
 والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة واربعة اشهر واحد عشر يوماً وهو الحادي
 والاربعون من ملوك الترك واولادهم في العدد والخامس عشر من ملوك الشراكسة
 واولادهم بالديار المصرية ، وكان كفوءاً للسلطنة وافر العقل سديد الرأي ، عارفاً باحوال
 المملكة يضع الاشياء في محلها ، ولم يكن عجولاً في الامور بطيء العزل لارباب
 الوظائف يتروى في الامور قبل وقوعها ، وكان لا يخرج اقطاع احد من الجند الا بحكم
 وفاته ، ولا من ابناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته . قال ابن اياس : بعد ان اراد ما تقدم
 ولكنه كان محباً لجمع الاموال ناظراً لما في ايدي الناس ولولا ذلك لكان يعد من
 خيار ملوك الشراكسة على الاطلاق ، ولكنه كان معذوراً في ذلك ، تحرك عليه في
 ايام سلطنته شاه سوار وحسن الطويل وابن عثمان وغيرهم من ملوك الشرق وتجرد
 عليهم تجار يد وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزعزع ، حتى قيل ضبط ما صرفه على
 نفقات التجار يد التي جردها في ايام سلطنته الى ان مات فكانت نحواً من سبعة آلاف
 الف دينار وخمسة وستين الف دينار خارجاً عما كان ينفقه عند عودهم من التجار يد .
 وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثلا ، وكانت مفرماً بشراء الممالك حتى قيل لولا
 الطواعين التي وقعت في ايامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . وكان مولعاً
 بالبنيان الفاخر خلف آثاراً كثيرة في ارجاء مملكته وصادر اليهود والنصارى مرتين
 في ايامه ، وخلفه ابنه ناصر الدين محمد ، وبدأت امارات الضعف في اعصاب المملكة
 لصغر سنه وكان ابوه لا يريد سلطنته بعده ولكن عاجله النزاع فعمل الامراء من عند
 انفسهم ، وكان الفساد مستشرجاً في مصر منذ تولى ، وكثيراً ما كان السلطان يتخوف
 على نفسه من الامراء فيحضر لهم المصحف العثماني ويحلفهم وقد حلفهم اربع مرات وكانت
 ايمانهم كاذبة فاجرة :

ولا خير في امر يكون خسيكة ولا في يمين ليس فيها مخارم
 وكان هذا الضعف ينال منه الشام قسط عظيم حتى خرب ولا سيما شماله لكثرة

غارة اعداء البلاد عليها . قال ابن طولون في حوادث سنة ٩٠٦ وقفت حال الناس وقطعت الطرق من كثرة العرب المفارجة وبني رام خارج دمشق واطرافها وكثر الظلم والاختلاف والناس مرتقبون الفتن :

واذا تأملت البلاد رأيتها نثري كما نثري الرجال وتُعدم

وفي هذه السنة وقع قتال بين الامير علي الشهابي في جماعة من وادي التيم ورجال الشوف وبين الامير بكر الشهابي عمه في مرج الشميسة فنال ابن الاخ من عمه وقتله بيده مع ثلاثين من اصحابه وسار الى حاصبيا فالتقاء بقية اهالي البلاد والامراء وساس الرعاية احسن سياسة فصيح فيه قول الشاعر :

من الناس من يغشى الابعاد نفعه ويشقى به حتى المات افاربه
فان يك خير فالبعيد يناله وان يك شر فابن عمك صاحبه

الملوك المتأخرون توفي السلطان الناصر محمد وكانت مدة سلطنته نحواً من
وأخـرم الغوري سنين وثلاثة اشهر وتسعة عشر يوماً وكانت ايامه كلها
فذاً وشروراً وتسلطن بعده الملك الظاهر ابوسعيد قانصوه ولم تطل مدته اكثر من سنة
وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً وكان ملكاً هيناً مسلوب الارادة مع الامراء وتسلطن
بعده الملك الاشرف ابوالنصر جان بلاط بن يشبك الاشرفي وكانت مدة سلطنته ستة
اشهر وثمانية عشر يوماً وثب عليه الامير طومان باي وخلعه من السلطنة وتسلطن
عوضه وسمي بالملك المعادل طومان باي بن قانصوه ابى النصر الاشرفي قايتباي وفي
سنة ٩٠٦ تولى السلطنة الملك الاشرف قانصوه الغوري .

وفي سنة ٩٠٣ عصا اقبردي الدوادار وذهب الى الشام فاستولى على غزة ثم جاء
دمشق وحاصرها فلم يتدر عليها فنهب الضياع التي حولها وخرب غالبها وحاصر حماة
واخذ منها اموالاً لها صورة وحاصر حلب شيرين واحرق من قراها وكان اينال
السلحدار يومئذ نائب حلب وكان من عصبة اقبردي ، فقصد ان يسلمه المدينة فرجه
الجليون وطرده من بلدهم وحصنوها بالمدافع على الاسوار ، ثم هرب اقبردي الى علي
دولات . وفي هذه السنة زحف ابن عثمان على بلاد المماليك في الشام فسادت حالها

وكثر تبديل النواب مخافة ان يتأصل نفوذهم وتسمو بهم الهمم الى شق عصا الطاعة عليهم . ولما بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصري ظمعوها في اخذ البلاد الخلبية فارسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب ، فساءت احوال البلاد وآلت الى الخراب وبطلت التجارة بين مصر والشام . ثم تفاوض صاحب الروم وصاحب مصر والشام في الصلح وحمل ابن عثمان الى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها فسلمها الى السلطان في القاهرة . وفي سنة ٩٠٤ اغار كرتباي الشرکسي نائب دمشق على عرب هتيم بارض الزرقاء وكان كرتباي على رواية الغزي حسن السيرة بالنسبة الى غيره من الامراء . وقتل الناصر محمد بعد سنين وثلاثة اشهر من توليه السلطنة وكان سبي التدبير خالفاً ماجناً وخلفه خاله المقر السيفي قانصود الدوادار الكبير ولقب بالظاهر ، وعاد في اول امره اقبردي الدوادار وحاصر حلب حصاراً شديداً واحرق ما حولها من الضياع واشرف على اخذها والتف عليه كثير من العربان والتركمان وحصل منه غاية الضرر ، فجرد السلطان لقتاله حملة . وزحف (٩٠٤) عسكر ابن عثمان على ارض الشام وآل الامر الى انه ارسل بقول لنائب حلب : اعزل ابن طرغل فاجابه نائب حلب الى ذلك وعزله وفي هذه السنة جرى الصلح بين الامراء المصريين وبين اقبردي الدوادار وكانوا اتدبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد ان ساءت حال البلاد بفتنته .

وفي سنة ٩٠٥ خرج قصره نائب الشام عن الطاعة واذهر العصيان جملة واحدة واستولى على قلعة دمشق واموالها وطرابلس وقلعتها وكان السلطان حاول ان يولي قصره الشام فاخفى السلطان في الفتنه وخلفه في الملك الاشرف ابو النصر جان بلاط فلما تسلط السلطان ارسل الى قصره في الشام بالبشارة فلم يزد الا عصياناً . وفي هذه السنة ولي نيابة الشام قانصوه الحمدي فأقي الى البقاع فهرب منه مقدماً ناصر الدين بن محمد بن حنش ، وجرت بينهما امور كثيرة . ثم وقعت الفتنة بين اهل دمشق ونائبها فأحرق حي الشاغور وجرت بينهم حروب كثيرة ثم وقع الصلح عن يد ابن الكسيح شيخ الاسلام بدمشق .

سلطنة طومان / وانندب السلطان احد المقدمين الى الكرك لقتال بني لام
 باي / واجتمع السلطان بالامراء وضربوا مشورة في امر قاصروه
 نائب الشام فأشاروا عليه بان يرسل قاصداً وكان قاصروه قد استولى على غزاة واعمالها
 والقدس وغير ذلك من النواحي فعزم السلطان على ارسال تجريدة لنائب الشام ،
 وكان دولات باي نائب حلب معه في شق عصا الطاعة ، ولكن لم تنفع التجريدة
 وأعان طومان باي سلطنته بالشام وتلقب بالملك العادل وكان العسكر المصري نزل
 بسمع بالقرب من دمشق فركب قاصروه نائب الشام في نفر قليل من عسكره
 واظهر انه طائع فاطمان له العساكر وكان غالب الامراء من ندمائه ولما حضر اليهم
 دخل معهم الى دمشق واجتمعوا في القصر الابلق ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، وامر
 قاصروه والامير طومان باي بالقبض على جماعة من الامراء وسجنهم بالقلعة .

وحضر الى دمشق دولات باي بن اركاس نائب حلب الشهير باخي العادل فلما
 حضر تعصب للامير طومان باي وتكلم في سلطنته فأحضر قضاة الشام وكتب
 صورة محضر في خلع الاشرف جان بلاط من السلطنة وبايعوا طومان باي من غير
 خليفة وتلقب بالملك العادل ابني النصر وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه . فلما تم
 امره عين لاناكية مصر قاصروه نائب الشام وعين لنيابة الشام دولات باي نائب
 حلب وعين لنيابة حلب اركاس بن ولي الدين وهكذا عين سائر نواب الشام وخطب
 باسمه على منابر دمشق . ثم ذهب الى مصر ومن أطمعهم بالمناصب من الامراء وكان
 تقدم الى من في مصر من الامراء فخلع عليهم ونصبهم قبل حضوره وتسلطن فيها .

وفي سنة ٩٠٨ حدثت فتنة بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة وقتل أناس
 وضرب النائب على أهل دمشق مالا لاجل مشاة فتخرج معه الى حلب تجريدة حزمة
 للبلاد لما قيل من امر الخارجي حيدر الصوفي وذلك مع وقوف حال الناس من الظلم
 وكثرته — قاله ابن طولون . وفي سنة ٩٠٩ جيز الامير ناصر الدين بن حنش مقدم
 البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر بن إشارة في قرية شيمين فقتل من جماعة
 ابن حنش نحو مائتين .

ومن الاحداث في هذه الايام نجميز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجي

الدوادار سنة ٩١٠ الى البقاع فقتل الدوادار عند جسر كامد اللوز وقتل معه نحو ثلاثمائة شخص وكانت الوقعة بينهم وبين الامير نحر الدين بن عثمان بن معن امير الشوف . وكثرت بعد سنة ٩١١ الرميات والغرامات على حارات دمشق فهاج الناس وصعد أهل القبيبات الى مأذنة الجامع الاموي وكبروا على المتسلم حتى أفرج عن الحبوسين . واشتد الجور سنة ٩١٦ في لبنان فهجر اكثر الناس موطنهم الى البلدان البعيدة ومن اللبنانيين من هاجر الى قبرص ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضييق العظيم الذي حصل فيها بسبب الجراد وكثرة الضرائب التي فرضها الحكام على الرعية .

القضاء على مملكة ذي القدرية
وطبيعة دولتي المماليك البحرية
والمماليك البرجية

وأهم ما وقع من الحوادث التي عجلت في سقوط الشام بعد ذلك في أيدي العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة ٩٢١ على مملكة ذي القدرية التركمانية وكانت عاصمتها مرعش تارة والبستان تارة أخرى واستولت على بهسنى وملاطية وخربوت ، قامت هذه الدولة سنة ٧٨٠ وتولاهما عشرة أمراء أولهم زين الدين قرهجه وآخرهم علاء الدولة بن سليمان الذي قتله سناب باشا وأخاه وبعض اولاده في المعركة واستولى على بلادهم باسم سلطان العثمانيين ، فبذلك سقطت الانحاء الشمالية من الشام في يد عدوة الدولة الشركسية ، وكان أمراء ذي القدرية ينزون الشام حتى استولوا مرة على مملكة حماة فردهم الظاهر برقوق مدحورين .

ومنها ذهب سلطات مصر الى دمشق سنة ٩٢٢ فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهباً وفضة ، وفرش برسيباي تحت حافر فرسه الشقق الحرير وخرج الى المصطبة التي يقال لها مصطبة القابون في القابون الفوناني ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها وأقام بها تسعة أيام . وكان ذلك الذهب المنشور شؤماً على السلطان ومملكته انثر بعدها سلك مملكه .

هذه أهم الاحداث التي حدثت قبيل دخول العثمانيين الى الشام وخروجها من ملوك الشراكسة بعد ان ملكوها بسلطنة الاتابك برقوق ١٣٩ سنة وكان المماليك

البحرية ملكوها منذ سنة ٦٥١ هـ والاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية ودولة الشراكسة فكلماتها أعجميتان ولكن القائمين بهما لا يخرجون في الخطاب والتكاتب والاصول عن اللغة العربية والشريعة الاسلامية ، وقد كانت من تينك الدولتين المماليك والشراكسة رجال عظام مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وابن قلاوون وبيبرس الجاشنكير وقايتباي وبرسباي ولكن جاء بعدهم ملوك قونمخروصبيان آل اليهم الامر فأفسدوه او من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة الفاسدين وقد ظفرت هذه الدولة اي المماليك البحرية والبرجية باخراج بقايا الصليبيين من الساحل واستعملت الشدة فيهم فنجحت في التكيل بهم حتى دثرت بقاياهم ، ولكنها لم تقو على انقاذ البلاد من غارات المنار والمغول فقامت الشام منها ألوان العذاب والخراب .

وكان سلطان مصر والشام متى دهم الشام مداهم عظيم يعتصم بمصر وينعم ويلذ في قصوره ويكتفي بارسال تجريدة قد تكون ضعيفة او يصدر أمره لنائب حلب ان ينجذ دمشق ولنائب دمشق ان ينجذ حلب مثلاً . ولا يخرج الاعداء من البلاد الا اذا أرادوا ، وأتوا على الناطق والصامت وألحقوا العامر منها بالغامر ، وباتت امور السلطنة العوبة في كثير من الادوار بايدي ضعاف الاحلام من أسرة ذاك المملوك فتميات السبل لقيام دولة أخرى وهي الدولة العثمانية .

اما قانصوه الغوري آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام ومن حكمه انتقلت الى العثمانيين فلم يكن بالذي ترجح حسناته على سيئاته ومع ذلك بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح وطال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت ايامه فتنًا وغوائل ومخاوف ، حتى قضى الله في دولته بامرته واستطال عليها سلطان أقوى .



الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ



حالة الشام قبيل الفتح العثماني | كانت الشام اخت مصر في آخر الدولة الشركسية تقاسمها شقاءها شق الأئمة ، فيستبد المتغلبة من المماليك بالاحكام بحسب ضعف صاحب مصر وقوته ، والصالح في نوابها وملوكها قليل . ولم تسعد البلاد بعد فتنه تيمورلنك بسultan عادل يطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسد خللها ، ويزيح بحسن الادارة علمها . وشغل ملوك الشراكسة بالتجاريد على حسن الطويل وشاه سوار وابن عثمان من الملوك في شمالي المملكة وشرقها يجر دونها فيجردونها الرجال والاموال ، وقد خرج الناس بعد وقائع العليبيين والمغول وما اعقبتها من الاوبئة والزلازل والمجاعات اعرى من مغزل وازمنت الفوضى في ارجائها وساءت حالتها الاقتصادية والاجتماعية .

احسن اكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون الى الدولة العثمانية ، وكانت الى الشام ومصر اقرب الدول الاسلامية الكبرى هذا والدولة العثمانية اذ ذاك في ابان شبابها وقوتها ، وقد وقّرت في النفوس منذ أسس بنيانها السلطان عثمان التركي في سنة ٦٩٩ على انقراض دولة السلجوقيين ، ولا سيما بما قام به محمد الثاني فاتح القسطنطينية من الغزوات والفتوحات ، وتوفيق له من فتح عاصمة الروم البيزنطيين ، بعد ان حاول كثير من ملوك العرب وغيرهم ذلك فلم يفلحوا لبعدها عن مواطن قواهم ، ولقوة سلطان القسطنطينية في تلك العصور والامور مرهونة باوقاتها .

هذا والناس لا فرق عندهم اذا استولى عليهم الترك الاعاجم ، بعد ان حكمهم المماليك المنوعون في اجناسهم زمناً طويلاً ، ماداموا كلهم غرباء عن البلاد يستعبدونهم وينالهم من ضعفهم ضعف وشقاء ، ومن قوتهم بعض راحة وسعادة ، ولا فرق في الاسلام بين عربي واعجمي في الحقوق والواجبات ، واقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة ، لان الامة كانت تنفى باسرها في سلطانها خلال القرون الوسطى ، وساطان غشوم خير من فئنة تدوم .

مقاتل الغوري } كان السلطان قانصوه الغوري آخر من ملكوا الشام من
ومقدمات الفتح } الشراكسة على شيء من الدماء ، لا يخلو من حسنات ولكن
سيئاته اكثر ، اعدّ للايام عدتها من الماديات وادرك ما يحيق بمملكته من خطر ابن
عثمان ولكن ما ينفع التدبير اذا كانت المعنويات في حكومته مريضة ضئيلة ، والقوى
في جيشه غير موحدة ، وداء الهرم قد استحكم منه ومن دولته . وكان في الثمانين من عمره
يوم صحت نية السلطان سليم العثماني ، رجل الارادة القوية والجيش الجرار ، على اخذ
الشام ومصر ، والقضاء على دولة المماليك . وكان الغوري على رواية كامل باشا
لا يعرف على من يعتمد عليه من رجاله وامرائه غريب الاطوار في ذاته ، فكان ذلك
من دواعي خروج الامر عنه ووقوع الخلل في جيشه ، وكان يعتقد بعلم الجفر ، وقد
ذكر احد اديباء هذا العلم ان الشر بآتيه من رجل يبدأ اسمه بحرف السين ، فصار يتبطر
من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف ومنهم الامير سيباي كافل الشام . ودون الغيب
اقفال لا يفتحها الزجر والقال .

ترجم للغوري احد المعاصرين من الفرنج بقوله : « انه من مماليك الغوري في افغانستان
كان حاجب الحجاب في حلب سنة ٨٩٣ (١٤٩٠) ورأس محكمة عسكرية ووفق الى
قمع ثورة فيها فابان عن كفاءة وكان وزيراً لما حنق المماليك على طومانباي واختاروه
للملك فتردد كثيراً في قبوله لانه كان تجاوز الستين من عمره واخذ مكوساً وضرائب
من كل انسان حتى من البوابين وضرب نقوداً زائفة اضرت بالتجارة الداخلية والخارجية
فاستلزم عمله حنق الناس وانتقاد معاصريه فهيجل بخراب مالية البلاد وذلك لوضعه

رسوماً فاحشة على البضائع ، وعلى البضائع التي تمر ببلاده وأنه استعمل جزءاً من هذه الضرائب في إقامة القلاع ولا سيما في حلب وأنشأ طرقاً وآباراً في الحجاز . وكانت المكوس التي تجبى في المواني ورسوم البضائع الآتية من بلاد الهند المارة بالبلاد الى اوربا من طريق مصر آتية من عدن وجدة والسويس واسكندرية او من طريق الشام ذاهبة من البصرة وحلب من أهم واردات المملكة . ونفادياً من اداء هذه الرسوم الفادحة اجتهد البرنقاليون ان يكشفوا طريقاً في البحر الى الهند مما ظفرو به . ملاحهم فاسكودي غاما وتوفقوا على التدرج الى النزول على شاطئ بلاد الهند وبعثوا الى اوربا توماً بسفنهم النقلة الكبرى عن طريق البحر وذلك بقطع طريق رأس الرجاء الصالح فتماموا اداء المكوس الفاحشة التي كانت تؤخذ في المواني المصرية عن البضائع التي ينقلونها وعن نفقات النقل في البر فاستفاد البرنقاليون من ذلك ، ولم يسع الغوري ان يسكت عما يلحق المسلمين من مظالم البرنقالين . فخارب الاسطول البرنقالي غير مرة في بحري الهند والاحمر ونال منهم ونالوا منه قليلاً . قال وساءت حالة الغوري حتى لم يستطع ان يدفع رواتب المالك في اوقاتها بحيث فقدت حكومته كل معاونة قوية ، وكانت سياسته الخارجية تعسة لانه اضطر ان يحالف عدوه اللدود اسماعيل شاه خوفاً من السلطان سليم العثماني ولم يخف ذلك عن السلطان سليم وعرفه بواسطة جواسيسه .

وبينا كان قانصوه الغوري بغوص في احلامه واهامه ، كان السلطان سليم الاول وهو التاسع من آل عثمان الملقب بياوز اي الشديد الجبار بجيش الجيوش وبعد الزحف ويستجد السلاح فبدأ بقتل الشيعة في تخوم الاناضول وكانوا اربعين الفاً ثم زحف سنة ٩٢٠ على بلاد الشام اسماعيل الصفوي صاحب شروان واذر بايجان وتبريز والعراق العجمي وفارس وكرمان وديار بكر وبغداد وباكو ودر بند وخراسان وانتصر في وقعة جالديران المشهورة وانهزم عسكر الشام اسماعيل شر هزيمة وجرح الشام في المعركة وفتح السلطان سليم ديار بكر وبلاد الاكراد فهب قانصوه الغوري من مصر لانجاده فيما قيل والارجح انه هب للدفاع عن بلاده . وكان نائب سلطان مصر على البصرة رجلاً اسمه علاء الدولة بن سليمان (وهو صاحب مرعش والبستان) فلما اجتاز السلطان

سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوي امر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا شيئاً لعسكر السلطان سليم فهلك كثير من رجالهم ودوابهم جوعاً ، فشق ذلك على السلطان سليم كما قال بعض المؤرخين وشكك ما وقع له الى الغوري فقال : ان علاء الدولة لم يصدر عن امره وانه عاص عليه وانه اذا قتله يكون له شاكراً ، وكتب الغوري الى علاء الدولة يحمله على متابعة عمله فأحس السلطان سليم بان الغوري يكيد له وزاد علاء الدولة بان مرق بعض احوال من ذخائر عسكر السلطان سليم فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة واولاده وارسل رؤوسهم الى الغوري . بمعنى ان سنان باشا استولى سنة ٩٢١ باسم السلطان سليم على مملكة ذي القدرية التي كانت في مرعش والبستان ومنطية وبهسنى وخربوت وما اليها ، وكانت الدولة العثمانية جعلت حكومة ابناء روضات التركمانية التي نشأت سنة ٧٨٠ هـ في جهات أذنة وطرسوس وسيس تحت ظلها ، بعد ان كانت علائق امراءها الثلاثة الاول مع دولة المماليك الشركسية اصحاب الشام ومصر مسترخية ، ففتحت السبل والمنافذ الى الشام وصارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها وعلى خط رجعتها .

ولما اضعف السلطان سليم مملكة كبرى وهي مملكة الصفوي ، وقضى على مملكة صفوى وهي مملكة ذي القدرية ، طمحت نفسه الى فتح الشام ومصر وبنزعها من دولة المماليك ليضمها الى مملكته فتدخل في طور العظمة وتكون ممالك في مملكة ، وكان ابوه وجده من قبله يقاوتلان بعض حاميات الشام يتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك ، ويدفعان امراء الاطراف امثال امراء ذي القدرية وغيرهم الى مجاذبة ملوك الشركسية حبل السلطة على التخوم . وكان اولئك الامراء كثيراً ما يسرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير ، لعلمهم بان اثارة العثمانيين لهم على المماليك لا خيرهم بل لينشقوا بهم ثم يلتقموا منهم ويضعفونهم ويضعفوا بهم .

لا بد للمصدر ان ينقش والذي في الصدر ان يبعث

صلات العثمانيين مع المماليك	وذكر مؤرخو الترك ان الصلات السياسية بين
ورقعة مرج دابق	ملوك الشركسية اصحاب مصر والشام وبين

سلاطين آل عثمان كانت مسترخية منذ عهد محمد الفاتح . ولما سميت مهمة السلطان سليم الى فتح الشام ومصر (٩٢٢) ارسل جيشاً الى ديار بكر يوري بانه يريد قصد ايران ، ولادفي سبب اخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب ، فبعث قانصوه الغوري بعض رجاله يتوسطه في الصلح فقتل السلطان سليم رجال السفير واراد ان يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه وشغف فيه ، وقال له : ان ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون ، فاكتفى السلطان بجملي شعر السفير ولحيته ، واركبه على حملا اعرج اجرب واعاده الى صاحبه الغوري جزاء ما قدمت يداه . فيما يقال من امتهان الغوري رسل السلطان العثماني .

وترددت الرسل بين السلطانين في مرج دابق اولاً ، وكان ابن عثمان فوض الى رساله ان يتظاهروا بطلب سيدهم للصلح ليثني بذلك عزم الغوري عن القتال ، وقد احضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء بلاده يجيزون له قتل الشاه اسمعيل الصفوي ، وارسل يقول للغوري انت والدي واسألك الدعاء لكن لا تدخل بيني وبين الصفوي — بينا الامر على ذلك وقد خلع الغوري على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وارسل اليه ابن عثمان يطلب منه سكرأ وحلوى فارسل له منها مائة قنطار في علب كبار عدا الهدايا والتحف ، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشراكسة وكسره شر كسرة في وقعة دامت من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، فقتل من عسكر ابن عثمان ومن عسكر الغوري خلق كثير ، فلما تحقق الغوري انه غلب اصابه للحال فالج ابطل شقه وارخى حنكه ، واستعد للركوب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الارض وباضت روحه من شدة تهره ، واكثر المؤرخين على انه لم تظهر جثته في المعركة . ويقول بعض مؤرخي الترك : ان جاو يشا من الجيش العثماني أمر بان يجث عن جثة قانصوه الغوري فقطع رأسه وقدمه الى السلطان سليم ، فامتعض منه السلطان وامر ان يضرب عنقه ، لتزلفه الى مولاه بقطع رأس الملك المقتول ولولا ان الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاويش مكتفياً بعزله .

وذكروا ان الغوري قد خانه لاول الامر ثلاثة عشر الفاً من جيشه ، امتنعوا عن الحرب عند الصدمة الاولى وابوا قتال الاتراك ، ومن الامراء الذين كانوا موالسين

على الغوري وخصامهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة فان السلطان سليماً كان فافوضها سرّاً ليوليها الشام ومصر على ما قيل اذا ساعده على فتح هذا القطر ، فلما انهزمت ميمنة الغوري وقتل الانابكي سودون العجمي وملك الامراء سيباي نائب الشام ، انهزم جانب كبير من العسكر وانهزم خير بك وهرب فانكسرت الميسرة ، وكان ابن معن وامراء الساحل صحبة خير بك والغزالي فقال الامير ابن معن لمان معه من رجاله وقومه : دعونا نتفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه . ولما اضطربت نار الحرب فر الغزالي وخير بك الى ناحية عسكر السلطان سليم بمن معهم من امراء الديار الشامية وبقي الغوري بعسكر المصربين اي عسكر الشام والمعوّل عليهم من امرائها من الشراكسة والوطنيين قد استسلم السلطان سليم فقاتلوا في صفوفه بدلاً من ان يقاتلوه ، ونائب الشام سيباي الذي كان يتطير منه الغوري لان اسمه يبدأ بحرف السين قد هلك دونه في المعركة بدافع عن ملك سيده لا كما كانت هذا يتوهم :

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحبي شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف الخيل انقاربه
ومن لا يكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عمن يواثبه

قوة الغالب والمغلوب وغنائم } ولقد اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين
الغالبين واضطراب البلاد } والماليك فاعلمهم على ان ابن عثمان كان في اربعين
الف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة ، وروى نامق كمال ان العثمانيين كانوا في ثمانين الفاً
وثمانمائة مدفع ، وان الغوري كان في خمسين الفاً لا مدافع لهم . وذكر الغزي ان الغوري
اتى من حلب الى دابق في ثلاثين الفاً . وذكر بعض المؤرخين ان السلطان سليم امر ان
تعد القنلى من الفريقين في مرج دابق فكان قتلى الشراكسة الف نفس وقتلى الروم
اي الترك اربعة آلاف . وكان فقدان المدافع من جيش الغوري وخيانة ربع جيشه
وعدم ثقته باحد ، من دواعي القضاء عليه وعلى سلطانه ، وأهم ذلك خيانة بعض
قواده ، وامتناع امراء البلاد عن الدفاع في صفوفه او يظنير لهم الغالب .

ولقد قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر ، وما قتل من رجال الغوري ، ثم تحول من مرج دابق ودخل حلب من غير ممانع ، ونزل في الميدان الذي كان السلطان الغوري نزل ، وانتشر خبر الهزيمة وقتل الغوري في أنحاء الشام فوثب الناس بعضهم على بعض ونهبوا الزروع وأخذوا الأموال ، واضطربت البلاد أيما اضطراب ، ووثب أهل دمشق بعضهم على بعض ونهبوا حارة السمرة وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم ، وكذلك فعلوا بتجار الفرج ونهبوا أموالهم ، وكانت فئنة هائلة ونهبوا يهوت أعيان الناس بدمشق من القضاة والتجار ، نخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك وبسبب فئنة ابن عثمان وفساد الأحوال بمصر والبلاد الشامية وتوجه امرأ الغوري وعسكره الميزوم إلى حلب ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وأثقالهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التي كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان كما قال ابن أبياس . وكانت بين أهل حلب والمماليك السلطانية إحنة منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة إلى حلب فقتلوا في يهوت أهل حلب غصباً وفسقوا في نساءهم وأولادهم ، وآذوا الحلبيين كل الأبداء ، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم .

وعلى الجملة فإن ما نال البلاد وأهلها في أواخر حكم المماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المائكة وفتح القلوب للسلطان سليم الأول ، وخدمه كثير من أهل الشام في البلاد قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالأخبار نثرى عن مقاتل الغوري ومواطن الضعف من دولته ، وقد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ أواخر القرن الماضي فكان ذلك من العوامل القوية في الفت في عضد الجيش الشرقي وإمالة القوة إلى الجيش التركي ففتحت الشام في وقعة واحدة ولم يبك على دولة المماليك إلا من كانوا باسمها يتمتعون بالخيرات وينالون مظاهرها ويسلبون نعمة الأمة . « وما قرعت عصا على عصا ، إلا حزن لها قوم وسر آخرون » .

دخول السلطان سليم { وفى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله اهلهما
حلب ودمشق } بالمصاحف والاعلام يحجرون بالتسبيح والتكبير
ويقرأون « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » وطلبوا منه الامان فأمّنهم وأنعم
عليهم ثم أخذ يجمع مالا من التجار سماء « مال الامان » ورأى خلفاء ارباب الطرق
الصوفية فسأل عنهم وهم يحملون أعلامهم ويرحلون الى الشام وأشار عليه خير بك
بان يقتلهم وكانوا نحو الف نفس ، واستسلم نائب قلعتها فأرسل السلطان اليه شخصاً
من جماعته أعور أعرج وفي يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال انه اخذ حلب
بضعف جنده . وطلع السلطان سليم الى القلعة فرأى فيها ما دهشه من مال وسلاح
وتحف وكان بها على رواية ابن اياس نحو مائة الف الف دينار وثمانمائة الف دينار .
وقال مؤرخو الترك انه كان فيها مليون دوكا . ورأى السلطان سليم من انواع
الاسلحة والزينة ما جمعه الغوري من الاموال من وجوه الظلم والجور والتحف التي
اخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر والشام
بعد الايوبيين وذلك عدا ما كان في بيوت الامراء وغيرهم من رجال الدولة .

ووجه ابن عثمان الجيش الى مرعش ففتحها وملك معها ثلاثة عشرة قلعة من بلاد
الغوري واحتوى على ما فيها من مال وسلاح . وذكروا ان العثمانيين عثروا في خيمة
الغوري في مرج دابق على مئتي قنطار من الفضة ومئة قنطار من الذهب وفي رواية
ان هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة وقيل انه وجد في قلعة حلب ثلاثمائة
الف ثوب كامل .

واقام السلطان في حلب ثمانية عشر يوماً وبايعه اهلهما بحضور واليهما خير بك ،
وتوجه اليه امير المؤمنين المتوكل على الله العباسي وكان جاء مع الغوري من مصر
ومعه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة وجلس بين يديه وخلع عليه وانعم عليه
بمال وردّه الى حلب ، ووكل به ان لا يهرب اي انه امره بأسلوب لطيف ، وصلى
صلاة الجمعة في الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثماني لقب خدام الحرمين
الشريفيين فكان ذلك كما قال راسم في تاريخه : فأل خير بان السلطان سليماً سيكون
صاحب دولة اسلامية كبرى . قال : وكان خيره باي (خير بك) احد امراء

الغوري استأمن السلطان العثماني لما نقهر جيش مصر فأخذ نفسه . وولى السلطان على حلب قراجا باشا .

سار السلطان في جيشه الى حماة وحمص ففتحت له ابوابها ، وباعه اهلها على الطاعة كما بايعه اهل طرابلس والقدس . وجاء دمشق فاستقبله اهلها ورضوا به سلطاناً عليهم فكانه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة . قال ابن طولون : « وفي يوم الخميس ثامن عشرين (شعبان ٩٢٢) وصل متسلم ملك الروم (الاتراك) الى القابون الفوقاني واسمه مصلح ، ميزان ، ثم وجه اثنين من الخاصكية ومعهما السميرية ويونس العادلي وابن عطية الناجر الى دمشق ، ليكشفوا هل يسلّمون أم يقاتلون ، وقد كانت الفتى اكابر دمشق ومشايخ الحارات على تسليم البلد فقلقت الخلق لهذين الخاصكين ومن معها وسلموهم دمشق . وفي يوم الجمعة تاسع عشرين دخل نائب الشام الجديد من قبل ملك الروم واسمه يونس باشا ، وخطب في هذا اليوم في الجامع الأموي المولوي ابن فرفور باسم ملك الروم وكذلك في سائر الجوامع ، ثم تابع دخول العسكر وفي يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم الى المصطبة السلطانية بارض برزة في عساكر عظيمة يقال ان عددها مائة الف وثلاثون الفا وعزل ملك الروم بدمشق عن نيابة دمشق يونس باشا وولى مكانه الامير شهاب الدين احمد بن يحيى . وفي يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة وهو خامس شهر كانون الاول ورابع الاربعينيات الشتوية اسافر ملك الروم من دمشق الى مصر لاختها من يد الشراكسة » .

مقابلة امراء البلاد	}	قابل امراء البلاد السلطان سليماً ومنهم الامير نحر الدين
سلطانهم الجديد		المعني الاول امير الشوف فخطب امامه بالنيابة عن
وتغير الاحكام		امراء البر خطبة جميلة استمال بها قلب الفاتح ، فأحسن

اليه وخلع عليه فسماه سلطان البر وأفضل عليه وعلى رفاقه من الامراء مثل الامير جمال الدين الارسلاني الهني الذي جعله والياً على بلاد الغرب والامير عساف التركماني امير بلاد كسروان وبلاد جهيل ، وامرهم ان يحسنوا السياسة لقومهم وان

يسعوا بكل ما يؤول الى عمران بلادهم ، وقدمت اليه الناس من كل جانب الا الامراء
 النيوخين القيسيين فانهم لم يأتوا لانهم كانوا من حزب الدولة الشركسية . وقال
 كامل باشا : ان امير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) وكان عهد اليه الدفاع عن
 دمشق من قبل الشراكسة قبل بالصلح الذي اقترحه عليه خير باي وخضع للسلطان
 سليم ، فزل هذا في القصر الابلق فجاءه محافظو قلاع سورية وامراء العرب والدروز
 برضون الطاعة له . ويقول ابن اياس : ان الامير ناصر الدين بن الحنش امير عربان
 حماة لما بلغه ان ابن عثمان ارسل طلائع عسكره وقد وصلت الى القابون بالقرب من
 دمشق لقيهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة وقتل
 منهم جماعة واطلق عليهم الماء من انهر دمشق حتى صار كل من دخل في تلك المياه
 بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة .

ولما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس وعلى الاحكام
 الشرعية فتعطلت الحدود . قال الغزي : ولما بلغ الامام علي بن محمد المقدسي ان
 العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات نغم الدم من كبده وتمنى الموت ، للقيبر
 الذي اصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغير الاحكام وقال في دخول السلطان سليم
 دمشق هذه الايات :

ليت شعري من على الشام دعا	بدعاء خالص قد سمعا
فكساه ظلمة مع وحشة	فهي تبكيننا ونبكينا معا
قد دعا من مسه الضر من ال	ظلم والجور اللذين اجتمعا
فعلا الحجب دعا فانبعثت	غارة الله بما قد وقعا
فأصاب الشام ما حل بها	سنة الله التي قد ابدعا

هذا ما رواه مؤرخ ذاك العصر ، وربما كان فيما بلغه مبالغة نشأت من تعصب
 للدولة الشركسية او رجاء أخفق وكان يظن انه يتم على يد ابن عثمان من اقامة
 الحدود ورفع المظالم شيئا كثيرا في مدة قصيرة ، وما خلت دولة مها بلغ من سحقها
 وسحق القائمين بها من انصارها على الحق والباطل : وكثير من الامور اذا نظرت

اليها من وجهها الحسن رافتمك ، واذا ملت فيها الى الوجه القبيح احصيت عليها
بعض العيوب .

السلطان في دمشق وفي إجازة السلطان سليم جيشه في دمشق وقضى فصل
الطريق لفتح مصر . الشتاء فيها يعمر بعض المباني . وقال صولاق زاده :
ان السلطان سليماً كان مدة اقامته في دمشق يختلف في الاوقات الخمسة (كذا) الى
الشيخ محمد بدخشي في جوار جامع بني أمية وان السلطان سليماً لما كان يعتقد بالاستمداد من
ارواح الانبياء العظام الطاهرة وارباب المقامات الشريفة لم يغفل هذا المقصد مدة
اقامته في دمشق ، ولما رأى قبر العارف بالله محي الدين بن عربي قد تداعى وخربت تربته
امر بتعميره على ما يجب وانشأ بجواره جامعاً على اجمل طرز وعمر زاوية بقربه ووقف
على ذلك عدة قرى ومزارع . وقال ايضاً ان السلطان سليماً صرف الامراء والجنود
فأخذوا دستوراً الى بلادهم ليقتضوا فيها فصل الشتاء ، وجاء دمشق بعدان استراح اثني
عشر يوماً في المحل المسمى المصطبة .

وذكر ابن طولون ان النائب بدمشق الشهاب بن يخشي نادى في ٢ ذي الحجة
٩٢٢ بالامان والاطمئنان ، وان لا ظلم ولا عدوان ، ولا يحمل احد سلاحاً ، وان
لا يتكلم احد فيما لا يعنيه .

سار السلطان عن طريق البر الى غزة فعصت عليه ففتحها حرباً والنقي جيش
العثمانيين مع جيش المصري في خان يونس بين غزة والعريش ، فشتت الجيش
العثماني الجيش المصري ، ثم عصت غزة والرملة فجمع ثائر الغزاة فيها ، وكانت الوقعة
المهمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان اندحر فيها
المصريون وقائد جندهم الغزالي . قال ابن طولون وفي ١٦ ذي الحجة ٩٢٢ التقى
سنان باشا الوزير الاعظم للملك الروم مع جاب بردي الغزالي فكسر الغزالي فدقت
البشائر بقلعة دمشق وسلب بها نكث كثير ثم نادى النائب بالزينة واستمرت
مدة اسبوع .

ذهب السلطان سليم في جيشه الى مصر وقتل الملك الذي كان بايع له المصريون

بعد هلاك السلطان الغوري واسمه طومانباي ، وشتت شمله ففتح القطر المصري على ايسر سبب . قال ابن طولون : ولما وردت البشائر بفتح مصر زينت دمشق سبعة ايام ودارت مبشرو الاروام على بيوت الاكابر والحارات بالطبول والنايات ثم اتبعوها بزينة سبعة ايام لما ورد الخبر بان السلطان سليماً افني الشراكسة .

وعاد السلطان عن طريق البر الى الشام بعد تغيبه ثمانية اشهر ودخل دمشق (١١ رجب ٩٢٣) وفي يوم ٢٢ منه طلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء وتضرر الخلق بذلك ضرراً زائداً وتحقق ان السلطان عزم على الاقامة بدمشق فغلت الاسعار وعند ذلك شرع بعارة تربة ابن عربي وصرف عليها عشرة آلاف دينار ومن غريب التوفيق ان السلطان سليماً كان اعد في ذهابه الى مصر خمسين الف رجل لحمل المياه في الصحراء التي تفصل الشام عن مصر فامطرت السماء مطراً غزيراً اغنى جيشه عن ماء الروايا ، وسهل عليه قطع صحراء التيه على ايسر وجه :

واذا السعادة لاحظتكم عيونها نيم فالخاوف كلن امان

وبينا كان السلطان سليم سائراً الى مصر تأخر من جماعته بعض اناس في الرملة ، فشاع الخبر ان اهل المدينة قتلوه ، وبلغ ذلك السلطان فامر بقتل اهل البلد فقتلوا عن آخرهم ولم يبق فيها ديار ولا نافخ نار . ويقول القرماني ان السلطان امر بقتل طامة اهل الرملة عند عودته من مصر وقد بلغه الثقاق ان اهلها قتلوا من كان عندهم من العسكر المجروحين . وقال ابن اياس : ان الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة اشيع في غزة ان الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان ، فبادر علي باي دوا دار نائب غزة واجناده فنهبوا وطاق العثمانيين واحرقوا خيامهم وقتلوا من كان في الوراق والمدينة من العثمانية نحو اربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ومن كان بها مربضاً ، فلما ظهر ان الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الامراء رجع سنان باشا الى غزة فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوراق ، فجمع اهل غزة قاطبة وقال لهم : من فعل ذلك بنا قالوا : علي باي دوا دار نائب غزة ، واجناد غزة ، ولم تفعل نحن شيئاً من ذلك ، فامر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا فيها قماش العثمانية وخبولهم وخيامهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل

شوشنا على احد منكم قالوا : لا . فقال لهم : كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ، فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ، فعند ذلك امر عسكره ان يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح .

ونصب السلطان والياً على مصر خير باي نائب حلب ووالياً على دمشق جان بردي الغزالي نائب حماة و اضاف الى هذا القدس وغزة وصفد والكرك ، واما حمص و طرابلس والمدن البحرية فجعلها بأيدي عماله من الاثراك ، وبقي الحال على ذلك مدة طويلة .

قائـ شمس الدين سامي : ان جانبردي الغزالي كان قائداً عاماً للجيش الذي ارسله طومانباي لقتال السلطان سليم فغلب في الواقعة التي جرت في غزة وفر ثم رأى ان يستأمن السلطان سليماً ويخدمه ، فاعانه على قهر طومانباي وفتح مصر ثم كان سبباً لقتل طومانباي . ومكافأة لخدمته نصبه السلطان والياً على الشام . اما حلب فقد نصب عليها السلطان قهرجه احمد باشا بن جعفر لمكانتها ، ودام فيها والياً ثلاث عشرة سنة لغنائم وكفايته في خدمة دولته .

فتوق وغارات } ولما مهد السلطان سليم الاقطار الشامية والمصرية ورجع الى
وتأذي النكان } الشام عصى عليه الامير ناصر الدين محمد بن الخنش صاحب
صيدا والبقاعين وشيخ الاعراب (٩٢٤) ثم هرب واتهم الامير زين الدين والامير
قرقماز والامير علم الدين سليمان انهم من حزبه فقبض عليهم الغزالي وبعث برأس ابن
الخنش ورأس ابن الحرفوش الى السلطان سليم في حلب واطلق سراح هؤلاء المعتقلين
وكان الامير ناصر الدين كثير العصيان على نواب حلب بل وعلى سلاطين مصر .
ولما ملك ابن عثمان دمشق امنع من مقابله فأخذه الغزالي وقتله وحز رأسه هو وابن
الحرفوش وقبض على اربعة من مشايخ عربان جبل نابلس منهم قراجا بن طراباي
شيخ عربان جبل نابلس وكان اتفق على هذا عربان بني عطاء وبني عطية والسوالم وكسروه ،
فارسل الغزالي رؤوسهم الى السلطان ، فلما جرى ذلك اضطربت احوال جبل نابلس
وصار العربان ينهبون الضياع التي حول حاضرتها ويقتلون اهلها . وفي مدة اقامة السلطان
سليم في حلب لدن عودته من فتح الشام ومصر قتل بعض اشرار حارة بانقوسا ، ولما بلغه

ان الشاه اسماعيل الصفوي يريد ان يهاجم حلب اخذ بطيب خاطر الحلبين ورفع عنهم ما كان اثقل كواهلهم به من الضرائب والمكوس واخذ يعتني بتحصين حلب .

ومن اعمال الغزالي استيلاء العربان (٩٢٥) على الحاج الشامي فخرج اليهم ومعه نائب غزة بعساكر غرة ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وقتل منهم جماعة كثيرة وغنم اموالهم . وفي السنة التالية اتى الفرنج (ولا نعلم ان كانوا من البنادقة او البرنقاليين) الى ساحل بيروت وحاصروا من بها فكسروهم وملكوا مدينة بيروت وظلوا فيها ثلاثة ايام ، فلما بلغ ملك الامراء نائب الشام جان بردي الغزالي ذلك عين دواداره ^(١) ومعه الجم الكثير من العساكر فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج . وكان بين الفريقين واقعة هائلة قتل فيها كثير من الفرنج وأسروا منهم ثلاثمائة انسان وغنموا منهم اشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك ، وقيل اسروا جماعة من اولاد ملوك الفرنج وملكوا ثلاثة من كبار مراكبهم .

وفي ذهاب السلطان الى مصر وعودته الى الشام قاسى اهل البلاد من اعتداء جنده كثيراً ، فقطع الاجناد الاشجار ورعوا الزروع واخرجوا الناس من بيوتهم في البلاد التي احتلوها وتعذوا على اعراض الناس ، فتضرر الناس بذلك وعرفوا انهم اخطأوا في نفوذ ايديهم من ايدي الشراكسة لاول ما بدا لهم من قوة العثمانيين ، وخاب رجائهم في ان تغيير الدول قد يكون منه رحمة ، والغالب ان فيه نقمة لا نعمة ، خابت الظنون لما جاء دور العمليات وغلط في الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير وان الحظ يحظهم متى خفقت اعلامها عليهم وكانوا يرقبون طاعة العثمانيين منذ سنين رتبة هلال العيد ، للاستمتاع بحكمهم الرشيد وعهدهم السعيد ، ولطالما ساء حال من يهتمون للامر الجديد ويفتحون له قلوبهم وصدورهم بادي الرأي مع علمهم احياناً بتهورهم ، واي فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة الخالفة على عورات الدولة السالفة ، حبا بان يكون لهم او للبلاد شيء من الراحة والهناء اذا تغيرت الدولة .

محاسن السلطان سليم) / صرف السلطان سليم سنة وشهراً في فتح الشام ومصر
ومساويه ومملكه) / وهلك بعد مغادرته البلاد بنحو ثلاث سنين (٩٢٦)
وقد بالغ مؤرخو الترك في وصف فضائله خصوصاً من كتبوا بلسان الرسميات . وكثيراً
ما يكون في الروايات الرسمية نظر كبير اذا وضعت على محك النقد التاريخي . وكان
مؤرخو العرب أقرب الى الانصاف والثقة في وصف هذا الناحي الذي هو بلا مرء
نابعة العثمانيين او من نوابغهم بعد محمد الفاتح . ترجمه النجم الغزي في الكواكب
السائرة بقوله : كان السلطان سليم سلطاناً قهاراً ، ومملكاً جباراً ، قوي البطش ،
كثير السفك ، شديد التوجه الى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن اخبار
الملوك والناس ، وربما غير لباسة وتجنس ليلاً ونهاراً ، وكان شديد اليقظة
والتحفظ ، يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية
(التركية) والعربية .

وترجمه ابن اياس بقوله : انه لم يجلس بقلعة الجبل (بضر) على سرير المالك
جلوساً عاماً ولا رآه أحد ، ولا أنصف ظالماً من مظلوم ، بل كان مشغولاً بالذنه
وسكره ، واقامته في المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه ،
فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الشراكسة ، وما كان له امان اذا
أعطاه لاحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض ، لا يثبت
على قول واحد كقول الملوك وعاديتهم في أفعالم . وقال ايضاً : ان السلطان سليماً
قتل يونس باشا الصدر الاعظم وكان مقرباً جداً عنده ولكن ابن عثمان ليس له صاحب
ولا صديق ولا أمان منه لاحد من وزرائه ولا من عسكره ومن طبعه الرجح (الشغب
والهنة) والخفة ، ويجب سفك الدماء ولو كان لولده ، ويقال انه قتل أباه واخوته ،
لاجل مملكة الروم ، وآخر الامر انه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة .
وفي الواقع ان السلطان سليماً قتل وزيره حسن باشا في رحيله الى مصر لان
هذا لاحظ ان في قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه ، ولما غادر
السلطان مصر والف حمل تحمل امامه الى الاستانة ما غنمه من مصر من الذهب
والفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا في صحراء قطية والسبب في ذلك ان السلطان

اقترب من الصدر الاعظم وهو سائر معه وقال له : أرأيت كيف أصبحت مصر الآن وراءنا وغداً نبلغ غزوة . فلم يتالك الصدر ان أجاب السلطان : نعم ولكن اي ثمرة حصلت من هذا التعب والمشقة ، ان لم يكن هلاك نصف الجيش السلطاني في الحروب ووسط الرمال ، وبقيت حكومة مصر بعد هذا في أيدي الخونة . فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضباً فضرب عنق الوزير في الحال ودفن في الخان الذي كان أنشأه بين مصر والشام يونس بن عبدالله التركي الدوادار بالقرب من غزوة فدفن يونس باشا في خان سمي يونس الدوادار وعهد السلطان بالصدارة الى بييري باشا .

وقال الشرقاوي : ان خير بك لما دفع الى السلطان سليم مفااتيح مصر ردها عليه وولاه عليها الى ان يموت فشاوره على ان ابناء الشراكسة يريدون الدخول في جملة الاجناد فأجازه بذلك ، وشاوره على ابقاء أوقاف الشراكسة وهي نحو عشرة قراريط من ارض مصر فأجازه بابقائها على ما كانت عليه ، فتشوش وزيره وقال في مالنا وعساكرنا ، وتبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها ، فقال السلطان سليم : أين الجلال وكانت احدى رجله في الركاب فضرب عنق الوزير ووضع رجله الثانية في الركاب . وقال : عاهدناهم على انهم ان مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها وجعلناهم امراءها ، فهل يجوز لنا ان نخون العهد ونغدر ، واذا أدخلنا أبناءهم في جندنا فهم اولاد مسلمين ويغارون على ديارهم ، وأما اراضيهم فأصلها ملك القائمين ومنهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده ، فهل يجوز ان ننازع الملاك في املاكهم ، وانا أزلت الوزير كراهة ان يغير عليّ اعتقادي بتكرار كلامه اه .

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر وألطفه ، وكانت شديداً جداً على وزرائه قتل منهم سبعة لاسباب تافهة . وقال القرمانلي : انه خنق أخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر نفرأ وذلك حين توليه الملك وجرى عند الاتراك في حكم الامثال قولهم : من أراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ، لان لقب وزير كان شهادة على الموت العاجل . وقال صولاق زاده : في عصر سليم كان الوزراء ابدأ عرضةً للنفي ثم للقتل بعد شهر من انصبيهم ، ولذلك اعتادوا ان يحملوا معهم صكوك وصاياهم ، وكما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون انهم عادوا الى

الحياة بعد الموت . وقد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقي بأنه أفسى البشر قلباً لا يحلم بغير الفتوح والحرب اه . ولم يكن السلطان سليم يراعي من جميع رجاله الا المفتي الاعظم زينبالي علي افندي ، وكان هذا قولاً بالحق وكثيراً ما كان يرده عن مظالمه ، ويحول بينه وبين ازهاق النفوس بلا حق ، وقد انقذ بعمله من القتل مئات من البشر ، وهذا المفتي العظيم تولى مشيخة الاسلام ستاً وعشرين سنة على عهد ثلاثة سلاطين وهم بايزيد الثاني وسليم الاول وسليمان الاول .

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار اكثر من ثمان سنين وثمانية اشهر ، ولم يعمل في الشام الا ان اقرّ القديم على قدمه في أسلوب الاحكام ، وغنم ما تيسر من ثروة المالكين وأغنياء البلاد ، وزاد في الضرائب والمكوس ، ونصب حكاماً ممن استأمنوا اليه او خانوا الدولة الاولى واقربوا اليه من اهل البلاد ومن الحكام ، ووضع قيد الاسر منذ دخل حلب الخليفة امير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن امير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب آخر خلفاء بني العباس بمصر ، وأخذ معه لما انصرف الى الاستانة ، ثم التى الاختلاف بينه وبين اولاد عمه ابي بكر واحمد . وقال ابن اياس : ان السلطان سليماً تغير خاطره على الخليفة المتوكل على الله وأرسله الى مكان عسر وبعد سبعة ايام عن الاستانة يقال له السبع قلابات . والمظنون انه كان هناك آخر العهد به فقتله وأشاع بين الملاء انه مات ، ولا يستكثر ذلك من ملك قتل اياه لاجل الملك فضلاً عن اخوته وآله . ويقول « نامق كمال » : ان الخليفة العباسي قد تقلى لآل عثمان عن حقه في الخلافة في جامع أياصوفيا علناً .

وروى المؤرخون ان السلطان سليماً كان يريد ان يعمل عملاً نافعاً للامة باسرها . كان ينوي ان يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية فعاجلته المنية قبل اتمام هذا العمل الجليل . والغالب انه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر والشام وخطب له في الحرمين الشريفين فسمي فاتح ممالك العرب ، فرأى ان العرب في مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وان الترك وهم عنصر الدولة الاصيلي لا يشق عليهم ان يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق والارناؤد والكرد واللاز والشركس والكرج . ولو وفق السلطان سليم الى انفاذ هذه الامنية خلصت الدولة العثمانية في

القرون التالية من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جملة العرب عناصر كثيرة مهمة ولا رثقت اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطنًا لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة .

خارجي خان | أصبحت الشام بالفتح العثماني آمنة غزوات الشمال والشرق
اولاً وثانياً | والجنوب ، اذ أصبحت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من
هذه الوجهة ولكن أصبح أعداؤها في داخلها من نفسها ومن دولتها ذاتها . كانت
البلاد يوم كانت فيها قوى دائلة خاضعة للقوة . وقد فتحت الشام ومصر في الحقيقة
في وقتين مهمتين وما عداهما فناوشات لا يؤبه لها . فلما رحلت القوة وخلا الجو
لجان بردي الغزالي نائب الشام حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة وصعب على طبعه
الا ان يخون سيده الثاني كما خان سيده الاول :

ومن يتعود عادة ينحذب لها على الكره منه والعوائد املاك

ففأوض بعض امراء لبنان والعربان فوعده ان يماؤه على عمله ، ودعا لنفسه
بالسلطنة في دمشق وبايعه الناس على ذلك طوعاً او كرهاً ، ووافق على عصيانه جميع
العربان ومقدمي الممالك ولقب نفسه بالملك الاشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له
دمشق ثلاثة ايام واوقدت له الشموع على الدكاكين ، وقبل له الامراء الارض وقد
جمع العسكر الكثير ، وخطب باسمه على منابر دمشق وضربت السكة باسمه على الذهب
والفضة . وارسل الى امير الامراء بمصر ليقوم معه قومة واحدة وينزع حكم العثمانيين عن
مصر والشام فتم عليه للسلطان ، فقام الغزالي وحده مدفوعاً بتنشيط أهل البلاد
والممالك والعربان والاكراد اتباع كل ناعق للنهب والغنime ، وكثر الملتفون عليه
حتى تسحب الممالك اليه من مصر وكثروا سواده . وذكروا ان من اجتمع عليه من
الجند كان خمسة عشر الفا من الممالك والتركمان وثمانية آلاف ممن يضربون البنادق .
ولما بلغ قراجة باشا والي حلب موت السلطان سليم كان بعسكره في حيلان فرجع
الى حلب وحصنها واستخدم خلقاً كل انسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال
السلطان شهرين ، واعطى الانكشارية كل واحد الفين والاصهبانية كل واحد الفا

زيادة على الجامكية ، وخرج الى قرية سرمين وقرية دارينج ونهبهما فخرج اليه في الطريق امير شيزر من جهة نائب الشام الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وغنم منه جماعة وجهز رؤوسهم الى دمشق ، ودخل نائب حلب اليها مكسوراً ووصل عسكر الغزالي الى الانصاري وخرج اليه عسكر حلب . فأرسلت الدولة على الغزالي فرهاد باشا في ثمانية آلاف انكشاري عدا من انضم اليه من قوى الاناضول وكانت معهم ثمانية عشر مدفعا كبيرا .

سار الغزالي الى حلب ليستولي عليها فحاصرها مدة ولم يقدر عليها لصدق أهلها في قتاله ، وداهمه الجيش العثماني بما أتاه من المدد فانكسر ، وجاء الى حماة فتبعه العسكر العثماني واقتلوا معه فهرب منهم ، وقصد التوجه الى دمشق وخرب في طريقه قناطر الرستن على العاصي فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة عظيمة خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف انسان وقيل اكثر من ذلك ، بينهم عربات ومماليك وجماعة من عوام دمشق وفيهم أطفال وصغار من أهل الضياع وغيرهم ممن حضر الواقعة . قال ابن اياس : وكانت هذه الواقعة تقرب من وقعة تيمورلنك لما ملك الشام وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع وما أبقوا في ذلك ممكنا وليس الخبر كالعيان . ثم نودي في دمشق بالامان سنة ٩٢٧ وخرب في وقائع الغزالي نحو ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبهوت ، وأصاب حلب وحماة وحمص من خراب القرى وهلاك الانفس وذهاب الاموال شيء كثير .

وكان الغزالي لما جاء دمشق مهزوماً من الجيش العثماني قتل خمسة آلاف انكشاري كان السلطان سليم جعلهم حامية لدمشق عندما فتحها ، وذلك مخافة ان يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم وليمة وقتلهم على بكرة أبيهم شر قتلة . ثم دارت الدائرة عليه وتشتت جيشه فقتله خازن أمواله وجاء برأسه الى القائد التركي ، فذهب ودولته الموهومة لم ينل الشام منه الا الضغط والشدة بعدها :

فما هو الا خائض الوحل كلما تحرك منه ناهضاً راح راسخاً

قال المقار : ان الغزالي استولى على دمشق وطرابلس وحمص وحماة وحلب وخطب له الجامع الأموي بأنه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالاشرف ، وان الدولة أرسلت

عليه جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً وأربعة آلاف انكشاري ومعهم مائة وثمانون عربية ،
فالتقى عسكره وعسكرها عند قرية الدوير شرقي قرية برزة ، وتواصل العسكر الرومي
وركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر وقطع رأسه ،
ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية العسكر الهاربين الى الصالحية ونواحي دمشق وارتجف
الناس رجفة عظيمة وقتل من شباب الصالحية نحو الخمسين ومن كل حارة نحو المائة
وكذا من القرى وقيل ان عدد القتلى ٧٠٧٠ ، وهجم العسكر على الصالحية وجميع
الحارات والقرى فكسروا الابواب وحواصلها وبهوتها وذكابينها وغير ذلك وأذوا
النساء فضلاً عن الرجال فلم يحترموا صوفيّاً ولا فقيهاً ولا كبيراً وكانت النساء قد
اجتمعن بجامع الحنابلة ومدرسة ابي عمر وغيرهما فهجموا عليهم وعصروهن وأخذوا
بعض نساء وجوار وعبيد وصبيان ، وجيز الباشا رأس الغزالي ومعه نحو الف اذن
من المقتولين الى السلطان سليمان .

وبعد هذه الواقعة الهائلة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل آيأس باشا في دمشق
وفرنجات بك في طرابلس وقره موسى في غزة . اما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية
ومنقذها من الغزالي فقد ضج الناس من شدته وبأسه وتمثيله بالبري والمجرم
على السواء .

طبيعة الدولة } وقد بقي ارباب المقاطعات في الدولة العثمانية كما كانوا في
العثمانية } دولة الممالك بضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها ،
ويعرقون اللحم والعظم بعد ذلك لحسابهم ، مثل امير عرب الشام مدلج بن ظاهر من
آل جبار وكانت منازل قومه في سلمية وعانة والحديثة والامير نحر الدين المعني الاول
حاكم الشوف والامير جمال الدين الارسلاني حاكم الغرب وبني شهاب في وادي التيم
وبني الحرفوش في بعلبك وبني ساعد امراء البر وهوران وعجلون وغيرهم في غيرها
وكلهم أشبه بامراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن ، والمقتدر منهم الذي
كان على صلات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله ، ومن يجعل له وكيلًا
يرجع اليه في اعماله في دار السلطنة ، واذا غضب الوالي على الامير المتغلب يرسل

عليه جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة ٩٣٠ مع امير الشوف ، فيجرب
العسكر قراه ويستهنى امواله ويأسر اهله ورجاله ويسبي نساءه ، فعلوا ذلك مرات
في لبنان والبتاع وبعلبك ووادي التيم وغيرها من البلاد وينشأ هذا الغضب من
تأخيرهم عن تأدية الخراج . اما المظالم التي تنزل بالناس فحدث ما شئت ان
تحدث عنها .

كان من قواعد الدولة العثمانية اذا فتحت البلاد ان تولي امورها الكبرى لولايتها
وقضايتها والصغرى لاهلها ، وتلقى حبلها على غاربها لانهتم للنظيمها اهتمامها لتفج
بلاد جديدة ، واذ كان الولاة يتساعون مناصبهم على الاغلب بالمزاد في دار الملك ،
كان المزايدون في الاكثر من الساقطين في اخلاقهم ، لا يتأخرون عن ارتكاب
كل محرم ليسلبوا الرعية ما امكن فيملأوا خزائنها وخزائن من حملهم على رقاب الامة .
وساعد على ايغال العمال في الفساد قلة المواصلات وبعد دار السلطنة عن اكثر الولايات
فبين دمشق والاستانة مثلاً ١١٠٠ كيلومتر و ٣٨٦ ساعة من المسافة ، وان قدر
لارباب الظلمات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب وتعذر الاسفار في تلك
الامصار ، لبث شكواهم الى السلطان كان بعض اصحاب الشأن يحولون دون ذلك ،
فكانت ديار الشام كله يستأثر بها وال او واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون
مراقب الا من ذمتها ، فاذا كانا ممن تجردا منها فهناك البؤس والنخس ، وضياع
الحقوق وفساد النظام .

قال جودت في تاريخه : ان الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة الى دور
الحضارة لم يتخذ رجالها الاسباب اللازمة لهذا الانتقال ، وحصروا اوقاتهم في حفظ
انفسهم وشهواتهم ، بقيموت في العاصمة القصور الفخمة وفرشونها بانواع الاثاث
والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم ، فاضطروا الى الارتشاء وبيع المناصب بالمال
وتلزم البلاد واقطاعها بالاثمان الفاحشة ، فضاق ذرع الاهلين ، واضطر كثير من
اهل الامة ان يهجروا الارض العثمانية الى البلاد الخارجية ، وترك غيرهم القرى
وجاء الاستانة فراراً من الظلم فلم يبق مكان في الاستانة ، وتلاصقت الدور وتضايقت
انفاس الناس وكثر الحريق والابوثة ، وصعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الضخمة .

من الحبوب فأصبحت الحكومة تأتي بها من القاصية ، والتجارة ليست من شأن الحكومة اه .

من امثال الترك السمكة نفسد من رأسها ، وحقيقة ان فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة ايام كان يقبض فيها على زمام الاحكام غالباً جهلاء ظلام وصموا بسلب الناس بكل حيلة ، حتى ينعموا بما يجمعون في قصورهم ومصايفهم على خفاف الخليج والمضيق في فروق . واذا صادفت العناية ان تولى الصدارة رجال عظام على شيء من حسن الادارة وقوة الارادة وبعد النظر ، فات رئاسة النظار كثيراً ما تولاهما في السلطنة العثمانية الندماء والسخفاء بل الطباقون والطبايون والمزنيون والبساننة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي ، او الزوج الخريصان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون ويشاء ضيق عقولهم .

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها اذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو ، فلطالما ولي المشيخة الاسلامية في الترك اغبياء ادنياء في منشايم ومسلكهم ممن ليس لهم من العلم الديني الا قشوره وشارة اهله من جبة وعمامة ، وعلى نسبة وسائط بعضهم وكثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء احدهم الى المناصب العليا ، فكانت الوالي الذي يحكم الشام على الغالب اشبه بالقاضي . وهذه الطبقة لا تقرب من اهل البلاد الا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد بالطبع . ومثل هؤلاء الرجال اذا كان لهم قوة يستندون اليها وهي جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه ومعناه . فان هذا الجيش الذي خدم الدولة لاول امره خدمات جلي وفتحت به الفتوحات ووصلت الى فينا وحاصرتها عاد فمحق باختلاله واعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت ودمر كل بلد فتحت .

ولئن خلف السلطان سليماً ابنه السلطان سليمان القانوني وهو العاشر من ملوك آل عثمان سنة ٩٢٦ وكان على جانب من العقل وحب القانون ، الا ان الشام أصبحت في ايامه الطويلة التي دامت ٤٨ سنة في معزل لان السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثنتي عشرة مرة وخرج في اكثرها ظافراً ، فلا بهمه كآكثر اجداده واحفاده من كل بلاد مفتوحة الا ان تضرب السكة ونقاء الخطبة باسمه ، فكانت الشام جزءاً

صغيراً بالنسبة لضخامة ملكه ، فلم ينلها منه شيء من العدل والاشراف ينسبها ما لاقته في القرن السالف من التردد والانحلال .

وكان السلطان سليمان بطاشا كائمه ولكن لم يشتهر شهرته ، هاج مرة اهل حلب في اوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاخي والمفتي فصدرت ارادته السنية بقتل جميع اهل حلب لولا ان كان في الصدارة اذ ذاك رجل عاقل اسمه ابراهيم باشا ، فالغى هذا الامر البربري واكتفى بقتل زعماء الثورة . وابراهيم باشا كان على جانب من الاخلاق الحسنة والذكاء تولى الصدارة من سنة ٩٢٩ — ٩٤٢ اي ١٧ سنة وقام باصلاحات مهمة ثم قتله السلطان وندم على قتله ، ولا عجب اذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الاكبر مصطفى وحفيده وابنه بايزيد واولاده الخمسة على افطع صورة .

كوائن داخلية } ومن الاحداث في الشام بعد فتنه الغزالي ما وقع في سنة
وامراء المقاطعات } ٩٢٧ من ثورة جماعة من عربان دمشق على نائب الشام
اياس باشا ، فلما خرج اليهم ووقع معهم انكسر وجرح ورد الى دمشق وهو مكسور
وقتل من عساكر الشام كثير ومن عربان جبل نابلس ايضاً ، وكانت فتنه هائلة
بدمشق . وفي سنة ٩٢٨ كان مقتل حسن وحسين اولاد الامير عساف في بيروت ،
وذلك لما كان من الاختلاف بينهما وبين اخيهما الامير قائد به على الحكم فتوسط
بينهما حتى طلبا الصلح ونزلا على اخيهما قائد به فغدر بهما وقتلها فحكم قائد به بلاد
كسروان حتى مات سنة ٩٣٠ وخلفه الامير منصور ابن اخي الامير حسن وامتد حكمه
الى بلاد عكار . وكانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد اغا شعيب من اهل
عرقه ويستأجر الامير منصور بلاد جبيل والبترون وجبة بشرة والكورة والزاوية
والضنية . وفي سنة ٩٣٠ جهز والي دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز في الشوف
فاننصر عليهم واحرق قرية الباروك وثلاثاً واربعين قرية ، وارسل الى دمشق
اربعة اجمال من رؤوسهم فعلقت على القلعة ورجع معه مجلدات من كتب الدروز ،
ثم ارسل اربعة اجمال من رؤوسهم واحرق نحو ثلاثين قرية ونهب قرية البرج وسبي نحو ٣٦٠
من النساء والاطفال وغنم ما لا يحصى من البقر والجمال والغنم وغير ذلك .

وفي سنة ٩٣٥ وقع قتال بين اولاد شعيب واولاد سيفنا امير التركمان وقتل علي الشعبي في عرقة ونولى اولاد سيفنا عكار ثم قتلوا محمد اغا شعيب حاكم طرابلس قدام القاضي فاعطاهم القاضي فتوى بانهم ابرياء من دمه وانه هو الزمهم بذلك . وفي سنة ٩٤٠ وقعت فتنة اهلية في جهات العاقورة وجبة المنيطرة في لبنان نشأت من خصام بين مالك اليميني وهاشم العجمي من مشايخ العاقورة ، وكثرت الدسائس بين بني الحرفوش امراء بعلبك وآل سيفنا حكام طرابلس ، واخذوا ببناء العم يقنلون اولاد عمهم للاستئثار بالامارة ، وخربت بعض تلك الديار واحرقت ، ومنها ما نزع سكانه عنه . قال الشهابي : وكبر قدر بني حبيش عند ابن سيفنا وصاروا متصرفين في تدبير حكمه وبقيت العاقورة خراباً سبع سنين لم يقطن فيها احد . ثم ان القيسية سكنوا في بلاد طرابلس واستحصل اليمينية امراً من نائب دمشق ورجعوا فبنوا العاقورة ثانية وفي سنة ٩٥١ توفي الامير نجر الدين بن عثمان بن معن الذي حكم من حدود يافا الى طرابلس وبني بنايات وقلاعاً عظيمة واستراح الناس في حكمه واطاعته العرب وخاله ولده الامير قرقماز وبعد وفاة الامير نجر الدين امتد حكم الامير منصور بن عساف من نهر الكلب ببغروت الى حدود حمص وحماة وقوي بماله ورجاله .

مهلك السلطان سليمان } توفي السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤ ولا شأن
وتولي سليم السكندر } للشام في عهده الا ان تظهر شعورها باخبار انتصاراته
وغاراته ، وفتح قلاعه ومعاقله التي كان يملأها بجند الانكشارية ويفرق قوى الدولة ،
ولاجل ان يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقضي له من
النفقات الباهظة ما انمو به قوة ابناء البلاد ، وكانت اهل الاسلام يودون بعد
تكبير رقعة الملك في آسيا ان تصح ارادة الدولة على فتح فارس وقد بدت امارات الحرم
فيها فتنصل بالهند ، وذلك خير من ان تفتح البحر وتجارب امبراطور المانيا وتؤلب عليها
دول اوربا . ذكر ضيا باشا ان الاتراك بددوا شملهم في الحروب والقلاع والبلاد
البعيدة وجعلوا انفسهم في اوربا وراء سور من المرابطين يقلي عكهم وتربيتهم يوماً
فيوماً ، وفيه ام من الخروا تين والبلغار والروم من لم يقبلوا الاسلام ، وفي آسيا العرب

والاكراد والزيدية والشيعة الذين نشأوا وكبروا يبذر الفساد الذي بذره الشاه اسمعيل ، فكان الاولون خصماء للاسلام والآخرين خصوم الاتراك ، وما كانت مناداتهم بنصر السلطان الا من الالسن لامن القلوب اه .

خلف السلطان سليمان ابنه السلطان سليم الثاني ، وهذا لم يذكر اسمه في الشام الا على منابرها فقط لانه كان شريباً خميراً حتى لقب بسليم السكير (مست سليم) وله من اعمال الخلاعة ما ينجح منه ، ولم يخرج من الاستانة للغزاة وهو اول ملك من آل عثمان تحلى عن الحرب بنفسه ، ومات على سريرته في قصره ، على حين كان اجداده كلهم يموتون في الحرب وفي طريق الغزو والفتح . وفي ايام السلطان سليم الثاني فتحت قبرص وكانت للبنادقة وهلك واسر من اهلها نحو ثلاثمائة الف انسان في بعض الروايات .

هلك السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٢ بعد ان حكم ثمان سنين وستة اشهر وخنقوا اولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة . وفي ايامه جاء امثال محمد باشا الصقلي من الصدور العظام ، الذي تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الاصلاحات ، واهمها اثخانها في العصاة وارباب الدعارة ، وجاء غيره من الرجال الذين يعدهم الاتراك من العظام بحسب عرفهم . ولكن الشام لم تر طلعة هذا الملك . كما انها لم تشهد من والده من قبل شيئاً من خطط الاصلاح ولا من القوانين النافعة ، ولا شاهدتهم او وكلاءهم يشرفون على البلاد ليرفعوا الضيم عن الناس ، وفي عهده (٩٨٠) وزع القشلق (اي العساكر المشتية) على بلاد الشام ونهب عسكر الدولة بلاد لبنان وما اليها وسلبوا سائمتها واسرفوا في الظلم ، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها ، واقفرت في لبنان قرى كثيرة وفي الدر المنظوم انه قتل من الموارنة في تلك المعمة نحو ثلاثين الفا (؟) عدا الذين قتلوا في ليماسول من بلاد قبرص حين حاصرها الاتراك سنة ١٥٣٨ م وفتحت ٩٧٨ .

عهد السلطان مراد الثالث (وفي سنة ٩٨٢ تولى الملك السلطان مراد الثالث وحملات على ارباب الدعارة .) نفقت اخوته الاربعة وكانت همته مصروفة الى توسيع حدود مملكته ايضاً وفي ايامه (٩٩١) وجه عسكراً الى لبنان . الحرب الموارنة

وذلك لانه قدمت اليه شكاوى من طائفة الروم القاطنين في سواحل مدينة طرابلس بانهم اخربوا تلك الكور . وفي سنة ٩٩٣ ولى السلطان خسرو باشا ايالة الشام وجاء دمشق وتخاصم مع محمد علي باشا الوند الوالي السابق مدة شهر ، ووقع بينهما الجدل واستقرت الحال على تولية علي باشا وانفصل خسرو باشا ، وكانت مدة ولايته سبعة اشهر فعزل ثم خلفه جامورجي محمد باشا وبقي في الولاية اربعة اشهر ثم خلفه علي باشا مرة ثانية وبقي والياً اربعة اشهر . وفيها سرقت الخزينة السلطانية بينما كانت محمولة من مصر الى الاستانة في جون عكار فوجهت الدولة ابراهيم باشا وضربت على ايدي المعتدين وسار جعفر باشا حاكم طرابلس واحرق بلاد عكار ، وتقدمت الشكايات من حاكم طرابلس ضد الامير محمد بن عساف وضد امراء الدروز بانهم هم الذين سلبوا الخزينة ، فسار اليهم ابراهيم باشا ولما وصل الى عين صوفر حضر اليه عقاب بلاد الدروز فغدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل . ويقول كامل باشا : ان ابراهيم باشا لما جاء من مصر الى الشام كان في عشرين الف جندي ودعا امراء الدروز الى المعسكر فأبى ابن معن ان يجيب الدعوة لان والي دمشق مصطفى باشا كان استدعى اباه وغدر به وقتله فأقسم هو ان لا يجيب دعوة احد من رجال العثمانيين ، فأحرق الجيش العثماني ٢٤ قرية من قرى ابن معن وقتل الدروز القائد اويس باشا مع خمسمائة من جنده ، وطلب ابراهيم باشا ترحيلة فأرسل اليه ابن معن مئة الف دوكا و ٤٨٠ بندقية وخيلاً واشياء ثمينة ، وبعد ان تسلمها الوزير العثماني امر باحراق ١٩ قرية من قرى ابن معن وأعدم ثلاثمائة من رجاله ، وفي خلال ذلك كان الاسطول العثماني اخرج الى صيدا اربعة آلاف جندي وضرب جميع الساحل واخذ ثلاثة آلاف اسير . وقال البوريني : ان ابراهيم باشا لما خرج من مصر خرج باموال عظيمة وتحف كثيرة منها انه جعل للسلطان مراد تحتاً من الذهب مرصعاً بالجواهر العظيمة ورجع معه عساكر مصر ، وجمع عساكر الشام وحاكمها اذ ذاك اويس باشا وكبس جهل الشوف فقتل ونهب وحرق واخذ منهم اموالاً هائلة وحاصرهم محاصرة عظيمة حتى ان اميرهم قرقماز بن معن مات قهراً .

وفي سنة ٩٩٤ اراد جماعة من اقارب الامير علي الخرفوش صاحب بعلبك ان

ينزعوا حكومتها من يد ابي علي الشهير بالاقرع بن قنبر لانه ليس من اولاد الامراء ،
 وحكومة بعلبك موروثة لبني الحرفوش ، فعرف ابن الاقرع ما دبّر له فجاءه الفسا
 رجل جمعهم بنوا حرفوش من كسروان والشوف وعين داره وارادوه على ان يخرج
 بعياله وبمن يلوذ به حيث شاء فابى الا قتالهم ، واستنجد بالامير قرقماز بن الفريخ امير
 بلاد البقاع وبغيره من التركمان والعرب فاجابه من طلبه فخرج اليهم ، قلما النقي بهم
 انتصر عليهم وولى الدروز هاربين فتبعهم اهل بعلبك يقتلونهم ، وقتلوا منهم القاقثمانين
 قتيلاً في لحظة واحدة ولم يقتل من جماعته سوى شخص واحد — البوريني . قال :
 وكان اصلح له ولجماعته طعاماً قبل المعركة فقاتل اعداءه ورجع والطعام لم يبرد وارسلت
 الرؤوس لدمشق لتعرض فيها . ثم قتل الامير علي بن الحرفوش ابن الاقرع وندم على قتله
 واخذت الدولة بعد ذلك الامير علياً الى دمشق بالامان وغدرت به وقتلته وقتلت معه
 عساقاً الكذاب الذي ادعى انه ابن الامير طرباي امير بلاد اللجون .

بنوعساف وبنو سيفا وابن فريخ وخراب البلاد [وفي سنة ٩٩٩ جمع الامير محمد بن عساف الرجال
 وسار لطررد يوسف باشا بن سيفا من بلاد عكار
 فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله وكن له سيف العقبة بين البترون والمسيلحة وقتله
 هناك ولم يكن له ولد فانقطع نسله وكان لبني عساف في كسروان ٢٣٢ سنة فانقرضت
 دولتهم تلك السنة . ذكر المؤرخون في حوادث سنة ٩٩٩ : ان منصور بن فريخ أعيد
 الى لواء صفد واعطى قرقماز لواء نابلس وصاحبه الدالي على لواء عجلون ، وذلك بالتزام
 مال لجهة السلطنة قدره ثمان كرات كل كرة مائة الف دينار غير ما ينوبها من
 الكلف . وقد خرب ابن فريخ هذا بلاداً كثيرة وقتل خلقاً كثيراً وكان في اول
 امره بدويّاً من خدام ابن الحنش فترقى به الحال الى ان التزم مالا عظيماً على لواء
 صفد ولواء نابلس وامارة الحج وعمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قب الباس وشرع
 في عمارة دار عظيمة خارج دمشق واستعمل فيها العملة بالسخرة وقد خنق في قلعة
 دمشق لظلمه وتخريبه البلاد التي استولى عليها خصوصاً بلاد البقاع وبلاد صفد
 وبلاد جبل نابلس .

وفي سنة ١٠٠٠ امر قاضي الشام مصطفى بن سنان بقيام النواب كلهم من المحاكم واغلاق ابوابها كلها فاعلقت ثم اغلقت اسواق البلد كلها ، وسبب ذلك ان الدفتردار محمود ارتشى من ابن الاقرع بخمسة عشر الف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فادى ذلك الى خراب بعلبك ظاهرها وباطنها ، ورحل اكثر اهليها حتى تعطلت الاحكام الشرعية بها وعتا بها ابن الاقرع واتباعه وصادر الناس مصادرة عظيمة ليوفي بها المال الذي التزم به لجهة السلطنة .

وكان المكس في هذه الحقبة حتى على الخمر والخمرات يتقاضاه كل من كان باشا الشام يلتزمه صاحب الشحنة وهو من كبراء الانكشارية بمال كبير يدفعه للبasha ويحرق الاخضرين في جبايته وكان من الولاة في ذلك الدور ببلاد الشام الصالح والطالح مثل سليمان بن قباد باشا الذي تولى نيابة القدس وقطع دابر المفسدين ثم تولى محافظة دمشق (٩٩٠) وكان ينوع العذاب للسراق وقطاع الطريق .

ومنهم من خلفوا آثاراً مثل خسرو باشا وعادلي محمد باشا وبهرام باشا من ولاة حلب فانهم بنوا مدارس وجوامع نفحة في الشهباء ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي دمشق سنة ٩٨١ خمس سنين وقد مدحه ابن بدير والمقار ووصفه هذا بانه صاحب الخيرات والحسنات وانه عمر تحت القلعة بدمشق الختان والحمام اللذين لانظير لهما واثنى ايضاً على مراد باشا الذي تولى دمشق سنة ٩٧٦ وعمر جامعاً في السويقة المحروقة وهو صاحب خيرات وحسنات ايضاً .

وأثنى المؤرخون ايضاً على الامير احمد بن الامير قانصوه الغزاوي الساعدي الذي تولى امانة عجلون وما والاها من بلاد الكرك والشوبك بعد وفاة ابيه الامير قانصوه وباشرا الامارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد بن السلطان سليم وقالوا : انه كان قليل الاذى للرعايا وهو من قوم لم قدم في الامارة في هاتيك البلاد كانوا في زمن الشراكسة امراءها وكان من اجداده الامير محمد بن ساعد اميراً في جبل عجلون . ومنهم درويش باشا نائب دمشق وصاحب الجامع المنسوب اليه وخان الحرير (٩٨٧) ومن ظلمتهم والي حلب حسين باشا المتوفى (٩٤٩) كان كثير القتل بغير سجل شرعي سفاكاً للدماء على صورة قبيحة من تكسير الاطراف والاحراق

بالنار والمحرق حي وغير ذلك منساولاً للرشي لا تنفع له سوى مضرة اللصوص ، ومن سفاكيهم العظام سنان باشا فاتح اليمين وصاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق تم انشاؤه سنة ٩٩٩ وقد ذكر ابن المقار جريدة مخلفاته التي أرسلت الى الاستانة بعد موته فاذا هي تساوي مئات الالوف من الدينانير لما حوت من الاعلاق والنفائس ، فمن أين لسنان هذا المال ؟ . وقد قال مؤرخو الترك ان الخيرات التي قام بها سنان باشا في ممالك مختلفة من جوامع ومدارس وتكايا وخانات نقدر نفقاتها بمليون لييرة ذهب بسكة زماننا ، وان ما عمره من المعاهد والمباني الفخمة في الاقطار التي نزلها نناهن المئة . لاجرم انه من العتاة الطغاة الذين يجيزون خراب البلاد ليعمروا جيوبهم وخزائنها . وأعمالهم الخيرية قد تأتي بالعرض اولح الشبهة . وأقبح بصدقة او عمل خير يكون أصل ما أنفق عليه من السحت وقتل الانفس وتخريب البلاد لاستصفاء أموال أهلها .

لا تظلمن لتعطي فالشحيح على ما فيه اعذر ممن خان او ظلما

حالة البلاد في [حكم الشام في هذه الحقبة من الزمن اي مدة ٧٨ سنة اربعة الحكم العثماني] من ملوك آل عثمان وهم السلطان سليم خان الاول والسلطان سليمان خان القانوني والسلطان سليم خان الثاني والسلطان مراد خان الثالث ، وبقيت روح الدولة في البلاد واحدة لم تتغير . ولئن جاء فيهم واضع القوانين السلطان سليمان القانوني وطال عهده على ما لم يقع له مثال في تاريخ هذه الدولة ، وكان معروفاً يجب القوانين في الجملة وضع بعضها حتى أطلق عليه اسم القانوني ، فان الشام كانت حاله بعد الفتح العثماني تنتقل من سيئ الى اسوأ والوالي او الولاية في هذه الديار هم الكل في الكل ويكونون على الاغلب ممن لا ذم لهم ولا قدرة الا على جلب المغنم لانفسهم وازهاق الارواح في ذلك العصر من الامور الهينة التي لا تستغرب .

بعد الفتح العثماني واندحار المماليك في مرج دابق والضرب على أيدي العصاة في فلسطين ، كان الرجاء معقوداً ان تتخذ البلاد الى الراحة ويرفرف عليها طير السعد والرغد ، فزادت المكوس والضرائب على وجه قاسٍ ، وكثر فساد جيش الدولة من

الانكشارية والسباهية ، فكان يأتي على الاخضر واليابس في المدن والقرى ، خصوصاً اذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتي فيها ، وهناك يزيد الاعتداء على بيوت الناس وأموالهم وأعراضهم ، وربما تخطفوا النساء والاولاد في الازقة رابعة النهار ، وفي اول حكم السلطان سليمان اي بعد اربع سنين من الفتح كان ما كان من عصيان الغزالي فهلك كثير من الابرياء في دمشق وحلب ، وارتكب الوزير فرهاد باشا لتسكين الفلنة والضرب على يد الثائر من الشدة ما ضاقت به الارض بما رحبت .

ويمكن حصر مصائب هذا الدور في مصادر ثلاثة ، وهي ظلم الوالي اذا كان عاتياً مرتشياً ، وظلم الجند في حلهم وترحالهم ، وشقاء البلاد بصغار الامراء من اهلها ، في الجبال والسهول وكبار ارباب النفوذ في المدن . وهذه الطبقة تطورت تطوراً جديداً في عهد العثمانيين فكانت من اكبر الاسباب في فساد البلاد ، ولو صلت وسلمت من ظلم بعضها بعضاً لما استطاع الوالي التركي والقاضي التركي والقائد التركي ان يعملوا مباشرة في هذا القطر عملاً مضرراً . واهم من هذا وذلك ان الدولة العثمانية على عهد عزها لم تفكر الا في الفتوح وفي حرب من يجاورها من صغار الامراء والملوك حتى اذا كانت ايام اِدبارها وهي تبدأ من اواخر سلطنة سليمان القانوني ، كانت همها مصروفة الى قمع الفتن الاهلية ، ورد عادية اعدائها عن بلادها الواسعة .

ان ابن الشام لا يهتم كثيراً اذا بلغت جيوش الدولة العثمانية اواسط اوربا في فتوحها وفتحت فينا وبودابست ، واذا فتح السلطان سليمان زهاء ثلاثمائة حصن وقلعة ، واصبح اسمه في الغرب مضرب الامثال في الرهبة ، فكانت بعض الامهات يخوفن ابناهن باسمه اذا ارادوهن على الرقود والكف عن البكاء . ولا يهتم ابن الشام ابداً اذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من اموال المغانم والمغانم ، ما دامت طرق الجباية في بلاده مختلة منهكة لقواه ، وما دام الولاة يسنون لاف يأخذوا المكوس لانفسهم من الخانات ومن المسكرات ، وما دامت الضرائب تستوفي حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل اليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان والايجار ، وما دام الامن مخنل النظام وأهل البادية

والصوص الاعراب على عاداتهم في السلب والنهب ، ومن المتعذر ان ينصف المظلوم من الظالم وان تعمل الدولة في باب العمران جزءاً مما تأتي في تخريبه .

وضع السلطان سليمان قوانينه وما ندرى اذا كانت وصلت الى هذه الديار ، وهب انها اثبتت اليها فهي في السجلات محفوظة على الاغلب لم يطبق منها الا ما لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل بمضامينه . وما دام القانون السماوي الذي عملت الشام به منذ الفتح الاسلامي غير نافذ على ما يجب فما الحال بقانون يعمله رجال قد يغيرون من الفد اجتهادهم وهو غير مطبق المفاصل او يتعذر تطبيقه وانفاذه .

بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسميات وأخذت تلقي الشعب بين العلماء ، وذلك برتب اخترعتها لهم وجرايات أدرتها عليهم ، فزادت لاجل هذه النفقات الضرائب والخراج على الامة وكثر التنافس بينهم ، وقلّ القوالون بالحق من رجال العلم ، وانشأ معظمهم يدلسون ويوالسون ويتمدحون السلطان مها ضل وغوى ، وارتكب اغلاطاً في ادارته وسياسته . وسهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب والرواتب ان يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى بقتل الابرياء ممن تغضب عليهم الدولة ، وكان الذين يقتلون كل سنة على هذه الصورة عدداً من الناس لا يستهان به وفيهم العاقل والدراكة ، وكل من في قتله راحة للدولة او مصلحة يتوهمها السلطان وبعض الزبانية الطغاة في الولايات . وقد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر اي مدة ٧٨ — خمسة واربعون والياً وعلى حلب سبعة عشر ولم يحس الناس بتبدل نافع في حكم العثمانيين عن عهد المالك حتى بعد ثمانية عقود من السنين .

العهد العثماني

من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠



عهد محمد الثالث وامراء
الاقطاعات وفتن
دخل القرن الجديد والبلاد في حالة شدة تسير من
بؤس الى بؤس ، وتعاقب تبدل الولاة على الشام
والسعيد منهم من كان يحول عليه الحول ، واكثرهم يقيمون فيها اشيراً ثم يصرفون
ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم ايلماً ومنهم سبعة ايام ومنهم ثلاثة ، وتعاقب
على دمشق خلال هذا القرن واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة واربعون والياً ،
فكان الوالي من ثم لا يتمكن من الاصلاح ان اراده وقلبه متعلق ابدأ بثبات منصبه
والغالب انه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المتنوعة ليوفي ما عليه من المقرر لجماعة
الاستانة من الاموال وكان الولاة يتساعون الولاية ابتغاءاً والمزايد الاكبر هو الذي
توسد اليه قال راعم في تاريخه : امر السلطان مراد ان يكتب الى احمد باشا
كوجك والي الشام بان يدفع الى السلحدار باشا عشرين الف ليرة ويبقي في منصبه
فاضطر الوالي ان يؤدي المبلغ .

ومن اهم ادوات التخريب في هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد
الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الزعيرة ، يستطيلون على اموالها واعراضها ويثلمون
شرفها ويذلون اعزتها ، وهم القوة القاهرة في البلاد لا ينالهم من الناس اذى وكل
اذاهم لاحق بالكبير والصغير . وكثيراً ما حاول الولاة ان يخففوا من غلوائهم ليستأثروا
بالقوة دونهم او يرفعوا عن عاتق الامة التبعة بعض شرورهم ، فيسفر قتالهم عن زيادة

ايصال الشرور الى رؤوس الناس على ما يأتي تفصيله في هذا الفصل الغموسة حوادثه بالدماء .

كان المتغلبون على اكثر البر في اوائل القرن ، الامير شديد بن الامير احمد حاكم العرب من آل جبار وكان كلقبه واسمه ظالماً جباراً عنيداً . قال كاتب جلبي : وما زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لامراء العرب وامراءهم هم عرب آل جبار وهم قبيلتان آل حمد وآل محمد يمتد حكمهم الى جهات حلب والرقه . وكان الامير قرقماز المعني في لبنان ، والامير احمد بن رضوان في غزوة بعد الامير قانصوه امير عجلون وما والاها من بلاد الكرك ، والامراء بنو الحرفوش في بعلبك ، والامراء بنو شهاب في وادي التيم والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في نابلس ، والامير منصور بن فريخ البدوي على البقاع تغلب عليه بعد ابن الخنش وحكم نابلس وصفد وعجلون وانجاز اليه جماعة من جند دمشق واشتهر واخاف الدروز ثم شن الغارة وقتل منهم مقلنة عظيمة وقد خرب بلاداً كثيرة وقتل خلقاً حتى اخذه وزير دمشق وقتله سنة ١٠٠٢ . قال البوريني في سنة ١٠٠٢ ذهب على حصار قلعة الشقيف النفوس النفيسة والاموال العظيمة ، حاصرها والي دمشق ونازل قلعتي الشقيف وقلعة بانياس ، وكاننا مغلقين على جماعة ابن معن من السكبان وغيرهم من الاشقياء .

وفي سنة ١٠٠٣ توفي السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه محمد خان الثالث فقتل يوم جلوسه تسعة عشر اخاه وعشر جوار حاملات من ابيه ثم ابنيين له وكان مع ذلك على رواية الحبي صالحاً عابداً ساعياً في اقامة الشعائر الدينية واوصافه كلها احسنة وهو مظفر في وقائعه عالي الهمة . لم ينل الشام شيء من تدين محمد الثالث وطالبت الحكومة الاهلين باموال سنين فلقوا شدة وعناء .

ذكر المقدسي في حوادث سنة ١٠٠٤ انه جاء ساع من الباب العالي يأمر بان يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء واولاد المكاتب في الجامع الأموي ، ويقرأوا القرآن ويدعوا لعساكر الاسلام بالنصر ، وما اعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم المذكورين وطلب الدعاء منهم ، فليت شعري باي لسان يدعون وقد اشتهر انهم يطالبون الرعايا بعوارض سنين جديدة وعتيقة وطلبوا اليهود بمال عظيم اه .

وقال ايضاً في حوادث سنة ١٠٠٥ انه استقر في دمشق كيوان بلك باشي (رئيس سرية) منشيء الظلم بالشام سرداراً (قائداً) بباب صاحب الشحنة ، فشرع يصادر الناس ويسلبهم باطناً وظاهراً ، وكثرت القتل في ازقة دمشق والطرق والاسواق ، وكان الانسان يمشي فلا يسمع الا من يقول غرموني اربعين قرشاً ومن يقول سبعين قرشاً وثلاثين وعشرين واكثر واقل . واصطلم الناس من كثرة الظلم وبقي من يخشى الفضيحة يحمل الجريمة الى كيوان المذكور قبل ان يرسل اليه . هذا ما كان يجري في عاصمة الشام على مرأى ومسمع من القريب والغريب ، فما بالك بما كان يجري في انحاء البلاد حيث تقل المراقبة وتضعف قوة المقاومة ، ولكن تهباً لاخبارها هنا من دونها او بعضها حتى وصلت الينا وهناك ضاعت اخبارها كما ضاع كثير من الكوائن في هذه الديار على عهدها الحديث . وظهر في ايام احمد مطاف باشا كافل حلب (١٠٠٥ — ١٠٠٨) فساد كثير من العربات في انحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقتتلوا فانهمز عسكر حلب مع انهم كانوا الف فارس واخذ عرار امير العرب يتبعهم ويقتل منهم ويغير .

وفي سنة ١٠٠٧ كانت الواقعة في نهر الكلب بين ابن معن وابن سيفا بسبب بلاد كسروان فانكسر ابن سيفا وقتل ابن اخيه علي وتشتت جيوشه وتولى الامر نحر الدين المعني على بلاد كسروان وبهروت . ويوسف باشا سيفا كردي الاصل استولى على جهات طرابلس لما اهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركماني ، واستقل بها واخرج بواسطة عسكر السككبان جند الانكشارية من بلاده ونكل بهم وصار له بذلك نفوذ وسلطان .

وقال نعيما في حوادث سنة ١٠٠٨ ان عسكر الانكشارية في دمشق جاؤا حلب بحجة جباية اموال الدولة ، وتسلطوا على فقرائها وعملتها وتجاوزوا الحدود في الاعتداء ، واساءوا استعمال سلطانهم في الرعية ، فقطع والي حلب رأس سبعة عشر رجلاً منهم ، ودام الشقاق بين الاهالي والانكشارية مدة طويلة ادى الى سفك دماء كثيرة بغير حق اه . ومن ذلك اعتداء خداويردي سردار حلب على الناس وفتكه ونهبه وتبعديه حتى ضجر منه اهاليها وحكامها حين قامت الحرب بينه وبين نصوح باشا وبينه وبين

ابن جانبولاذ ، وكان هو واحفاده قد عاثوا في البلاد وفنسوها ومنه نشأ طغيات
العسكر الشامي .

ومن فتن هذه الايام خروج عبد الحلیم اليازجي رأس جماعة الامير درويش
الرومي حاكم صفد ، وارسال خسرو باشا نائب الشام عسكرياً الى الامير درويش
ليسلم الولاية الى آخره ، فقاتل عبد الحلیم اليازجي عن مخدومه بالسيف فاخذ الامير
درويش الى دمشق وصلب بامر السلطان . اما عبد الحلیم وجماعة درويش فساروا
على ساحل البحر الى طرابلس ثم الى جانب حلب ثم دخلوا مدينة كاز فقتلوه لهم نائب
حلب وارسل جيشاً لمحاربتهم ، فقتلوا من اصحاب عبد الحلیم مقتلة عظيمة ، وخرج
عبد الحلیم بمن بقي معه من اصحابه المفلولين ، وما زال يحارب جيوش السلطنة في
الاناضول حتي هلك سنة ١٠١٠

وفي سنة ١٠١١ باغت الامير يونس بن الحرفوش جبة بشري ، فلما بلغ ذلك
ذلك يوسف باشا بن سيف جمع السكبان الذين عنده واهل البلاد وهاجم مدينة بعلبك
فاجتمع بيت الحرفوش في القلعة ، ونهب بنو سيف بلاد بعلبك وحاصروا قلعة حدث
بعلبك خمسين يوماً وملكوها وبعد ان قتلوا بعضهم ثم نادوا بالامان . وفي سنة ١٠١٤ كانت
وقعة جونية بين يوسف باشا سيف وبين الامير نجر الدين المعني فانكسر عسكر ابن سيف .

عبد احمد الاول وفئته } وفي سنة ١٠١٢ توفي السلطان محمد الثالث وخلفه
ابن جانبولاذ وغيرها } السلطان احمد الاول ولم يتغير شيء من حالة البلاد
وغاية الامر ان الخوارج في ايام السلطان الجديد اشتدت شوكتهم فنال الامة
منهم كل حيف ودخلت في هرج ومرج من ذلك ، وفي ايامه ظهرت الخوارج
في جهات حلب وما زالت الامور في تخبط حتي خرج جانبلاط وادعى السلطنة واضطربت
الاحوال على ما سيجي . قال القرماني : وفي ايام هذا السلطان قام الطغاة والبعثاء ،
وانمحت من الوجود امهات الامصار وشمها البوار ، اما القرى والقصباء والرساتيق
والمزدرعات فاكثرت من ان تحصر .

قال العرضي : كان من قديم الزمان في دولة بني عثمان يرسلون شزيمة من عساكر

دمشق وعليهم شور بجي بحوالات اموال السلطنة فيحصل لهم الانتفاع ويخدمون عند الدفتردار وفي دار الوكالة وفي باب القنصل الفرنجي وفي كل مدة يرسلون غيرهم وعليهم شور بجي ، حتى قطن بحلب اعداد كثيرة منهم واتسعت اموالهم وكبر جاههم ، واستولوا على اغلب قرى السلطنة يعطون مال السلطنة عن القرية و يأخذون من اهلها أضعافاً مضاعفة ، وتبقى أهل القرية جميعاً خدمة لهم جميع ما يجمعونه لغيرهم لا لانفسهم .

ومن الكوائن ان خارجياً من السكبانية اسمه رستم جاء الى كلز ومعه من البغاة أجناد كثيرة ، وكان ضابط كلز عزيز كتحدا من جماعة حسين باشا بن جانبولاذ الكردي امير الامراء بحلب ، فبعث واستنجد بعسكر حلب ومنهم العسكر الجديد فخرجوا لنصرته ، فتقابلت الاجناد وقامت بينهم سوق الحرب والضرب فالتصر رستم على عسكر كلز وحلب وقتل عزيز كتحدا وقتل من العسكرين كثير وولوا منهزمين فنهب الخارجي كلز وصادر اعيان القرى .

ولما ولي نصوح باشا نيابة حلب — وكان متغلباً في حكمه عسوفاً قوي النفس شديد البأس كما قال المحبي — كان لجند دمشق اي الانكشارية الغلبة والعتو فيذهب منهم في كل سنة طائفة الى حلب وينصب عليهم قائد من كبارهم وكانت بعض كبار الجند قد تقووا في حلب وفتكوا وجاروا خصوصاً طواغيتهم خدا ويردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي وأمثالهم ، حتى رهبهم أهلها وصاهرتهم كبارؤها ، واستولوا على اكثر قراها ، فلما رأى نصوح باشا ما فعلوه بحيث قلت اموال السلطنة ، وصارت أهالي القرى كالأرقاء لهم رفع أيديهم عن قراها ، وجالاهم عن تلك البلاد ووقعت بينه وبينهم فتنة بل فتن وعجز عن اخراجهم فاستعان بحسين بن جانبولاذ فبعث هذا ابن اخيه الامير علي بعسكر عظيم ، فاستولى نصوح باشا على قلعة حلب ووضع متاريس تحتها واستعد للقتال ، فأخذ العسكر الدمشقي باب بانقوسا واستعدوا وجمعوا جموعهم ، وهم لا يعلمون ان حسين باشا جانبولاذ بعث عسكره ، ودخل الامير علي في اليوم التالي بالعساكر المتكاثرة فتبعهم نصوح باشا ومعه الامير علي الى قرية كفرطاب فوقع بينهم حرب فانهزم الدمشقيون بعدما قتل منهم جم غفير . ثم خرج

نصوح باشا في عسكره الى كلز فقابل حسين باشا بعسكره والنقت الفئتان فانكسر
نصوح باشا وقتل اكثر عسكره ودخل حلب منهزماً وأخذ في جمع الاجناد وبذل
الاموال لتكثير العدد والاعتاد . وبينما هو على ذلك جاء الامر بان حسين باشا عين
كافلاً للمالك الحلبية وعزل نصوح باشا ، فلبس نصوح باشا جلد الفخر وامتنع من
تسليم حلب لحسين باشا ، وأقبلت بعد اسبوع عساكر الوالي الجديد حسين باشا الى
قرية حيلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب ثانياً فانكسر ايضاً ، ونزل حسين باشا
بعساكره في أحياء حلب خارج السور وأغلق نصوح باشا أبواب المدينة وسدها
بالاحجار ، وفتح باب قنسرين وحرسه ، وقطع حسين باشا الماء عن حلب ومنع الميرة
والطعام عن المدينة ، ونصب نصوح باشا المتاريس على الاسوار وصف عسكره عليها
مع النكاحل ، وقامت بين الوالدين حرب شعواء ، وأخذ حسين باشا في حفر اللغوم
والاحتيايل على اخذ البلدة ، وانشأ نصوح باشا يحفر السراييب لدفع اللغوم ، وعم
الحلبين البلاء من المبيت على الاسوار وحفر السراييب ، ومصادرة الفقراء والاغنياء
كل يوم وليلة لطعام عسكر السكبان وعلوفاتهم ، وأغلقت الدكاكين وتعطلت
الصناعات ، وحرقت الاخشاب للطعام والقهوة ، واشتد غلاء الحاجيات وعدم القوات
للحيوان والانسان ، واستمر الحصار نحو أربعة أشهر وایاماً ، ثم تصالح نصوح باشا
وحسين باشا فخرج الاول واستولى حسين باشا على الديار الحلبية ، وشحنها بالسكبان
وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان .

ولما قتل حسين باشا خرج ابن اخيه الامير علي عن طاعة السلطنة ، وجمع جمعاً
عظيماً من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ، ومنع المال
المرتب عليه وقتل ونهب في تلك الاطراف ، الى ان تعهد الامير يوسف بن سيف
صاحب عكار للسلطنة بازالة الامير علي عن حلب فجمع له الجند من دمشق وطرابلس
والتقى بابن جانبولاذ (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيف ، فاستولى
ابن جانبولاذ على مخيمه ومخيم عسكر دمشق ، وبعث ابن جانبولاذ فاستولى على
طرابلس ، واستخرج الاموال من أهلها وأخذ دفائن كثيرة لهم ، ولم يستطع فتح قلعتها
ثم سار مع حليفه ابن معني صاحب لبنان وكان هو وابن شهاب صاحب وادي التيم

وابن الحرفوش صاحب بعلبك خرب بعلبك وأحرق قراها ، وخرب ابن جانبولاذ البقاع ووصل الى دمشق ، واقتتل ابن جانبولاذ مع العسكر الشامي فانقل العسكر الدمشقي ، وأرضوا ابن جانبولاذ بمال حتى فرج عن دمشق ، واستمر النهب في أطرافها ثلاثة ايام ، ثم سار الى حلب وجاءته الرسل من السلطنة تنقيج عليه فعله في دمشق ، فكان تارة ينكر فعلته ، وطوراً يحيل الامر على عسكر دمشق ، ويشرع بسد الطرق ويقتل من يعرف انه سائر الى أطراف السلطنة لا بلاغ ما صدر منه ، حتى أخاف الخلق ونفذ حكمه من أدنة الى نواحي غزة ، وصاهر ابن سيفا فامثل هذا امره ، وانقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو سنين ، وكان ابن سيفا بعد ان غلبه ابن جانبولاذ على دمشق ونهب ولايته التجأ الى الامير احمد بن الامير طرباي بن الامير علي الحارثي امير لواء اللجون .

وقال القرماني : ان ابن جانبولاذ لما ولي حلب جمع كل شقي من القبائل والعشائر ، ليأخذ ثأره من جماعة الانكشارية فالنقوه في مدينة حماة ومعهم محمد باشا الطواشي نائب الشام وعامة الجيوش من الكماة ، فانهمزم عسكر الدولة واستمر ابن جانبولاذ في أثرهم الى حدود دمشق فاستقبله الامير نحر الدين بن معن بن معه من الدروز وطائفة السكمانية ، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم .

ولما حدث ما حدث في البلاد من الفتن والغوائل عهد السلطان الى مراد باشا ان يعيد الشام الى حكم الدولة اذ قد ثبت انه خرج عن حكمه ، فجاء في عشرين الف فارس وعشرين الف راجل وقيل في اكثر من ذلك ، فبرز اليه ابن جانبولاذ في أربعين الفاً فغلب ابن جانبولاذ وهرب الى الاستانة وأقنع السلطان بحسن حاله ، وجاء مراد باشا بعد ان كسر ابن جانبولاذ في سهل الراج قرب المعرة وقتل من جماعته احد وعشرين الفاً وتسلم قلعتها بالامان ، وبالغ في قطع شأفة الاشقياء والسكبانية . وكان علي باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب ورفع اليها عياله واسبابه وولى عليها اظلي طوماش باشا وأمره بحفظها لمدة ثلاثة اشهر ريثما يرجع اليه بالنجدة من سلطان العجم ، ثم تجهز للسفر وحال خروجه من اراضي حلب وصل مراد باشا الوزير ومعه احمد باشا حافظ الشام ويوسف باشا ابن سيفا

وشددوا الحصار على حلب وافتتحوها ، بعد ان نصب مراد باشا المنجنيقات على قلعتها ،
ووعده اطي طوماش بالتيابة على حلب فاطمان وسلم القلعة ثم قبض عليه وقتله وضبط
القلعة ، وباع عيال علي باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشاً ، ثم
وقعت المناداة على المحافظين وكان عددهم فيما قيل نحو ثمانين ألفاً ، فقتلهم في اماكن
مختلفة واتوا برؤوسهم الى الوزير ولم ينج منهم الا القليل ، وكان الرجل يقتل العشرة
منهم ، ومهد الوزير امور حلب وخدمته جميع امراء العرب . وقالوا ان الامير
نحر الدين المعني فرّ الى البادية في جماعة الدروز والعربان بعد تلك الوقائع : لانه
أعان الخوارج على السلطنة . وللقيم محفوظ الدمشقي مرتجلاً ومؤرخاً واقعة دخول
السكبانبة مع ابن جانبولاذ الى دمشق في اوائل سنة ست عشرة بعد الالف نقلها
في التذكرة السكالية .

دخول الشام جيوش	بجمال قد رغبوا
كل كبردي غي	بهم الناس لغوا
ودروز ولشام	لقال ما صفوا
نهبوا الشام وآذوا	وعلى الناس بغوا
نهبوها في جمادى	أفخسوا أرخ طغوا

(١٠١٦)

ولم تقتصر فتنة ابن جانبولاذ على دمشق وحلب بل تساولت بعلبك والبقاع
وطرابلس وغيرها من البلاد . قال النجم الغزي : ان كافلي الشام وطرابلس دخلا
على أهل حماة وحمص وأمر اهلها باخلاء المدينين وكان ابن جانبولاذ في أثرها ،
فدخل هو وعساكره حماة وحمص ونهبوهما ونهبوا قراهما ، وانفق كيوان رئيس
مصرية دمشق مع ابن معن على العصيان وعلى مساعدة ابن جانبولاذ ، فذهب اليه واجتمع
به في الجوف بالقرب من نهر البارد من معاملة طرابلس ، فاستولوا على بلاد حماة
وحمص وعكار وجبلة واللاذقية والحصن وطرابلس وغزير وبيروت ، ثم اجتمع ابن
جانبولاذ وابن معن وكيوان وحاضروا دمشق على ما تقدم قال : وكان الامر مهولاً
واجتمع اكثر الناس بدمشق .

وقال ابن المقار في حوادث ١٠١٦ : انه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم السيمانية تناول ضررهم البلاد والعباد ، وأظهروا في الارض أنواع الفساد ، وحدث بين امراء الشام حروب وقتن عظيمة عم فيها النهب وخربت اكثر البلاد .

ومن الاحداث في تلك الايام ما رواه مؤرخو لبنان في حوادث سنة ١٠١٦ من ان الجند المشقى « وقبشلق » السلطاني تفرق على البلدان من حلب الى بلاد الشوف ، وكان عدده نحو اربع كرات والكرة مئة الف . كذا قالوا وهو عدد مبالغ فيه جداً ، وما نخال عدده بلغ الاربعين ألفاً ، قالوا : وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء ومن الضرائب التي كانت على الضياع والاديار . ووقع في زمن تولية كوجك سنان باشا كفالة دمشق وكان يتولاها سنة ١٠١٧ ان فرقة من عرب آل جبار المعروفين باولاد ابي ريشه نفروا من العراق فوصلوا الى تدمر ، وانضم اليهم قوم من طائفة السكبانية الذين هربوا من وقعة الامير علي بن جانبولاز . فعاثوا في تلك البلاد وقطعوا الطريق ، ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن قلندر والاسود سعيد ، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغلب عسكر السلطان وهرب منهم جمع ، ومن جملة الهاربين الجماعة المذكورون وكانوا نحو اربعمائة سكباني ، فلما انضموا الى العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبندق والعرب يضربون بالرماح والسيوف ، واخذوا قلعة القسطل وقلعة القطيفة ونهبوا المعصرة وقتلوا من بها من الرجال والنساء . فلما بالغوا بالقتل والنهب والغارة والعدوان قصدهم سنان باشا ومعه العسكر الدمشقي ، وانضم اليهم عرب المفارجة وكبيرهم عمرو بن جبير فادركوا العرب والسكبان في نواحي قلعة القطرانة ، فقتلوا من السكبان نحو ثلاثمائة رجل وامسكوا منهم نحو خمسين رجلاً ، ودخلوا بهم الى دمشق على متون الجمال وعلى كتف كل واحد منهم خشبة طويلة وهي وتد (خازوق) وفي اليوم الثاني اتلفوهم وفرقوا اجسادهم على احياء دمشق .

* * *

تخوفت الدولة من الامير نجر الدين المعني الثاني	}	الامير نجر الدين المعني
لتحصينه القلاع وامتداد سلطته في اصقاع الشام ،		

فارسلت عليه في سنة ١٠٢٠ الحافظ احمد باشا كافل دمشق في جيوش دمشق وكافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وامراء الاكراد في جيوشهم ونحو النصف من الفرسان في جيش مؤلف من ثلاثين الفا ، وحاصر ابن معن تسعة اشهر فلم يقدر ان يأخذ قلعة من القلاع ، فلما اعيتته الحيلة ارسل رجلاً من جماعته لمن في القلاع يقول : أنا مالي عندكم غرض بل ان للوزير الاعظم شأنًا مع الامير فقولوا له ان ينزل الى خيامنا وعليه امان الله ونأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير ونقره في اماكنه فقالوا : الامير ذهب في المركب الى بلاد الفرنج فلما تحقق ذلك رضي بنزول ام نحر الدين فقالت : نحن ما ضبطنا بلداً بغير اذن السلطان ، ولا انكسر عندنا مال ، فعند ذلك اعطت السلطان مائة الف قرش واعطت الوزير خمسين الفا والحافظ احمد باشا مثلها وانفصل الامر على ذلك .

هرب الامير نحر الدين الى ايطاليا تاركاً الحكم في لبنان وما اليه لابنه الامير علي واقام فيها خمس سنين وشهرين تعرف خلالها الى ملوك طسقانه من أسرة ميديسيس المشهورة في فلورنسة ، واطلع على طرف من المدنية الاوربية ثم عاد الى بلاده بعد مهلك خصمه والي دمشق فاستلم زمام الاحكام ولا سيما المسائل الحربية ، بقوة اعظم وتدبير احكم ، مستصحباً معه كثيراً من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية كما صرح كثير من المؤرخين ، وكان ابنه الحاكم في الظاهر وهو الحاكم في الحقيقة ، واخذ يحصن بلاده ويكثر الصلات الحسنة مع الفرنج ولا سيما مع الطليان ، وعقد معاهدة دفاعية هجومية مع اصحاب طسقانه فكانه ملك مستقل ، فخافت الدولة منه وكانت تعده من قبل عاصياً قوي الشكيلة ، واخذت تحاذره وتنتظر اليه نظرها المعاص عارف بمقاتلتها ، وانه لا بد له يوماً ان يقلب لها ظير المحن ويستقل كل الاستقلال عنها ببلاد الشام ، اذ بلغ اتباعه الى نحو مائة الف من الدروز والسكبان ولم يستول فقط على الشوف وجبل عاملة بل تعداهما الى عجلون والجولان وحواران وتدمر والحصن والمرقب وسلمية ، وسرى حكمه من صفد الى انطاكية وملك نحو ثلاثين حصناً مثل صفد ونيما وشقيف تيرون وعجلون وقب الياس وبعلبك والمرقب والبترون .

وفي سنة ١٠٢١ خرج احمد باشا بالعساكر من دمشق الى وادي التيم ونزل في

خان حاصبيا وهرب بيت شهاب اصحاب وادي التيم منها فهدم دورهم واتلف املاكهم ونهب حاصبيا (١٠٢٢) وفي سنة ١٠٢٣ خرج الحافظ احمد باشا من دمشق الى قرب الياس واجتمع اليه حكام صند وصيدا وبيروت وغزة وحماة وعشائرهم وامراء الغرب وبلبك ووادي التيم ، فوقع بين اهل الجرد والغرب والمتمن واهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه اهل الغرب والجرد والمتمن وعسكر الدولة كسرة عظيمة ، فاحرق احمد باشا قصر بيت معن في دير القمر وكان رئيسهم اذ ذاك الامير يونس وقرية عبيه . ثم جرت وقعة بين جماعته وجماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة احمد باشا وقتل منهم نحو خمسمائة قتيل واكثرهم من السكيان وكان عسكر الدولة نيفاً وعشرين الفا ثم امتنع (١٠٢٤) يوسف اغا من ان يتسلم حصن الشقيف وحصن ارنون الى ان يخرج منها اولاد معن اولاد العرب وبتصرف بها الاتراك تمام التصرف فشقى ذلك على الامير يونس واخذ في هدمها ، ولما انتهى الخبر الى الوزير فرح جداً وامر بخرابها ولبث المسلمون في تخريبها اربعين يوماً . وجرت (١٠٢٥) وقائع بين اولاد ابن معن واصحاب المقاطعات في لبنان وحرقت الشوف والجرد والغرب والمتمن وهلك كثيرون وكانت النصره للقيسية خربت بيت معن وكان بنو نيوخ امراء الغرب منذ سنة ٥٤٢ ميلون الى بني معن ، فلما حاربتهم الدولة انتهز علي بن علم الدين اليمني والي الشوف الفرصة وقبض على اعيان المعنيين وقتلهم واستصفي اموالهم ، ثم سار الى قرية عبيه فدعاه الامراء النيوخيون الى مأدبة في سرابتهم فاغتالهم وقتلهم كلهم صغاراً وكباراً فانقرض النيوخيون بموتهم .

عهد مصطفى الاول } وفي سنة ١٠٢٦ توفي السلطان احمد الاول وخلفه
وعثمان الثاني } السلطان مصطفى الاول المعروف بالابله فخلع بعد
ثلاثة اشهر وخلفه السلطان عثمان الثاني ولم يجر في ايامه ما يستحق ان يدون في الشام
الاهم الا ما كان من حرب بين ابن معن وابن سيفا (١٠٢٨) فحرب ابن معن قرية عكار
وسرايا بيت سيفا في طرابلس وخرب هذه كما خرب قلعة جبيل . ثم عاد السلطان
مصطفى الاول سنة ١٠٣١ فتولى الملك اربعة عشر شهراً وخلع بعدها اذ لم يعد في

الامكان ستر نقصه الذي كان يتولاه العلماء ليحكموا باسمه فأبرزوه في صورة ولي من الاولياء وما هو الا ابله من البلهاء . فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضياً عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين وارباب النفوذ في المدن والقرى والسهول والجبال ، واصبحت البلاد بلا راعٍ خصوصاً بعد الضعف الذي ظهر من الدولة في العقد الثاني من هذا القرن في فتنة ابن جانبولاذ وحصار الدولة لحصون ابن معن ، وتجلى لاذكياء المتغلبة موقف الدولة معهم ، فأصبحوا يزدادون في ارهاق الرعيّة بالظلم ، والولاة الكبار ليسوا دونهم في العنات والتخريب والقتل والنهب .

وكان نائب حلب محمد باشا (١٠٣١) ظلوماً غشوماً اخذ اموالاً كثيرة من كل قرية من غير سبب ، وفضى ان لا تباع البضائع كلها الا لمن عينه من جماعته ثم تباع من السوق بعد ذلك ، فكان ظلمه مزدوجاً على المدني والقروي ، وفي هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة وفي السنة التالية (١٠٣٢) خرب الامير نحر الدين ابن معن كرك نوح وسرعين نكاية ببني الحرفوش .

عداء على الفرنج } وبيننا كان ابن معن يهيئ السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم
وفتن داخلية } مع اهل الساحل ويكثر سوادهم في مدنها ولا سيما في
موانئها ويرخص لهم بتأسيس قنصليات ويدخل رجال الدين في ايامه الى لبنان ،
ارتكب ابن سيف حاكم طرابلس سنة ١٠٣٢ امراً عظيماً نهر الفرنج من غشيات
المواني لاستبضاع القطن والحبوب ، فضبط مركبين فرنساوين كانت معهما ثمانون
الف قرش لا بتياع بضائع ، فأرسل ابن سيف وامسك ولدين صغيرين من المراكب
وعلمها ان يقولوا ان المركبين للقرصان ، وانهما اخذا في طريقهما مركب تجارة
للمسلمين ، وزعم انه وجد في المركبين اسباباً لمداخلة المسلمين ، ولم يكن ذلك صحيحاً
ولكن جعل ذلك طريقة لضبط جميع ما في المركبين من البضائع والاموال ، وامسك
جميع من فيها من التجار والنوثة وقتلهم جميعاً . وبعد ذلك باع المركبين بثلاثة
آلاف قرش . قال الشهابي : ومن حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل ميناء

طرابلس من تجار الفرنج احد ، وتوجه اناس من الفرنج الى الباب العالي للشكوى على ابن سيف ، ولكن لكثرة اختلاف الاحكام وعزل الوزراء لم يلتفت احد اليهم وراحت على من راح .

ومن الفتن الاهلية ما حدث سنة ١٠٣٢ من دخول الامير احمد الشهابي والشيخ حسن الطويل بلاد عجلون ومقابلة أهل القرى لهما وتجمع أهالي بلاد نابلس وعربها ، وحرقت من القرى قرية فارا وقرية الخربة وقرية حلاوى وكانت من اكبر قرى عجلون ، وحرق الامير علي الشهابي قرية سرعين في البقاع وجميع قرى بعلبك وتحصن أهل بعلبك في القلعة . وجرت فتنه بين عساكر دمشق والامير يونس الحرفوش — وكان هذا ظالماً متجاهراً بالظلم — وكرد حمزة سنة ١٠٣٣ فاغنم الانكشارية الفرصة وأغاروا على المستضعفين من الاهلين وتعاقب نغير الولاة وانحاز بعض الخوارج اليهم ونقل الناس أمتعتهم وأثقالهم من خارج مدينة دمشق الى داخلها مراراً ، وحارب العسكر الدمشقي اولاد الحرفوش لاجراجهم من بعلبك .

وكان كيوان أحد كبراء الاجناد في دمشق خلال هذه المدة ينزع الى التعدي ولا شكيمة ترد جماحه ولا وازع يكف من غربه ، فأخذ الناس بالتهمة وتطاول الى أخذ أملاكهم حتى استولى على اكثر بساتين الربوة والمزة من ضواحي دمشق وضم بعضها الى بعض ، وكان اذا أخذ حصته في مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعاً او كرهاً ، وكان نواب محكمة الباب وأعيان شهودها يساعدونه على عدوانه حتى أهلك الحرث والنسل . وذكر الغزي ان كيوان الطاغية أعبأ أهل الشام ظالماً وفتنه ، وكانت بداية كيوان نهاية اويس ثم تجاوز عنه بمراتب ، فطمع هو وقائده الصالحة اولاً في املاك الفلاحين واستخلاص مملكوه بالشراء او بالمغارسة فكان يعمل الحيلة لاحدم حتى يوقعه في مخالب صاحب الشحنة ولو بالتهمة والاستنباع . وقد اقترب يوسف السقا من الاجناد الدمشقيين ضروب المظالم ، وصادر الناس في أموالهم وعقارهم ، وقبض على غالب أعيان دمشق وشيوخها وهرب بعضهم ، واغتصب من تجارها المشاهير وبعض أهلها الضعفاء مالاً جزيلاً أناف على مائتي الف دينار ومن التحف والاقمشة ما لا يحصى . ومثل هذه الشؤون كانت تجري على مشهد من

الولاية في عاصمة الشام ويتفاوضون عنها لأنها قد تكون بايعازهم وهم لا محالة شركاء أولئك الزعماء .

حملات على الأمير }
نحر الدين المعني }
وغيره }
أدركت الدولة ابن خطر الأمير نحر الدين المعني على حياته في هذه الديار زاد عن سنة ١٠٢٠ وأنه تأصلت أحكامه بعد عودته من إيطاليا ، وما كانت في حماها الأولى والثانية لتغضي عن تخريب بلاده الا اضطراراً ، فساق هذه المرة مصطفى باشا والي دمشق (١٠٣٣) جيشاً على الأمير نحر الدين فاستظهر هذا بالامير محمد الشهابي حاكم وادي التيم كما استظهر حاكم الشام بآبن سيف حاكم طرابلس وآبن الحرفوش صاحب بعلبك فهلك جمهور من عسكر الشام قدر بمائتي قتيل ولم يقتل سوى رجال قلائل من جماعة آبن معن ، وكانت الواقعة في عين الجر (عنجر) من عمل البقاع . وقبض جماعة آبن معن على والي دمشق فجاء الأمير نحر الدين وقبل ذيله ، وقيل شفع بالوالي علماء دمشق وكبرائها لدى آبن معن ، ورجع عسكر دمشق مغلولين وفي رواية أنهم خامروا على الوالي وأطلق الأمير نحر الدين والي دمشق مكرماً ، فعاد الى الفيحاء لينقم ممن كان السبب في غزو آبن معن . وهذه الواقعة زادت في مكانة أمير لبنان في نظر الدولة والامة ، ودلت على انه كان مع قوته عاقلاً بعيد النظر ، وانها عاجزة عن أخذه الا بتجهيز جيش عظيم لأنها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخيبة خصوصاً وقد علمت مخالفته لكوسموس الثاني كبير دوجات طشقانه ، وان نحر الدين لما استظهر باسطول فرديناند الطسقاني استولى على ساحل الشام وغلب جيش الدولة غير مرة .

وفي سنة ١٠٣٣ ايضاً جلس جماعة الوالي بدمشق على الطرق ومعهم الريش يضعونه على رأس كل من يرونه وينادون عليه « مستاهل لم يقدر ان يرفعها من شدة الخوف » قال المقار : فلما كلوا أرسلوهم الى اليمن فقتلوا كلهم هناك . ومعنى ذلك ان الدولة كانت تريد تجنيد أناس ليرسلهم من الشام الى اليمن فلم تر أظرف ولا عدل من هذه الطريقة في التجنيد . وفي سنة ١٠٣٨ عين والي دمشق شردمة من

العسكر لمنازلة بني شهاب الذين يسكنون وادي تيم الله بن ثعلبة فنهبوا بلادهم وأحرقوا قراها .

وقد وزعت الدولة عسكرها على بلاد الشام لينشتي فيها سنة ١٠٤١ وكان جيشاً كبيراً فخص دمشق منهم اثنا عشر ألف جندي ماعدا اتباعهم ، وكان مأكلهم ومشربهم من اهل دمشق أقاموا بها اربعة اشهر ، فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من اهل دمشق خمسين قرشاً من كل دار فاضطرب اهل دمشق اضطراباً عظيماً . وقال شيخ الادب في عصره ابو بكر العمري من قصيدة وصف بها سنة « القشلق » :

قوم من الاتراك عاثوا بها	على خيول ضمر سبق
من جهة الشرق لقد اقبلوا	والشر قد يأتي من المشرق
في رقعة الشام غدت خيلهم	وذلت الأرخاخ للبيدق
اجلوا اهالي النور عن دورهم	بالسيف والدبوس والبندق
واتخذوها مسكناً دونهم	بالفرش من خز واستبرق
وحملهم كلفاً أعجزت	غنيهم جهداً فكيف الفقي

قال المحيي : ان القشلق من عسكر السلطان مراد بن احمد كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فداهمهم الشتاء دون الوصول الى خطة العجم فأمرؤا ان يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس امر المعيشة وبالغوا في التعدي ونهب أموال الناس . وكان ناضي القضاة بدمشق احمد بن عوض العيناوي نولي هذا المنصب سنة ١٠٤١ فسعى بقمعهم وكف شرهم .

وفي سنة ١٠٤٣ جاء السردار الاعظم محمد باشا الى حلب يحمل مرسوماً سلطانياً بقتل نوغاي باشا لانه تنهال في قتل من يجب قتلهم من الاشقياء واكتفى منهم بمصادرة أموالهم ، فقتل وأرسل رأسه بلحيته البيضاء الى جانب السلطنة . قال نعيما : وهذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلي للدين والدولة وهو من أقدر الوزراء . وفي هذه السنة تجمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية وثاروا بوالي حلب فقتل منهم خمسون وجرح كثيرون ، ثم جاء رؤسائهم معتذرين للوالي بما صدر من أوباشهم فتأثر جميع النافخين في بوق النيسة وقتل الجرحى والهاربين منهم فسكنت

الناثرة . وفي هذه السنة خرجت عساكر كثيرة من دمشق وباغتوا بلاد ابن شهاب امير وادي التيم فنهبوها وأحرقوا قراها وباغت صاحبها العسكر الدمشقي فظفر بهم ورجعوا عن بلاده .

القضاء على الامير ١ . وفي سنة ١٠٤٣ قويت كلمة الامير نحر الدين بن معن نحر الدين المعني ٢ . الثاني وكانت الدولة منذ ثلاث وعشرين سنة ننظر اليه نظر الخارج عن طاعتها ، حاولت غير مرة أخذه فلم تستطع لانه كان بجيشه أقوى من الجيوش التي تساق عليه ، وبلاده حصينة بطبيعتها وحصونه كثيرة ممنعة ، ولولا ان كانت الدولة مرتبكة بغوائل خارجية لغمت قوى كثيرة من قوتها وأخذته اخذ عزيز مقتدر ، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشاً من الاناضول بقيادة احمد باشا الارناؤدي كافل دمشق فانصر عليه الامير نحر الدين في وقعتين قرب صفد ثم انصر عليه القائد العثماني في وادي التيم وقتل ابنه علياً وتوفي أخوه متأثراً من جراحاته ، وكانت أرسلت الدولة عليه اسطولاً من البحر فغلب على أكثر سواحله وعاون بنو سيف وأصحاب الاحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانية ومشوا مقابل المراكب على طريق البرفتشت المعنيون ، وكانت الدولة تحاذر من معاونة اسطول البنادقة او الطسقانيين له ، ولجأ الامير الى شقيف تيرون فضاقت نفسه وفي رواية انه هام على وجهه في الجبال سنة ودل جماعته عليه ، ثم عمد الى مغارة في جزين فاضطر ان يسلم نفسه الى الوزير العثماني فدخل به الى دمشق بموكب حافل وهو مقيد على الفرس خلفه ، ثم حمل الى الاستانة فقابله السلطان مقابلة لا بأس بها ولامه على افعاله فقدم اذاره ، واحتج بانه جمع الرجال لامور مختصة بالوزراء والنواب وما قتل غير العصاة على السلطنة ، وان القلاع التي استولى عليها وفتحها كانت بيد العصاة وسلمها للسلطنة فاقنع السلطان من كلامه وعفا عنه ولكنه ابقاه مخفوراً . ولما قام حفيده الامير ملحم وكسر جيش والي دمشق ونهب صور وبيروت وعكا صدر امر السلطان بقطع رأس الامير نحر الدين وخنق ابنه الاكبر .

وذكر الشهابي ان الامير علي بن علم الدين اليمني الذي وسد اليه حكم لبنان بعد

اسر الامير فخر الدين قد ضبط جميع ارزاق بيت معن وقبض على تابعيهم وقتل بعضاً منهم ، ثم باغت الامراء بيت نذوخ وكانوا في الحمام في السراي التي تحت القرية فقتلهم وردم البرج على اولادهم الصغار ، ولم يترك من بني نذوخ ذكراً يخلفهم ، فلما بلغ ذلك الامير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية وركب على اليمينية فقتل منهم كثيراً وقدر من قتل من الفريقين بنحو اربعمائة نفس ، وقتل مدبر كوجك احمد باشا وانهزم الامير علي بن علم الدين الى دمشق وخرج بعسكر من دمشق نحو خمسمائة رجل وعندما وصل تحت قب الياس نزل سعيد احمد ابو عذرا الى مقاتلتهم برجال العرقوب في نحو اربعمائة رجل ، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم اطبقوا عليه فما سلم منهم الا القليل ، فرجع الامير ملحم واختبأ في الشوف وتجددت عند ذلك الشكايات على الامير فخر الدين وعندها امر السلطان بقتله . قال المرادي : ان املاك الامير فخر الدين وهبها السلطان مراد الى احمد باشا الكوجك ، وكان عمر التكية خارج باب الله بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته في بعلبك وصيدا ورشيا وحاصبيا وكانت املاكاً لفخر الدين .

وبهلاك الامير فخر الدين وضعف سلطة الامراء المعنيين استراح الامراء المجاورون لبلده امثال بني سيفا في طرابلس والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في بلاد نابلس ، وقد وقعت بين هذا وبين الامير فخر الدين حروب كثيرة ، وكان ابن معن توجه الى بلاده ثلاث مرات لقتاله ورحل ابن طرباي الى الرملة وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدحره ، واشير وقعاته معه وقعة يافا وكان هو وحسن باشا حاكم غزة والامير محمد بن فروخ امير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة وغنم غنيمة وافرة . وحارب مرة بدو الساحل على نهر العوجا قرب يافا وبدد جموعهم ولكن اهل بلاد حارثة من عمل جينين حاصروه في قلعة جينين واخرجوه منها . هلك ابن معن بعد ان كاد يستولي على البلاد كلها بأخذه اولاً املاك بني سيفا وبني الحرفوش في طرابلس وبعلبك ، وقد كانت واسع الصدر بعيد الغور والنظر متسامحاً يسير مع المدينة سير تعقل ، واخذ في آخر امره بعمر في بيروت حديقة للوحوش تقليداً للملك ايطاليا ، وعمر قلعة صرخد وقلعة شميميس على كتف الروج من عمل

حلب وقلعة فوق انطاكية وجبّزها بالعساكر . فشكته حكومة حلب للباب العالي .
قال المحبي : ان ابن معن بلغ مبلغاً لم يبق وراءه الا دعوى السلطنة . وعلل البوريني
سبب اخذ الدولة الامير نحر الدين المعني انه اخذ يحصن قلعة الشقيف عدة اعوام
واخذ لواء صفد ، فعظم شأنه وارفع مكانه وبعد صيته ، وكثرت امواله لانه تصرف
في بلاد ما خطر في بال احد من الامراء التصرف فيها ، وكانت متصرفاً في بلاد
كفر كنه وبلاد عكا والساحل وصفد وبلاد ابن بشاره والشقيف وبيروت وصيدا
وجبل كسروان وجبة المنيطرة وجبيل وانطلياس والبترون والجرد والغرب والمتن
والشوف والمقيطع والشحار والبقاع وبعبك وصور والمعشوقة ، وما كفاه ذلك حتى
انه جاء الى قلعة الشقيف وحصنها وجدها وشحنها بالارزاق الكثيرة وجعل بها من
آلات الحصار ما لا يعد ولا يحصى واستمر في ذلك التحصين نحو عشرة اعوام فنظن
له الامراء والوزراء .

وقال نعيما : ان قلاع الشقيف وبانياس ودير القمر كانت محصنة في عهد ابن
معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى على الدولة ، وان من قتلوا في برهة
قليلة من عمارة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف وأحرقت بيوتهم وقراهم وان عهده
وما بعده في الجبل مضى مع الدولة قارة في حرب وطوراً في سلم وصلاح . ومن الحصون
التي رُميها وانشأها قلعة قب الياس وبانياس وبرج الكشاف في بيروت وبرج الجصاص
في طرابلس ورأس بعبك واللوبة وحدث بعبك والصلت وحيفا ونوله وسمر جبيل
وطرابلس وصافيتا والمرقب وحصن الاكراد .

وكانت له في باب قوة الارادة آيات منها انه لما حدث اختلاف بينه وبين بيت
سيفا اصحاب طرابلس ، اتى بنو سيفها واحرقوا ونهبوا الشوف فاقسم كما قيل هكذا :
« وحق زمزم والنبي المختار لعمر ك (لا عمر ك) يا دير يحجر عكار » . وهكذا كان
فانه لما فاز على بني سيفها وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها ، جعل الجمال بالالوف
تجلب الحجارة من قلع عكار الى دير القمر وبني جميع الدور القديمة في الدير ووزع في
جدرانها من حجارة عكار الصفراء .

كان ابن معن يجمع الى الحسنات سيئات فمن حسناته انه كان يميل الى عمران

بإلاده ، ويتسامح مع الاجانب حتي تكثر صلات الشاميين بهم للتجارة ، وكان عنده على الدوام عشرة آلاف جندي تحت السلاح ويستطيع ان يجند مثلها وقيل انه كان يستطيع ان يجند اربعين ألفاً . وقد سئل لما كان في ايطاليا كم يقدر ان يجيز من العسكر فقال : كنت اجمع نيفاً وعشرين ألفاً ماعد الذين يتأخرون في البلاد للمحافظة ، وكان يفضل على الادباء والعلماء وكذلك كان يفعل خصومه بنو سيفا . اما سيئاته فكان مفرطاً باخذ الاموال من الناس ولا سيما بعد ان زار ايطاليا وتعلم منها البذخ حتى اشمازت منه رعيته وقد بلغت جبايته تسعمائة الف ليرة يعطي الدولة نحو ثلثها ويتمتع بالباقي . وكان نزوعاً الى العلي محافظاً على صلواته مع الجماعة وعلى عاداته الاسلامية حتى في ايطاليا ، وبني جامعاً ومأذنة في البلدة التي نزلها ولما كان في الغرب عرض عليه ملك اسبانيا ان يدين بالنصرانية ويتولى مملكة عظيمة اعظم من مملكته فاعتذر بلطف . ذكر هذا مؤرخه الخالدي الا ان « المعلمة الاسلامية » نقول : ان الامير فخر الدين لما فر الى ليفورنا (١٠٢٢) واستقبله كوسموس الثاني الدوق العظيم باحتفال حافل لم يتحقق الامل الذي كان عقده من العودة في الحال بجيش معاون من المسيحيين للقضاء على السلطة الشرقية في الشام . وعبثاً حاول ان يظهر ان الدروز من نسل مسيحي اسمه الكونت دي درو وانه هو ايضاً من ابناء كودفري دي بوليون من امراء الصليبيين ولم يوفق ان يحمل المسيحيين على اعلان حرب صليبية جديدة . وربما كانت قواه اذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس متكافئة لان الدولة كانت تعضد سرّاً ابن سيفا حتى لا يتعاظم نفوذ ابن معن ، ولكن شتان بين الرجلين في الغناء وبعد النظر .

وفى سنة ١٠٤٤ حارب الامير عساف بن يوسف
 فتن في الساحل } باشا سيفا الامير علي بن عساف واحرق بلاد جبيل
 والمنيطرة ثم قتل من جماعة عساف كثيرون ، وكثرت الحكام والاحزاب في لبنان وظلموا الرعايا واخذوا المال الاميري مرتين ، وقبضوا على رؤساء القرى وشدّدوا عليهم لينهبوا عن ارزاق بيت معن وبيت الخازن ، وفي السنة التالية باغت الامير علي بن

سيفا قرية أميون ونهبها واحرقها ، فجمع خاله الامير عساف الرجال ودارت الحرب بينهما في ارض عريقة في طرف الزاوية فانكسرت جماعة الامير علي ثم اعاد هذا الكرة على خاله في عناز من بلاد الحصن فظفر به الامير عساف وقتل من جماعته مقتلة كبيرة واشتد الضيق بالناس .

وفي سنة ١٠٤٦ قصد احمد الشمالي اغا الانكشارية مقاتلة الامير علي بن علم الدين لتأخره في اداء المال السلطاني ومعه متولي صفد وبيروت وطرابلس فانهمز قدامهم ، ورحل معه يمنية بلاد الغرب والجرد والمتن والشحار والشويفات بعيالهم ومواشيهم وكانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا بلاد كسروان ، وانهمز من قدامهم القيسية وكسروهم في مرحاتا في ظهور الشوير ثم طردوهم من كسروان فساروا الى عكار وسار عسكر الدولة على طريق الساحل ودخلوا طرابلس وخرجوا الى نهر البارد فانهمزوا من امامهم ولحقوهم بارض الجوف فكسروهم وسبوا حريمهم واخذوا مواشيهم ثم ان طروبه البدوي تداخل بالصلح بين الامير عساف وابن اخته الامير علي فرجع ابن علم الدين الى بيروت . ولما حدث ذلك الاختلال في بلاد الساحل ظهر الامير ملحم بن معن وحكم الشوف . وجمع بيت الحرفوش سكانهم وعربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج اليهم نائب الشام بعسكره ووقع بينهم الحرب فظفر النائب ببيت الحرفوش وقتل منهم مقتلة عظيمة . اي ان الحال لم تستتب في لبنان بهلاك الامير فخر الدين المعني وقد جرت شوون كثيرة من خراب وقتل وشنق في السنين التي اعقبت قتله حتى آخر عهد السلطان مراد الرابع .

وكان الوالي بدمشق سنة ١٠٤٦ درويش محمد باشا الشركسي ففتك باهلها وتجاوز في ظلمهم الحد وفي آخر ايام (١٠٤٧) اجتمع العامة على القاضي واشتكوا من الظلم وبالغوا في التوسل فلما بلغه ركب وكان في الوادي الاخضر بدمشق فنجماً واتى مغضباً وسفك دم بعضهم ثم عزل وصار امير الامراء بطرابلس . وهذه القسادة مما كانت تسير عليه الدولة في نقل الولاة فمن يرتضيه ويوافق مصلحتها تنقله الى مكان آخر اذا قامت عليه الشكايات مهما عظمت وثبتت لديها ، كأن الولاية الاخرى ليست من ملكها ولا يهمها امر اهلها ، او ان الوالي بمجرد نقله يغير أخلاقه .

ابراهيم الاول وسفاهته } توفي السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ بعد ان
حكم سبع عشرة سنة وكانت من الشدة على جانب
عظيم منهمكاً في شهواته ولذاته ، قيل انه قتل مائة الف انسان منهم خمسة وعشرون
الفاً بنفسه او امام عينيه ولكنه أمن على حدود البلاد الشرقية باستيلائه على بغداد ، وهو
الذي قضى على الامير نحر الدين المعني الثاني ولولا ذلك لاستقل هذا بالشام لا محالة
وربما امتد حكمه الى أبعد من ذلك من الاقطار والممالك ، ولم ترشح البلاد بعد مراد
الرابع ، كما انها لم ترشح على عهده فخلفه السلطان ابراهيم وكان خالماً ماجناً فسدت
المملكة في ايامه باخلاقها ومشخصاتها ، وكان أبداً في شاغل عن الامة الا بما كان فيه
تحقيق شهواته ، وكان غريباً فيها . وقد عقد مراد بك في تاريخه «ابوالفاروق» فصلاً
في سلطنة النساء استغرق جزءاً برمته نلخصه هنا ليتبين للقاريء كيف يكون حال
مملكة سلطانها سخيف ضعيف .

ومما ذكر فيه استرسال السلطان احمد في الشهوات حتى قضى في الثامنة
والعشرين شهيد الغواني والكؤوس ، اما السلطان ابراهيم هذا فهو أعظم زير ابتلي
بحب النساء حتى كان كل اسبوع يبني بيكر ويجري له عرس وثقام الافراح في
قصره ، وكان كلما سمع هو او والدته «كوسم والدة» او أحد حاشيته وحملة غاشيته
ووزرائه وعماله بغانية حسناء يقدمونها لسلطانهم ، حتى عجز السلطان عن ملامسة
النساء لكثرة افراطه فجاء «جنجي خواجه» وكتب نسخ الادوية والعقاقير النافعة
في القوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بان سلطانها يستطيع ان يقترب من اربع وعشرين
بكرًا في الاربع والعشرين ساعة ! وأصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري
والسراري ، وكان على نسبة اشتداد أعصاب السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له
الا الافراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقتناء الجواري والحلي والزهور
والاموال والطرائف ، واصدار الاوامر بقتل الانفس بمعنى وبلا معنى ، واخذ يستريح
الى رؤية المناظر الفظيعة من القتل شأن قياصرة رومية في أواخر أيامهم .

وكان نقرر جعل النساء الرسميات اربعاً ثم أبلغت والدة السلطان عددهن الى
ثمان نساء ، لان نسل بني عثمان كاد ينقرض ، واحبت كوسم والدة تكثير نسلهم

على هذه الصورة ، وكل واحدة من تلك الجواري من الخدم والخدمات والوصيفات والندماء والنديمات والخازنات والملبسات الخ عشرات وربما مئات ، تجبي واردات الولايات العظيمة لتعطي الى المقربين والمقربات ، والوظائف تباع بيع السلع بالمزاد ولا سيما على عهد الاغوات بكتاش اغا ومراد اغا ومصلح الدين اغا وأمثالهم ، ولم يبق احد لا يرتشي من الصدر الاعظم فنازلاً ، لان السلطان يطلب من كل عامل عنده 'جعلاً' يليق بشأن سلطانه ، حتى تعدت الحال في طلب الاموال الى كبار التجار في الاستانة ، واخذ رجال القصر ونسأؤه يسلبون من الامة ما يقدرون عليه ، واضطر كثير من التجار الى الاختفاء واغلاق حوانيتهم تحلصاً من مطالب جماعة السلطان ، ولا تسبل عن رواج سوق الحلي والجواهر والعربات المرصعة والطسوت المحلاة والنعال المزينة بالاحجار الكريمة والامراف في استعمال الذهب واللؤلؤ والزبرجد وسائر المعادن النفيسة في الآنية والزينة والنقش فانه مما لا ننصوره العقول .

وكانت واردات لواء (سنجاق) تعطي من قبل نفقة لنساء القصر فأصبحت أيلة الشام على طولها وعرضها يخصص ريعها وجبايتها للمرأة السابعة بحسب الاصول الحديثة على العهد الابراهيمى . ولم يرض النساء ان تجبي لمن الولاة وبكوات الولاية الاموال ، بل كنّ يعين جباة مخصوصين من قبلهن يجبون باسمهن ريع الولاية او اللواء . وقد كان الذي عهدت اليه جباية واردات الشام محمد اغا الذي اشتهر فيما بعد في التاريخ العثماني باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير ، وهو ممن منعوا بتدبيرهم الدولة العثمانية من السقوط . قال ابو الفاروق : ولا غرو فقد توجد الدرة النفيسة بين الكناسات والقيامات .

ولم يكتف السلطان بما كان يقدم له من النساء بل كان يطوف العاصمة وضواحيها ، فاذا رأى من أعجبه وتردد وليها في ارسالها يلقى جزاءه في الحال ، وبلغ السلطان مرة ان امرأة ابشر مصطفى باشا في جهات سيواس على غاية من الجمال ، فأرسل الى وادار علي باشا ثلاثين الف ليرة لبيعته اليه بزوجته مصطفى باشا فففر علي باشا من اقتراح سلطانه وأجاب بالرفض ، فقرّر السلطان اهلاكه ولكن علي باشا رفع راية العصيان وجعل علي الاناضول ساقلاً ، وقرّر السلطان ان يأتي بزوجته ابشر مصطفى باشا

ويعربها ويجعلها في أحد الشوارع المهمة بين عمودين يربط اليها رجالها ويدها
ويطلق للعامّة والعسكر ان يلسوها حتى تموت ، فلم يقنع السلطان أصحابه بالرجوع
عن هذا العمل البشع الا بعد اللتيا والتي .

المرء يصرع ثم يشفى داؤه والحمق داء ليس منه شفاء

والحمق طبع لا يحول مركب ما ان لاحق فاعلمن دواء

وقرر هذا السلطان الاخرق يوماً ان يقتل عامة المسيحيين في مملكته فاحتال عليه
شيخ الاسلام قائلاً ان سي في قتلهم نقص وارادات السلطنة ، وان مئتي الف انسان اذا
قتلوا في العاصمة تخف الجبابرة لا محالة ، وبهذا استرجعوا من هذا المعتوه الفاجر
ارادته المختلة وهكذا حتى خلع وقتل سنة ١٠٥٨ بعد سلطنة ثمان سنين وتسعة اشهر .
وقد قتل عدة من رجاله وقتل الصدر الاعظم مرة لانه بعث في طلبه لتدارك حطبه
للقصر فقال له الوزير : ان هذا الطلب ليس من الامور المهمة التي يفكر فيها من يفكر
في امور السلطنة فمثّل به في الحال ولم يجرأ بعدها على تولي الصدارة الا من كان
على جانب من الرياء والنفاق ليرضي السلطان .

وذكر مؤرخو الترك ان سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على عهد
السلطان ابراهيم ثلاث سنين خرب خلافا في جسم الدولة ما لا يقع مثله في ثلاثة
قرون ، وبلغ من ريائه مع سلطانه ما لم يوفق اليه أحد ، جاءه امر من السلطان
ذات يوم يقول فيه : ان الخزينة نضبت أموالها ولا بد ان يسترجع ما اهداه اجداده
السلطين الى حرمي مكة والمدينة من المجوهرات ليسد التجز فقال الصدر الاعظم
على ذهائه وريائه وهو يقرأ هذه الارادة السلطانية : لقد سقطت الدولة الى هذه
الحالة بفيلق من الجواري الناقصات من بنات الروس وبولونيا والجر وفرنسا .

ومما ذكره في باب اسراف ذلك الدور انه كان عند فقردار محمد باشا ٤٧ طاهياً و٧
رؤساء طهاة وكل طاهٍ خدامه وخيامه واشياؤه وبغاله وجماله حاضرة على الدوام
وفي بيت مؤننه من الاواني المرصعة والمذهبة والمفضضة وغيرها ما يبلغ مجموع ثمنه ثروة
كبيرة للغاية ، فانظر الى هذا الاسراف . وهكذا بالغ السلطان ورجاله في
الاسراف بكل شيء وفسدت الاخلاق واي فساد ولا من يجسر ان يأمر بمعرف

او ينهي عن منكر حتى قال ابو الفاروق : ان معظم كبراء الامة ومن كان لهم علاقة بقصر السلطان ابراهيم كانوا يتقربون اليه بتقديم الابكار الحسان قراءاً والقيادة والديانة احسن شافع لهم عنده للترقي والاعلاء .

فاذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الامة فيها ، فما الحال بالولايات ولا سيما البعيدة كهذا القطر ، وكان ولايته كولاية غيره من جماعة القصر ينصب اكثريهم بشفاعة النساء والقوادين والقوادات . على هذا المثال كان اغوات القصر الاغبياء ينصبون الولاية ولا يتركون لهم مجالاً ليقفوا على حال البلد الذي يقضى عليهم ادارته بل يبدلونهم بغيرهم بعد مدة وجيزة وبيعثون بآخر من هذا الطراز . كل ذلك من مقنضيات الجهل والطمع والشفاعة ، فاقنضى ان يكون الوالي من صنائع بعض العظميات او العظماء ، وكثيراً ما يكون ما جمعه من المال في ولايته داعياً الى توجيه النظر اليه فيقتل لتصادر امواله ، ولطالما كان قتل العمال مما يروق السلطان لانه يقبض على اكثر موجودهم ، وكم من مرة كانت امرأة احدهم او قصره البديع في المضيق في فروق سبباً الى الغضب عليه والحسد له ، حتى يورده الوزير الاكبر او غيره حتفه ليشتمع بعده بزوجته او ليسكن قصره او ينال غير ذلك .

وذكر ابو الفاروق عند كلامه على مصطفى سلطان وكيف تجرد في قصره عن العالم وحصر وكده في شهوانه ان آل عثمان من القديم انفردوا بغلبة شهواتهم عليهم ، وقد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ اهل القصر السلطاني يتعلمون ادوية الباه من الشرق والغرب وهو اخذ يسي استعمالها .

فئة وال اخرق } ومن الاحداث في ايام السلطان ابراهيم فئة ثار وقدها في حلب } بين الانكشارية ورؤسائهم في حلب كان السبب فيها ان الانكشارية طلبوا من رؤسائهم ان يعطوهم غروشاً بدلاً من الاقچات ، وطلبوا عزل وكيل رئيسهم وكتابه ، فقتل منهم جملة ثم وقعت بينهم وبين رجال الصدر الاعظم فئة قتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت القضية بقتل آغتهم ووكيله وكتابه . ومنها ما رواه نعيم في حوادث سنة ١٠٥٤ قال : انه كان في بر

حلب رجل اسمه الامير عساف يتولى امارة البادية ، وقد اخذ يسلب ارباب القرى اموالهم وسلط اشقياء العربان عليهم ، فانشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم وصعب استئصال شأفتهم ، فدبر والي حلب ابراهيم باشا تدبيراً اخرق وذلك بان دعاه الى مأدبة ليقتاله في خلاصها ، وعلم الوالي ان الرجل لا يوافي حلب فارتأى ان يأدب المأدبة على خمس ساعات من المدينة ، فخرج الوالي في جنده وخرج عامة اهل البلد لابسين احسن بزة ، راكبين الخيول المطهمة ، حتى وافوا محل الضيافة التي اقامها الوالي لامير البر ، وكان الوالي اوعز الى جنده ان يطلقوا النار على الامير عندما يقترب منه لتقبيل الركاب على العادة فأتمروا بامرهم ، ولكن الامير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم وركب فرسه من ساعته ، وكان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرمح ، فحملوا على جند الوالي حملة منكرة وقتلوا منهم جماعة ، واحاطوا بالاهالي فسلبواهم ثيابهم وخيولهم ، ولم يكونوا اقل من خمسة آلاف وقد جرح اكثرهم ، ورجع الوالي الى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة في بلاد حلب ، واخذ الامير عساف يعادي الدولة العثمانية علناً وطمعت البادية فأخذوا يطيلون ايدي اعتداءتهم اكثر من قبل فاضطرت الدولة الى نفخية واليها الفاسد الرأي السيئ التدبير ، وبذل الوالي اللاحق وجماعته انواع اللطف مع الامير عساف حتى اعادوه الى حظيرة الطاعة للسلطنة في الجملة ، وطفق يهادي عمال السلطان بالخيول ويرسل الى الحكومة جزءاً من الجباية . وما كان يألفه بعض العمال من اعطاء الامان للخوارج او غيرهم ثم اغتيالهم في مائدة او ادخال السم عليهم او صلبهم علناً قد ادى الى رفع ثقة الناس من عهدهم وموالتهم . وغلطة واحدة ارتكبها والي حلب اللاحق اخربت العمران واهلكت الانسان .

قال الشهابي في حوادث ١٠٥٤ انه عزل محمد باشا الارناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا وكان مدبره الشدياق رزق البشعلاني وقدمت الشكايات الى الباب العالي ضده فحضر كاتب ليعد الاشجار والرجال والبهوت والمنازل وبعد ما سافر المحرر ابطل الباشا جميع ذلك واعاد الاحوال الى ما كانت عليه وكانت الناس لكثرة المظالم تبغ كل ثلاثة شنابل قمح بقرش ، ثم اعيد الى طرابلس محمد باشا الارناؤوط واجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة ورحل اهلها .

محمد الرابع وصدارة } بويغ السلطان محمد الرابع بالسلطنة سنة ١٠٥٨ بعد
كوبرلي } السلطان ابراهيم فطال عهده الى سنة ١٠٩٩ اي احدى
واربعين سنة ، واذ كان طفلاً عهدت والدته بعد تغيير كثير من الصدور ، بالصدارة
العظمى الى رجل عاقل من رجال الدولة وهو محمد باشا كوبرلي كان امياً الا انه اتى باعمال
وطدت دعائم الملك بعد تزعمه في عهد السلطان السابق بسلطة النساء ، واشترط في تولي
الصدارة ان يكون حراً في عمله لا ينازعه منازع ، ولا تقبل فيه وشاية ولا يعين للمناصب
الا من يريد ، وقتل ستة وثلاثين الف انسان حتى اتى الرهبة في النفوس ، وامن قيام
الخوارج والنزاع الى الثورة من الرعماء وارباب الدعارة والجند والعصاة ، وخلفه ابنه
احمد باشا كوبرلي الذي كان حاكماً دمشق وقاتل الدروز وانتصر عليهم . وكان على
غاية من العلم والعمل . ثم خلفه في الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها
لانه كان جماعاً للمال مستحلاً له من اي الطرق اتى وكان عنده الوف من الخيل وکلاب
الصيد والبزاة و ١٥٠٠ حصان و ١٥٠٠ سرية و ٧٠٠ خصي .

وخلفه مصطفى زاده من اسرة كوبرلي ايضاً وكان من المضاء والشجاعة وحسن
الادارة والاستقامة على جانب عظيم ، واشتد على المزورين والمرتشين وقضاة السوء
ومالاً خزانة الدولة باهلاك اللصوص . وكان يُقتل من يتساول التبغ من قبل فجعل
تجارته حرة على ان توضع عليه رسوم فاحشة ، وقضى ان لا يؤخذ من الرعايا مسلمين
كانوا ام مسيحيين غير المقرر من الجزى والخراج ، وقسم المكلفين الى ثلاثة اقسام
يدفع الاول منهم دوکاً واحدة والثاني دوکاً اثنين والثالث اربع دوکات وهذا هو
النظام الجديد الذي بقي بعد هذا الوزير زمناً وخلفه صدراً آخر كان ابن اخت الكوبرلي
الاول اسمه حسين عموجه زاده وكان على قدم اجداده بعد نظر وحسن ادارة فصيح في
هذه الأسرة ما قاله احد مؤرخي الفرنجة من ان الوزير الاول منهم لقب بالكبير
او القاسي والثاني بالسياسي والثالث بالصالح والرابع بالحكيم .

ولكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن الا ضئيلة في الشام لبعدها المسافة
عن العاصمة ، ولان طريق الالتزام في جباية الاموال كانت سقيمة تدعو الى اضعاف
المملكة ، ولان الوالي كانت له لامركزية واسعة يعمل بقربحته على الاغلب .

وفي تاريخ فلسطين ان حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية اي اقطاعات او حكومة امراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ ابو غوش او البراغنة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مرة وبني سالم ، فاذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلان حكمه لامحالة ، ومن خالف عادات البلاد او اخل بنقائدهم يسجن في سجنهم وكان الشيخ او الامير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي ويأخذ الزيادة ، واذا حدثت فتنه او خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من امراء منطقته فيخرجون بانفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم . وكثيراً ما كانت يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة فادى هذا النظام الى انتشار الفوضى واختلال الامن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً في الاموال والرجال .

ولقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر وترعرع ان يقتل شقيقه سليمان واحمد فنتعته والدته من قتلها وحال بينه وبين القتل المفتي الاعظم ، مورداً له كلام الله مخوفاً له من عذابه ، وبذلك انقضى دور قتل ابناء ملوك آل عثمان وتسلطن شقيقا محمد الرابع بعده . ووقعت في سلطنة احمد الرابع في الشام كوائن كثيرة منها الواقعة التي حدثت سنة ١٦٠٠ م في وادي القرن من عمل لبنان الشرقي ، وذلك ان ابن علم الدين اغرى ابشير باشا والي ايلة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام والمعنية عند وادي القرن وكانت الدائرة على عسكر الشام . ويقول مؤرخو الترك بل كانت على عسكر ابن معن وكان اسم ابن معن الامير ملحم ولي كما قال المحبي بلاد عمه اي الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وكان حازم الرأي عاقلاً له حسن تصرف واتقياد تام الى جانب السلطنة فلماذا بقي مدة تزيد على عشرين سنة لم يفتص له فيها عيش الا مرة واحدة لما قصده ابشير باشا وكان ذلك باغراء بعض المفسدين من غير داعية حصلت من قبله وانصرف في تلك الواقعة . وفي خلال ذلك كان الامير درويش الشركسي المعروف بالمجنون والياً على تدمر فكان يغير على العربان ويغيبهم ويأسر منهم ويدخل الى دمشق بالموكب الحافلة ثم ولي لواء عجلون فثار بينه وبين اهلها حروب كثيرة وكسروه .

وروى نعيما في حوادث سنة ١٠٦٥ عند كلامه على والي حلب أبازة حسن باشا أنه كان من أبناء الجند بلغ المناصب بصور غريبة وهوشقي يميل الى الفساد والمظالم واذا أريد تسطير ما اتاه من الجور على الرعايا في البلاد لاستلاب اموال اهلها اقتضى ذكر مجملته كتاباً خفياً . وان حكام البلاد كانوا يجبون الجباية ضعفين فيأخذون ممن يقضي عليه اداة عشرة آلاف عشرين الفاً ، ومن يغرم الخمسين مئة أو مئتين ، ولم يكن لتعديهم غاية ولا لظلمهم حد يقف عنده ، فتهلك القرى والديار بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة والقضاة ممن كانوا يبتاعون بالرشاوى مناصبهم فيغضي عنهم الكبراء لانهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم الى الاستانة لا يجدون اذناً صاغية وربما انعكس الامر عليهم وصدق رجالها والي الظالم وسفه احلام المنظمين فيزيد الظالمون في ظلمهم . قال : وكان الفقراء يرتحلون عن البلاد فاصبحت القرى المعمورة والقصبات المشهورة مروجاً ينشق فيها غراب الخراب ، واذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم أغنياء يسوق والي عليهم الاربعائة والخمسمائة من جنده ينهبهم ويسببهم اه . ومن الغريب أن يكون حسن أبازة باشا والياً على حلب على عهد صدارة الكوبرلي الذي يقدره العثمانيون بدارته ولعلمهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الادارة والاصلاح بمجرد بطشه بالعصاة واجهازه على من لا تروقه اعمالهم أو ينازعونه في سلطانه ، أما نقاضي الجباية مرتين من الرعايا والقضاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية في قائمة اعمالهم .

وحسن أبازة باشا خرج عن طاعة الدولة في حلب وفتح في تلك النواحي وانضم اليه السكبان وخمسمائة جندي كانوا مع نائب الشام احمد باشا الطيار فعينت الدولة لقتاله الوزير مرتضى باشا مع عدة امراء وعساكر فتقابل الجيشان وانكسر مرتضى ثم اخذ بالحيلة وقتل هو وأعيان جماعته ونفرك عسكره وكانت ذلك سنة ١٠٦٩ .

وفي سنة ١٠٧١ قدم والياً على دمشق احمد باشا كوبرلي ابن الصدر الاعظم محمد باشا وكان في الخامسة والعشرين من عمره . قال المحبي : وكانت الشام مختلة فاصالحها وركب على اولاد مع وبني شهاب فزالهم عن بلادهم وقمع اهل الفتن ، وذكر

المؤرخون ان هذا الوالي لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فمقابل فصار الى وادي التيم فهدم صرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبيوت مدبريهم وقطعوا نحو خمسين الف شجرة من توتهم في مرج عيون والبقاع واعطى ولاية وادي التيم لاولاد علم الدين مع التقدم زين الدين وابن اخيه عبد الله . فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادي التيم . وما استخف هذه الطريقة في التأديب التي هي عبارة عن تخريب العمران هذا وابن الكوبرلي من خير من ولي الشام ومن رجال الاصلاح والعلم . وأقام ابن الكوبرلي على صيدا باشا وجعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم اولاد العرب واعطاها علي باشا النفتردار . ولما بلغه ما صار من والي طرابلس واليمنية من حرق دور بيت ابي الملع وبيت الخازن وبيت حمادة وقطع ارزاقهم ومواقع من الخراب في وادي علمات واتلاف حراج شمش ولحفد وارض جبيل والبترون وجبة المنيطرة والعاقورة ، لما بلغه ذلك وان الرعايا ضاقت به وخربت بلادها امر بصرف العساكر ورجع الى الشام ، وعلي باشا هو الذي طلب مالاً من ناظر كنيسة مار جرجس في بيروت واذ لم يقبل النصارى امر ان تصير الكنيسة جامعاً وبني لها مأذنة وسميت مقام الخضر . وفي سنة ١٠٧١ قدم علي باشا الى صيدا وهو أول من تولاه من الباشاوات وكانت فزنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتسائلة فأوقع بالقيسية ونهب بلادهم فارتحلوا عنها وبعد سنتين نصر الوالي القيسية .

وفي سنة ١٠٧٣ قتلت الدولة الامير منصور بن شهاب أمير وادي التيم والامير علي ابن عمه لموافقتها رؤساء جند الشام في وقعة مرتضى باشا لما ولي نيابة دمشق وقارب ان يدخلها فأرسل جنداً من وادي التيم تجتمع في دمشق وانضم الى من قام فيها من رؤساء الاجناد والاولباش والنقوا مرتضى باشا في القطيفة فهرب منهم . ولما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثناثرين وفي مقدمتهم الامير منصور وأخوه والشهابيون على ما قاله الحبي في وصف ادارتهم وسيرتهم على عهده : « وجورهم بالنسبة الى امراء بلاد الشام كالدروز بني معن والرافضة بني الحرفوش وبني سرحان مقصور على انفسهم من حيث الملقح فحسب ، وما لم في القديم والحديث كثرة اذية للمسلمين » . ومن مساوي حكومة الاقطاعات ان صغار امرائها من أهل البلاد كانوا

يضطرون كل الاضطرار الى المصانعة فتراهم أبداً مع القوي الذي تدوم سعادته فاذا ولت عنه لووا وجوههم ، وفي هذا السبيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضاً وتحرب بيوتهم وبيوت شملهم وحاشيتهم . والولاة يشدون مع هذا ويرخون لذك شأنهم مع كل صاحب سلطة وقوة . وهكذا كانوا في معاملة المتهم لليمنية والقيسية فتارة يقوى هؤلاء وطوراً أولئك فقد وقعت سنة ١٠٧٥ في الغاغول عند برج بيروت وقعة بين القيسية واليمنية قتل فيها عبد الله بن قائد به ابن الصواف وانكسرت اليمنية وانزمو الى بلاد دمشق . واشتدت الحالة على بلاد الشام في هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر في أرجائها الذي أقتلت به بيوت كثيرة لموت جميع سكانها حتى ان قاضي حلب ضبط الاموات في حلب فبلغوا ١٤٠ ألفاً وكانت القحط عم البلاد قبل اربع سنين فجئ بالفتح من مصر وبعث غرارة الخنطة بثمانين قرشاً . ولم تفتر الحكومة مع ذلك عن حرق الدور والقرى فقد استنجد (١٠٨٢) بنو حيمور امرء البقاع بحكومة دمشق فأنجدهم بعسكر فداسوا وادي التيم وحرقوا دور بني شهاب وقراهم . واشتد ظلم بني حمادة في عمل طرابلس وظلموا الرعايا . نفرت القرى من الظلم وكان في خلال ذلك (١٠٨١) والياً في حلب حسين باشا المعروف بصاري حسن اي الاصفر يتلطف بالرعايا وينتقم من ذوي الكبر والمناصب . كما ان ظلم والي دمشق ومتسلمه اشتد سنة ١٠٨٣ فأغلقت المدينة مرتين احتجاجاً على عمله .

وفي سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ حرقت قرى البترون وفي السنة التالية حرقت بلاد جبيل وبلاد البترون أيضاً وخلت بلاد جبيل من سكانها . وفي سنة ١٠٨٧ امر والي طرابلس بحريق وادي علمات وهي فرحة وعلمات وعشاق وطورزيا والحصون واهميج وحاج وقرى جبة المنيطرة وهي كفر جال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقا ولما رجع العسكر جاء مشايخ بيت حمادة وأحرقوا قصوبا وتولا وعبد الله وبسبينا وصغار وشبيطن . وفي سنة ١٠٩٠ تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية كثيراً . وفيها كانت التجريدة على الامراء آل شهاب من والي صيدا ووالي دمشق وكانت النصر للباشاوات . وفي السنة التالية باغت الامير عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الامير فارس شهاب في نيجاً قرب الفرزل فقتله وقتل خمسين رجلاً من شيوخ وادي

التيم فجتمعت أسرة شهاب العساكر وساروا الى بلاد بعلبك فتدخل الامير احمد بن
معن بالصلح وجعل جزية على آل الحرفوش كل سنة خمسة آلاف فرس ورأسين
من أطايب الخيل . وفي سنة ١٠٩٦ تولى الامير احمد بن معن صاحب الشوف
جميع مقاطعات بيت حمادة فأحرق ابلج ولاسا وأفقا والمغيرة وقطع أملاكهم . وفي
سنة ١٠٩٨ لما فر الامير شهيد الى بلاد جبيل نزل الى العاقورة فأحرق من ضياع
بيت المشايخ بيت حمادة نحو اربعين ضيعة وقطع أشجارها .

وكانت مصيبة البلاد في هذا الدور واحدة في الظلم ، فكان الوالي في حماة مثلاً
إذا غضب على رجل يضعه على «الخازوق» ، وإذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع
شيء من الكلس وألقاها في العاصي ، وأصبح الناس لكثرة المصادرات يكتفون
أموالهم ويدفنونها في الارض للنجو من المصادرات والسرفات ويتظاهرون بالفقر وربما
مات أحدهم فجأة ولا يعلم أولاده بدفينته في جدار البيت او الحائط فيقع المال بعد
مدة في يد من تثقل اليهم الدار . قال الحبي : وكثرة جور الحكام في حماة على
الاهلين في القرن الحادي عشر هاجر أغلب سكانها الى دمشق .

اما في جهات لبنان الغربي والشرقي فان الوالي أو المتسلم أو المستبد اذا غضب على
رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجرة ، ولذلك كان من الداء على الرجل في
لبنان « الله يقطع رزقه » أي أشجاره او « يخرب رزقه » أي بيته والزوق البيت
وبعض القرى في كسروان تبدأ بزوق كما تبدأ في أقليم دمشق عدة قرى باسم بيت .
وفي سنة ١٠٩٨ ورد الامر لعللي باشا النكدلي متولي أيلة طرابلس ان يقتص من
الامير شديد الحرفوش لتخريبه قرية رأس بعلبك وهدمه حصنها فكتب الى الامير
احمد بن معن ان يوافيه بالرجال فلجأ الامير شديد الى المشايخ الحمادية فأحرق علي باشا
قرية العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حمادة ، ثم نزل عسكر الباشا على عين الباطية
فباغته ليلاً آل حمادة والحرافشة وقتلوا منهم خمسة واربعين رجلاً وانهمز العسكر .

عهد سليمان الثاني والحكم
على الخوارج
نوفي السلطان محمد الرابع سنة ١٠٩٩ وتولى
السلطان سليمان الثاني والاحوال في عهده الطويل

لم يتبدل ومرض البلاد واحد وهو سوء الادارة وخراب العمران وهلاك المال والاعراض والكراع والرجال . وتم القرن والشام غرض الرماة تصيبها مطامع الولاة والامراء وأرباب الاقطاعات والالوية وأهم ما كان فيه مظالم بني سيفا وبني معن وثورة ابن جانبولاذ ، والولاة نسق واحد لانهم نسخة من عصرهم ، واذا كانت أحوال القصر السلطاني ومن فيه مختلفة كانت الولايات حقيقة بان تباع فيها الارواح بيع السماح ، تساوى في ذلك البوادي والخواضر ، والناس في أمر مريخ لا يستقرون في بلد ويتنقلون في الارحاء لان آمالهم كسفت وخاب منهم الرجاء ، واذا اشتد الظلم في مكان هجروه الى موطن يتوهمونه أقل مظالم ومغارم ، وأنى لم مكان يسكنون اليه ويأمن فيه سربهم . واذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكويرلي الذين تولوا الصدارة فان ما أصاب الشام من عنابتهم جزء صغير جداً لا يكاد يشعر به ، وعهد اولئك السلاطين كإبراهيم الفاجر ومصطفى الابله ينسب عهد محمد الرابع ومراد الرابع .

ولم يؤثر عن هذا القرن انه انشيء فيه غير قليل من الجوامع والمعاهد مثل جامع ابشير باشا وخان الوزير بحلب وكان بعض الولاة في القرن الذي قبله يرهقون الرعية ويقومون شيئاً باسم العمران اما هذا القرن فغاية ما يقال فيه انه تحريب الموجود . ومن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا البالجي امير بلاد صفد ثم بلاد طرابلس (١٠٠٢) فقد كان من انصف الحكماء على ما قال المؤرخون ، واذا كتب لاحدهم ان كان على شيء من الاخلاق ينازعه المنازعون على ولايته في الاستانة فلا ينقلد زمامها الا بمقدار ما يتعرف الى اهلها ويدرس طبائعهم ويستقري بلادهم ثم يشخص الى العاصمة ويستبدل غيره به وهكذا دواليك .

هذا وأهم ما كان من حوادث هذا القرن فتنة ابن جانبولاذ التركماني التي زال بها حكم الدولة عن البلاد سنين وذلك من اذنة الى غرة ولم يطل امد هذا الاستيلاء كثيراً اذ كانت دعامة القوة الموقفة ، وهو ابن ساعته لم تعد له الاسباب بمجملتها . اما الامير نحر الدين بن معن الثاني فانه كاد يستولي بالفعل على البلاد كلها لتنظيم جيشه وتحصينه لبلاده وتميز قلاعه وبسط يده بالعطاء حتى استمال رجال الاستانة انفسهم ، وعنابته بادخال روح التجدد في بلاده ودعي سلطان البركجده الامير نحر الدين الاول

ولو كان لملفائه دوجات طسقانه اذ ذاك شيء من القوة وانجذوه بقليل من رجالهم وذخائرهم ولو لم يشتغل بال البابا وملك اسبانيا وكبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا انجذوه على نيل امانيه في الاستقلال خصوصاً وهم الذين كانوا يزينون له من قبل الاستيلاء على انطاكية ، فلو قدر لهم ان يعاونوه لسهل عليه الاستقلال بالشام من عريشه الى فراته بعد ان تمت له كل معداته ، وكان العقل رائده والحزم قائده ، خصوصاً وكان معوّله في قوته على الدروز وهم في هذه الديار على التحقيق منذ القديم من اشجع العناصر التي عرفت بمتانتها ومضائها في الحروب . وكان كثير من مدبريه ورجاله من المسيحيين ولحبة قومه له ادعته اهل المذاهب الثلاثة في بلاده ، فالموارنة يقولون انه كان مارونياً والدروز درزياً والحقيقة انه مسلم سني — خلافاً للبحبي والمرادي — يحسن السياسة والادارة وينظر الى رعيته نظر المساواة ويأخذ لخدمته الكفاية من كل طائفة . فهو بلامرء مثال الابطال في عصره ، وكان على أتم الاستعداد للحرب ومعرفة بالادارة وطبائع البلاد ، ولو لم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها في قتاله لعمل في الشام في القرن الحادي عشر ما عمله محمد علي الكبير في مصر في القرن الثالث عشر ولم يكن دونه ذكاء ومضاءً ودهاءاً .



العهد العثماني

من سنة ١١٠٠ الى ١٢٠٠



حال الشام اول } تبلج فجر القرن الثاني عشر للهجرة والدولة لا تفكر في غير
القرن الثاني عشر } مصائبها الخارجية ، والمملكة التي كانت تمتد من اسوار فينا
الى جنوب بلاد العرب ، ومن فارس الى الغرب الاقصى لا وحدة فيها ، ولا جامعة تجمعها ،
وليست متجانسة ولا متماثلة ، تكافحها الثورات الداخلية ، وتساورها الحروب الخارجية ،
فلا تهتم للاولى اهتمامها للثانية ، ونفنى في سلطانها ويستعبد هار باب الاقطاعات ويستبد بها
الجند والولاة ، وسكان هذا القطر كسائر الاقطار الثمانية كالارقاء لا عمل لهم
الا ارضاء شهوات حكامهم من وطنيين وغرباء ، ولم يكن اختلاف العناصر اقل
ضرراً عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية واللوند
والسكبان والقبوقول ، والنزاع بين هؤلاء الجند وبين رجال الادارة على اتم حالاته
في اغلب السنين ، بل بين كل صنف من اصنافهم ورؤسائه ، والارواح في هذا
السبيل تباع بالبحان ، فلم يحدث شيء مما يقال له الاصلاح لان رجال الدولة لم يفكروا
فيه حتى يتوسلوا باسبابه ، واذا توسلوا فلا يحسنون طريقه ، وقد اعتادوا الاخذ ولم يعتادوا
العطاء بتحسين الحالة ، ليزيد الاخذ والعطاء معاً .

وندر ان يجيئ من الاستانة رجل صالح في اخلاقه ، معروف باستقامته وكبر
عقله وسعة معرفته ، يحسن ادارة الناس ويكف الظالم عن ظلمه ، وهل يفارق فروق
الا من أكره ، وهناك النعيم والهناء وضروب الشهوات البشرية ، واذا جاء هذه الديار
والكبير من العمال فلا يملأ همياناً على الاكثر باموال الامة ليعود الى العاصمة

سريعاً ، يعيش عيشاً طيباً و ينعم في قصورها بامواله و طرائفه ، و يجني في سنة ثروة كبرى تكفيه واولاده و احفاده على غابر الدهر .

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة في الجباية ، بل لان الجباية كانت على غير قاعدة مطردة ، قد تجي جباية سنئين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ، ولا تراعى في الجبايات اعوام القحوط والجذوب والمصائب ، واذا ضاقت الحال باحد العقلاء او ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجياً وقاتلوه وحرّفوا دعوته على ولاية الامر في الاستانة ، ولبّسوا على العمامة في امره ، حتى يسكتوا نأتمه و يزيفوا دعوته ، والا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الامة من هذه الطريقة المعوجة في الادارة ، فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ، وهما بلغ شعب من الانحطاط لا يخلو من نهباء يجاهرون بالحق ، ولو كان في الجماهرة حتفهم احياناً .

وقد دهر رجال هذا الدور في تزبين الباطل والباسه ثوب الحق ، وقليل عدد المالكين والشاكين والثائرين والناقمين ، اذا نشبت ثورة او حدثت فتنه او تألف جماعة لمقصد وطني ، وكثيراً ما يصورون العذاب الاليم في صورة نعيم مقيم ، ولا يعرضون على السلطان الا المسائل الكبرى ، كأَن تُنقد ثورة في الشام لا يمكن تلافيها الا بارسال جيش كبير من آسيا الصغرى ، وتحتاج الى مال لا بد من استصدار ارادة سنية بادائه من خراج الولاية الفلانية . وغدا قتل الانسان وسي النساء والصبيان وخراب العمران ، من الامور المألوفة في تلك الازمان .

وفي هذا القرن بدأ الحكم وارباب المقاطعات ينوعون اسماء الجباية كأن يقولوا الشاشية والبزرية ، لسد عوزهم والقيام بواجب الضمانات للدولة ، وكثير من الفتن كان الداعي اليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة في اوقاتها ، فتعدهم عصاة عليها وتسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالاً على صاحب الاقطاع او المتسلم ، وخراباً على البلاد واهلها من كل وجه .

والدولة قلما سعت الى استئصال شأفة الشر من اساسه ، وما بحثت قط في اسبابه فتلافتها قبل وقوعها ، وقلما اهتمت للفتن الا اذا التهب شرارها وخشي منها على سلطانها ،

وندر ان اعدت المستعدين ، ورفعت ظلامة المظلومين ، ولما اذا تهتم وكل قطر نشز عليها
تضربه بعسكر من اهل القطر الاقرب اليه ، ان لم تستطع ضربه بابناء بلده انفسهم ،
واذا خافت من والي أو صاحب اقطاع قوة تسلط عليه خصمه او جاره ، فالكاس ابدأ
متعادون متشاكسون ، والالفة ارفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف
العناصر ، وما ذلك الا لتنفيذ رغائب السلطان الذي لا يرى لمملكته بقاء الا اذا
تباغض الناس ، وتربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر .

بدأ القرن وعبدون باشا والي صيدا يهين البلاد بمظالمه ، وجعفر باشا والي دمشق
ليس دونه في انشاء المظالم ، اما الامراء المتغلبة من ابناء البلاد فكان اكثرهم من
احفاد الذين سبقوهم في غزاة ونابلس وعكار ولبنان ووادي التيم وبعليك وحوران
والكرك وسلمية . قال راشد : ان بعض اعيان دمشق اغراهم المال والاقبال فارادوا
الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة ، فكادوا لواليتهم حمزة باشا وطردها عسكره الى
خارج دمشق وقاموا بافعال شنيعة رافعين علم الثورة ، فنقل حمزة باشا الى ايلة طرابلس
واخذ الاهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا اهدوه اليه من الكراع والبسط وغيرها
ونهبوا اتباعه . ثم عين احمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التكنيل بهم وخلفه
مصطفى باشا مكانه فاضطر ايضا لالقاء جبلهم على غاربهم . ولما عين كورجي محمد باشا
أجريت عليه التنبيهات اللازمة ليطير البلاد من هؤلاء الاعيان فدعا الوالي
تسعة منهم كما دعا العاصين محمد اغا صدقة ومحمد اغا قوشجي وبطش بهم وارهب
غيرهم من الخوارج .

هذا ما قاله راشد في هذه السنة ، ولم يقل ان والي دمشق ارتشى من الناس
وظلمهم حتى ثاروا عليه بل قال : انهم اهدوا اليه ايام ولايته وطلبوه بهداياهم لما رحل
عنهم فابانوا عن صغر نفوسهم ، وهذا مما يظير ذهنية الدولة في تلك الايام ، وان الوالي
يجب ان تهدي اليه الخيول والطنافس والاعلاق وربما الدنانير والدراهم من غير تكبر .
وما ندري كيف تكون الرشوة ان لم تكن هذه الهدايا هي الرشوة بعينها .

وفي تقرير لاحد قناصل البندقية أن منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من
٨٠ الى ١٠٠ الف دوكا ومنصب الدفتردار يساع من ٤٠ الى ٥٠ الف دوكا

ومنصب القاضي يساري أقل من هذه القيمة ، وكلهم اذا جاؤا البلد الذي عينوا له
يسابون النعمة ويعرقون اللحم ويكسرون العظم

دور احمد الثاني (توفي السلطان سليمان الثاني سنة ١١٠٢ فتولى السلطنة
وفتن) أخوه السلطان احمد الثاني وهو الحادي والعشرون من
ملوك آل عثمان والسادس عشر منهم في القسطنطينية . وفي أيامه (١١٠٣) عاقبت
الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم في معاملة حمزة باشا على ما تقدم ، وأرسلت حملة
على أبناء سرحان حمادة (١١٠٣) النازلين في الجبال الصعبة المرتقى القريبة من
طرابلس كما قال راشد وكان لهم قبائل وعشائر ، فانفقوا مع أبناء معن حكاهم صيدا
وبيروت ، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة ولكن لا يؤدون اليها مطالبيها في آخر
السنة ، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت الى محافظ الايالة المذكورة الوزير علي باشا
بجمع ما تيسر له من الاجناد وذهب الى جبالهم التي امتنعوا فيها فقتل منهم كثيرين
وأخذ زعماءهم وجعلهم ظعاماً لسيوف رجاله ، وطلب أبناء معن الايمان فأجيبوا اليه
وتخلصت المقاطعات من تعديهم وظلمهم . ونزع الحكم من آل حمادة وكنوا في بعلبك
والهرمل وعكار وجبيل والبترون والضنية والزاوية والجبة وانهزموا على طريق العاقورة
فلحقهم العساكر ومات منهم ومن عيالهم نحو مائة وخمسين نفساً من الثلج ، ولما وصلوا
الى قرية الفرزل انبهم العساكر وأبادتهم ولو لم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد
منهم وحُرقت القرى وقتلوا عنهم وقرضهم على بكرة أبيهم . ونوجه (١١٠٣)
الامير يونس شهاب ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم فقتل ونهب ورجع الى وادي
التيم ، ثم أرسل والي طرابلس الى الامير احمد بن معن يعرض عليه القطائع التي كانت
لال حمادة فلم يقبل ابن معن ذلك وأجاب انه لا يمكنه قبولها بسبب خراب البلاد ،
وأخذ والي طرابلس يتأثر من بقي من بني حمادة في السهل والجبل حتى أفناهم
واستعان بولاية دمشق وصيدا وحلب وغزة على قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة
عشر ألفاً فهرب ووُسد الامر الى الامير موسى اليني بن علم الدين .
وفي سنة ١١٠٥ علي رواية راشد رأيت الحكومة اب أبناء سرحان حمادة

عادوا فيجثم ناجم شرورهم وأخذوا ينقون بمعاوضة ابن معن لهم ، فأقامت الدولة الوزير طورسون باشا قائداً عاماً عليهم ، فجمع من أطراف سورية الف مقاتل من العرب والاكراذ ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو وحكام سورية فالتقى عشرون الف مقاتل في بعلبك والبقاع ، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة وتأثرتهم العسكر فقبضت عليهم وأوردتهم حنفهم وطهرت تلك البلاد منهم اه .

وفي سنة ١١٠٦ عينت الدولة متسلماً على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدي والظلم فقام الحمويون وأخرجوه من البلد قهراً ، فذهب الى المعرة وأرسل شكاية الى الدولة ينسب فيها التعدي للحمويين وابن حسنا الدقيري المشهور بابن قنبيق هو مثير الفتنة فجاء الامر بقتله فقتل في داره سنة ١١٠٦ - وكان لسان حال الدولة أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا العمالي مهما كانت سيرتهم والا قاتلتكم ، ومن فتح فاه بالشكوى أنقم منه بما يستحقه ، فهذه خطي ، وبالرضى عنها نبالون حظوتي .

دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن } توفي السلطان احمد الثاني سنة ١١٠٦ وكانت مدة حكمه اربع سنين وثمانية اشهر ، فنقل السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني فكتب مصطفى باشا والي صيدا الى السلطان الجديد يقول انه لا يمكن ان يحكم بلاد الدروز سوى بيت معن وأظهر استعداد الامير احمد بن معن لذلك ودفع مائتي كيس للطبخ فورد العفو لابن معن مع أوامر الولاية على البلاد . وزاد أرسلان باشا والي طرابلس (١١٠٨) في طلب المال فقتلت كثير من الرعايا عن مواطنهم من شدة الغلاء والظلم وركب والي دمشق على حاصبها وقطع توتها . وفي سنة ١١٠٩ توفي الامير احمد بن معن فانقرضت بموته الدولة المعنية لانه لم يكن له ولد ذكر فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات وهي الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمنتن والشحار والغرب من عمل لبنان ، واختاروا الامير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم حاكماً على لبنان فتولاهما وأحبته الناس وأطاعوه لعدله وكرمه قال الامير حيدر : كانت البلاد يومئذٍ حزبين احدهما بنو قيس والاخر بنو يمن

وكانت القيسية أكثر وأقوى وكانوا راخين بولاية الأمير بشير، وأما اليمنية فلم يرتضوا به ولكن لم يمكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم وقلتهم .

وفي سنة ١١١٠ تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا وإيالة صيدا أخوه قبلان باشا ، وكان الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال الدولة وقصد العصيان فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير الشهابي ، فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوا مشرفاً في مكان يقال له المزريعة ، فقبض عليه الأمير بشير وعلى أخيه الحاج محمد وعلى حسين المرحي وسلمهم إلى الباشا فأمر بشنق حسين المرحي وأعطى الأمير بشيراً إيالة صيدا من بلاد صفد إلى جسر المعاملتين ، وأجر قبلان باشا بلاد آل علي الصغير للأمير بشير فأقام عليها متسلماً الشيخ محموداً أباهرموش . وفي هذه السنة أطالت عنزة وبنو صخر أيديها على الحجاج ، وكان يعهد إلى هاتين القبيلتين بتسفير الحاج ولهما رواتب مقررة عليه ، وقتل منها خمسون رجلاً في القيود فالتقموا من الحجاج وأخذوا أموالهم وعروضهم ، ودخل محمد باشا أبو قاق إلى دمشق بصعوبة . وحوادث البادية تكرر في العقد الواحد مرة أو مراراً فيهلك فيها من العربان وأبناء المدن خلائق : لأن عيش البادية منذ القديم من الغزو والدولة لم تفتح لهم موارد ليعيشوا منها ويكفوا أذاهم عن الحاج والتجارة . ولقد اتنى الأجانب على والٍ من ولاية حلب اسمه يوسف باشا جاء في أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد وقالوا أنه كان يحكم بدون أن يظلم ويسلب ، وإن استقامته جلبت الخير والبركة على البلاد ، وقد جاء حلب في تلك الحقبة واليان اسم أحدهما قائم مقام يوسف باشا تولاهما سنة ١١١٢ ثلاث سنين والآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاهما سنة ١١٢٥ ولا نعلم أيهما اتنى عليه الفرنج .

وفي سنة ١١١٥ خلع السلطان مصطفى الثاني بعد أن حكم ثمان سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام وتولى السلطان أحمد الثالث وهو الثالث

عهد أحمد الثالث وسياسة الدولة مع من ينكر الظلم ووقعة عين داره

والعشرون من آل عثمان . وفي تاريخ راشد إن محمداً نقيب أشرف القدس تغلب

سنة ١١١٨ على الحاكم والوالي وأخذ يثبت الفساد في تلك الارحاء فأرسلت الحكومة
 التي انكشاري وثلاثمائة جبهجي ومئة مدفعي للقوية مركزها في القدس فوقع بينه
 وبين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن الى الفرار واخفى في قلعة طرطوس فبلغ
 واليها امره فأرسل فقبض عليه وأرسله الى الاستانة فقتل . وما ندري معنى لقول
 المؤرخ ان تقيب القدس أخذ يثبت الفساد في تلك الارحاء ، بل نعتقد ان ثورته لرفع
 فساد العمال وسوء الادارة ، يعرف ذلك من عرف ان القوم اعتادوا في كتاباتهم
 الرسمية ان يلقبوا بالمفسدين كل من كانوا من المصلحين ، يهد انهم مفسدون لامرهم ،
 عاملون على نقض أساس مجدهم . كما وقع في هذه السنة ايضاً وقد أراد سليمان باشا
 البلطجي كافل دمشق أخذ قرض من تجارها واحداث بعض مظالم فمنعه أعيان
 دمشق ومنهم أسعد البكري وعبد الرحمن القاري وسليمان المحاسني فنظام الى صيدا
 وعرض للدولة اموراً عنهم لم يأتمروا ثم أعيدها الى بلدهم واعتذر الوالي عما عزا اليهم .
 وفي سنة ١١١٩ توفي الامير بشير الشهابي وخلفه الامير حيدر الشهابي فركب في
 السنة التالية لغزو بلاد المتأولة لان المشايخ بني علي الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الامير
 بشير بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الامير حيدر حكم بلاد الشوف
 وكسروان ، فغزاهم الامير حيدر برجال بلاده وتجمعت المتأولة في قرية النبطية
 فأوقع بهم هناك وظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورجع الى بلاده فعظم ذلك على
 بشير باشا فأرسل يقوي الامراء اليمنية في الغرب والجرد من بني علم الدين وغيرهم .
 وفي سنة ١١٢١ تعاضم امر اليمنية في بلاد الشوف وتظاهر الامراء بنو علم الدين
 بذلك وساعدهم الامير يونس أرسلان حاكم الشويفات ومال اليهم من القيسية الشيخ
 محمود أبوهرموش ، ثم وسد الحكم الى الامير يوسف علم الدين واخيه الامير منصور ،
 وكان زمام ولايتهما في الحقيقة بيد الشيخ محمود أبوهرموش فجاروا على القيسية وظلمهم
 ولم يبقوا لهم منزلة ولا حرمة . وفي هذه السنة أحرق الامير يوسف مع عسكر الدولة
 بلدة غزير ونهبها ، وسار والي دمشق الى جبل عجلون وباغت بلاد نابلس وقتل من
 أهلها مقتلة عظيمة وسبي عسكره نحو سبعمائة امرأة .
 وفي سنة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) أنفذ الامير حيدر الشهابي امراً الى قيسية

الشوف فتجمعوا في رأس المتن ، فلما بلغ اليمنية ذلك أرسلوا الى بشير باشا والي صيدا فحضر الى حرج بيروت ، وأرسلوا الى نصوص باشا والي دمشق فحضر الى البقاع ، واجتمع القيسية من الغرب والجرد والشوف الى عين زحلنا في العرقوب ، ثم انتقلوا الى عين دارة ، وجرى الاتفاق ان تطلع عساكر الدولة المجتمعة في حرج بيروت الى بيت مري في اول المتن ، وان يطلع نصوص باشا الى المغيشة في طرف المتن ، واليمنية الى حمانا في وسط المتن ، وتمشي الثلاث فرق في يوم واحد على القيسية ، فأجمع رأي القيسية مع الامير حيدر الشهابي ان يباغتوا اليمنية في الليل في عين دارة ، فباغتوهم واعملوا فيهم السيف ، وقتلت اليمنية أشد قتال وما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين دارة ، وما سلم من اليمنية غير قليل . وفي تلك الليلة قتل خمسة امراء من بني علم الدين وأمسك الشيخ محمود ابوهرموش وقطع الامير لسانه وأباهم يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم أمرهم ، ونزع من كان يميناً من البلاد وخربت ديارهم وزال ذكر اليمنيين من الشوف وحكم الامير حيدر ، وأعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدهم به ، وكثرت مشايخ البلاد في أيامه . وتعرف هذه الواقعة بوقعة عين دارة التي قتل فيها جميع الامراء من آل علم الدين بيد الامير حيدر الشهابي فانقرضت بموتهم سلالة آل علم الدين كما ضعفت شوكة اليمنيين واي ضعف .

فتن ومظالم مستجدة } وفي سنة ١١٢٢ ركب نصوص باشا على الكرك وعمل وظهور آل العظم كـ لغماً ووضع فيه البارود وأعطاه النار فانهدم جانب من السور فصاح أهلها الامان وخرجوا عن القلعة فقتلهم وأسر الاولاد وسبي النساء . وفي سنة ١١٢٣ باغت ناصيف باشا والي دمشق المتن وأسر منها أناساً كثيرين وسبي النساء والاولاد . وفي سنة ١١٢٤ عهد والي صيدا بولاية بلاد بشارة الى الامير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا فأنشأ بها مظالم كثيرة .

وفي سنة ١١٢٩ تولى دمشق عبدالله باشا الكركجي (كوبرلي) وكان عادلاً حكماً لكنه لم تطل مدته أكثر من سنة . وفي سنة ١١٣١ كانت وقعة القرية بين الامير حيدر الشهابي والمشايخ المتأولة وكانت النصر للامير حيدر . وفي سنة ١١٣٣

كانت الفتنه بين مشايخ المتاوله والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد وجري بينهم قتال شديد فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير ثم خرج عثمان باشا والي دمشق بالعسكر على بلاد صفد وقتل منهم اكثر من ثلاثمائة رجل وقتل البشناق اولاد مشايخ بلاد صفد .

وفي سنة ١١٣٦ كان الظلم شديداً وكثرت العوانية حتى صارت ارض الشام مشغولة بالظلم في شرورها وكثر الظلم واستلاب الاموال . وثارت (١١٣٧) فتنه بين القبوقول والانكشارية وظلت دمشق ثلاثة ايام مقفلة وقتلت فيها جماعات من القبول والرعية وكذلك الحال في حلب .

وعرف هذا الدور بظهور آل العظم حكماً في الشام ، واختلف الباحثون في أصلهم فمن قائل انهم أتراك من قونية ، ومن زاعم انهم عرب من المعرة معرة النعمان . تولى دمشق (١١٣٧) اسماعيل باشا العظم وكان من قبل والياً على طرابلس وهو اول من تولى إيالة دمشق من بني العظم ، وقال بعض المؤرخين : ان ناصيف باشا كان والياً على دمشق وقتل في الرملة سنة ١١٣٠ وعلى هذا فيكون هو اول من تولى دمشق من هذه الأسرة . ذكر ابن مبرو ان والد اسماعيل بن ابراهيم العظم كان جندياً سكن معرة النعمان وكان لاهلها مع التركات التي ترد الى جبلها شتاء وقائع جرح في بعضها والد المترجم فتوفي وأعقب المترجم اسماعيل وسليمان وموسى ومحمداً وكلهم أعقب خلا محمداً وكانت ولادة اسماعيل قبل السبعين والـف بالمعرة وبها نشأ ، وثقلبت به الاحوال الى ان صار حاكماً ببلده ثم بجماة ، وأنتمت عليه الدولة بطوخين رتبة روملي ومالكانة حماة وحمص والمعرة عليه ، وعلى اخيه سليمان ومنصب طرابلس عليه وسر عسكر الجردة فبعد عوده من الجردة سنة ١١٣٨ تولى الشام وإمرة الحساج بالوزارة وخمس سنين وحارب في السنة السادسة عرب حرب بين الحرمين فعزل وامتنح سنة ١١٤٣ وجلس بقلعة دمشق واستأصلوا أمواله مع اموال ذويه وأفرج عنه سنة اربع واربعين وولوه خانية وأعقب السيد ابراهيم واسعد وسعد الدين ومصطفى وكلهم تولوا الوزارة خلا الاول فانه توفي بجماة سنة ١١٥٩ وهو برتبة روملي معزولاً من صيدا .

وفي سنة ١١٤٣ توفي الامير حيدر الشهابي حاكم لبنان بعد ان حكم ستاً وعشرين سنة على رواية المؤرخ الشهابي بالعدل والحلم والكرم وحسن التدبير وخلفه ابنه الامير ملحم ، والامير حيدر هو الذي أحيا ذكر القيسية والقي ابنه الفتنه بين مشايخ البلاد فاختلفوا ، وكانت الدولة لا تقدر عليه على بغض اسعد باشا العظم والي صيدا له وسعيه به .

عبد محمود الاول } ننازل السلطان احمد الثالث عن ملكه باختياره (١١٤٣)
بعد ان حكم ثماني وعشرين سنة وتسلطن السلطان محمود الاول وهو الرابع والعشرون من آل عثمان والتاسع عشر منهم في القسطنطينية ، وكان السلطان احمد الثالث غريباً في أطواره يحب الطيور والازهار ، ويقضي أوقانه في تسلية سراريه بالافراح والزين ، ومع هذا يسجل له الفضل ورجاحة العقل في حسن اختياره صدوراً عظاماً شرفوا بأعمالهم عهدده فلم يكن كبعض اجداده لا بعمل ولا يترك أحداً يعمل .

وفي هذه السنة وقع بين القبوقول والانكشارية الحرب والقتال وأغلقت دمشق اربعة ايام وقتل من الفريقين شرذمة . وفي سنة ١١٤٤ استأجر الامير ملحم الشهابي بلاد بشارة وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير وباغت اخوته فهربوا فقتل ثلاثة عشر رجلاً من قبيلتهم ونهبت الدروز تلك البلاد ، وعاد اولاد الشيخ نصار واستأجروا البلاد من الامير ملحم .

قال الشهابي في حوادث سنة ١١٤٧ انتقل اسعد باشا العظم من إيالة صيدا الى إيالة دمشق وكان والياً عليها منذ سنة ١١٤٣ — وتولى إيالة صيدا اخوه سعد الدين باشا والي طرابلس وتولى طرابلس سليمان باشا العظم وقويت شوكة بني العظم في بلاد العرب وعظمت دولتهم اه . عظمت دولتهم لانهم اخلصوا في الغالب للدولة كل الاخلاص حتى أمنتهم ووسدت اليهم الاحكام في الشام وتركتم يعملون ما يشاؤون ، وجاء دور وهم حكامها من اقصاها الى اقصاها وقل جداً في هذا القرن من تولى ولاية حلب او دمشق او طرابلس او صيدا او اللاذقية او غرة بضع سنين . ومن

بني العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين ، فان اسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (١١٣٧ — ١١٤٣) ، وسليمان باشا العظم تولاهما خمس سنين للمرة الاولى (١١٤٦ — ١١٥١) وثلاث سنين للمرة الثانية (١١٥٤ — ١١٥٦) واسعد باشا العظم تولاهما اربع عشرة سنة (١١٥٦ — ١١٧٠) وكان تولى صيدا اربع سنين ومحمد باشا العظم تولى دمشق مرتين اثنتي عشرة سنة ، وكان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بني معن وبني شهاب وبني الحرفوش وبني سيفا وبني طرايبه ومنهم الصالح والطالح وهل هم الا نموذج من عصرهم ، ولا شك انهم جمعوا أموالاً كثيرة لان حكوماتهم طالبت ايامها والولاية بالالتزام فكان الوالي منهم كسائر الولاة يرضي الاستانة بمبلغ ويبقى له بعد كل اسراف مبلغ كبير وهو الحاكم المتحكم في ثروة البلاد والافراد . وقد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفي سنة ١١٥٦ وعذب المفوض بذلك أسرته على أشنع وجه ، وكذلك ضبطت اموال ابن اخيه اسعد باشا وأخرجت الدفائن من قصره وكان بعضها مخبوءاً في الارض والجدران والاحواض وبهوت الخلاء وفعلت مثل ذلك باتباعه ورجاله . قال الشهابي : ان اسعد باشا العظم بنى أبنية عظيمة في دمشق وجمع مالاً لا يحصى وسار بالحج مرات فأُنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى وأمرت ان لا يشهر عليه سلاح ولا يقتل ثم أرسلت اليه فقتلته في الحمام طمعاً بكثرة امواله وضبطت ماله وأملأه وقال : انه كان جليلاً عاقلاً حسن التدبير مولعاً بالخيل الجياد حتي قيل انه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لاجل ركوبه .

وذكر البديهي ان السلطان محموداً أنعم على عبدالرحمن افندي (١١٦٥) بمحصل حلب بالولاية فوجه في الحال متسلماً حسن افا الى طرابلس فأمن الخواطر ونادى بالامان وصار الفلاح ينزل الى طرابلس آمناً على نفسه وأرخص الاسعار ومهد الامور التي كانت متعذبة من ظلم بيت العظم ، وكذلك فعلوا باسماعيل باشا في الشام وباخيه سليمان باشا والي صيدا وبهاسين بك بن ابراهيم باشا والي اللاذقية من قبل ابيه واسعد بك بن اسماعيل باشا والي حماة وحسن بك اخي اسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعاً سجنوهم وأخذوا اموالهم للسلطنة وولوا علي صيدا احمد باشا بن عثمان باشا

ابو طوق اه . وقال فولنيه الرحالة الفرنساوي : ان بني العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة .

وترجم ابن ميرو اسعد باشا العظم فقال : انه لما وسدت اليه الدولة مالكانة حماة سار فيها سيرة حسنة وعمر بها خانات وحمامات وبساتين ودوراً ليس لذلك كله في البلاد الشامية نظير ، ثم ولي صيدا فاستعفى منها وطلب حماة منصباً بعد ان كانت مالكانة له ولعمه فرفعت منه المالكانة ووجهت له منصباً ودخلها سنة اربع وخمسين ومائة والالف وبذل الاموال الى ان جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا والي جدة سابقاً . وفي سنة ست وخمسين تولى دمشق وإمرة الحاج لموت عمه سليمان الوزير وحج بالحجيج اربع عشرة حجة وعزل عن دمشق وإمرة الحاج بالوزير حسين باشا مكّي وولوه حلب ثم عزل عنها ونفي الى جزيرة كريت ونسبوا له ما وقع بالحجيج وقتل بمدينة انقره . وقال في ترجمة أسعد باشا ايضاً : انه كان محموداً في ولايته وأهل الشام في زمانه في راحة وأمن وظأئينة ، وكان صبوراً صبر على زُرب الاحداث الاشقياء في الشام حتى أخذهم الله على يده ، وأذاه عرب حرب فصر على اذاهم حتى انتقم الله له منهم عن يد الوزير المرحوم عبد الله باشا جته جي ، وكان له صدقات وإدارات على بعض العلماء بالشام والحرمين .

وقال جودت في وقائع سنة ١١٩٧ وفيها توفي والي للشام وامير الحاج محمد باشا العظم بعد ان اقام في وظيفته اثنتي عشرة سنة ولما كان وزيراً مشهوراً من اهل الثروة والغني عين مباشرون مخصوصون من الاستانة لضبط امتعته وامواله . وقد اثني المرادي على محمد باشا العظم هذا فقال : ان له من المآثر في كل ولاية وليها ولاسيما في دمشق ما يحسن ذكره وانه رفع المظالم وانشأ المعالم قال : وبالجملة فهو من احسن من ادر كنهه من ولاة دمشق واكملهم رأياً وتديباً .

والغالب ان الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بني العظم في الشام يقاتلون الخوارج عليها ولا تحذتهم انفسهم بنزع ايديهم من يدها ويدفعون اليها الخراج في اوقاته ، ولذلك كانت ترعاهم على الجملة في حياتهم وثر كهم يستمتعون بنعمها ، فاذا هلكوا جاءت ووضعت يدها على عروضهم واموالهم كما هي عادتها ، ولعلمها استبطأت

اسعد باشا في الولاية فخشيت شره فخنقته . وبالجملة فان احوال ذاك العصر يصعب
الآن الحكم عليها لقلة من نظر في المؤرخين في الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح .

رجع^١ الى سلسلة الحوادث . فقد توفي سنة ١٠٤٨ الامير محمد
فن ومشاغب } فروخ التابلسي وكان من شجعان الدنيا تولى حكومة القدس
ونابلس فأرهب العربان وكبر صيته وبقي في اماراة الحج ثماني عشرة سنة ، وبلغت رهبته
في قلوب العربان وكانوا اذا ارادوا ان يخوفوا احداً منهم يقولون ها ابن فروخ
اقبل فتلوى قوائمه . وفي سنة ١١٥٢ . كبس وزير صيدا بلاد الشقيف وقتل الشيخ
احمد فارس واولاده ورفعت القبو قول والاط من بلاد الشام (١١٥٢) خلبت سيرتهم
وهاجم (١١٥٦) الامير ملحم الشهابي بلاد المتاولة ووصل الى قرية نصار فالنقى ببساکرهم
وانتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة وقتل منهم الثا وستمائة قتيل وقبض منهم
اربعة مشايخ ونهب بلادهم واحرقها ، وباغت والي صيدا ووالي طرابلس ووالي دمشق
بلاد الامير ملحم الشهابي في لبنان لتأخره عن اداء المال السلطاني واحرقوا اقليم التفاح
ومرج بشرة ثم وقع الصلح وادى ما عليه . وجوز (١١٥٦) سليمان باشا العظم والي
دمشق عسكرياً على الظاهر عمر الزيداني بعد ان قبض على اخيه مصطفى وشنقه بدمشق
فلما وصل الوزير الى قرب عكا لحصارها رشا ظاهر العمر بعض اتباعه فادخل على
سليمان باشا السم في طعامه فمات وجيء به الى دمشق في اكثر الروايات وسليمان
باشا هو ابن ابراهيم ولي طرابلس وصار جردا وياً لاختيه شقيقة الوزير اسمعيل ثم ولي
صيدا ، وبها صارت له الوزارة ثم ولي صيدا ثانية ثم ولي دمشق (١١٤٦) بامارة الحج
وحج خمساً بالحجيج الشامي ثم ولي مصر وعاد الى دمشق فوليا سنين .

وفي سنة ١١٥٧ كانت الموقعة في مرج عيون بين المشايخ المتاولة واهالي وادي
التم ومعهم دروز جبل الشوف وكانت الكسرة على الدروز وعسكر وادي التيم وقتل
منهم نحو ثلثمائة قتيل وحرقت المتاولة جميع قرى مرج عيون .

وفي سنة ١١٥٨ ملك الدالاتية قلعة دمشق فقاتلهم الانكشارية ، وامر اسعد
باشا العظم حاكم الشام ان يقصدوا سوق ساروجا واطلقت المدافع فخرت الدور ونهبت

دار رئيس الفتنه وخربت وجرت القافية بقية الدور ولم يبق من سوق ساروجا الا القليل واعمل اسعد باشا السيف بكل عاص وقتل عسكره اناساً وسلبوا الدور واحرقوا بعضها ، ثم صلب كثيرين وبقيت المشنقة اياماً لا تخلو من مصلوب اتهم انه كان يمالئ ارباب الدعارة على رغائبهم ، وتركت جثثهم اياماً امام السراي تأكلها الكلاب وسلخت رؤوسهم وجعلت اكواماً ، وصارت المدافع تطلق بكرة وعشية مدة شهرين وكثر العزف بالابواق واطلاق السهام النارية في الفضاء .

وفي سنة ١١٦٠ غزا اسعد باشا العظم والي دمشق البقاع فركب الامير ملحم الشهابي بعسكر بلاده الى المغيشة ونزل اليه عند برالياس فانكسر الباشا ووصل الامير ملحم الى سهل الجديدة ثم رجع واحرق جميع قرى البقاع ورجع الى بلاده منصوراً وهابته الدولة . والسبب في هذه الفتنه تأخر الامير ملحم في دفع الاموال الاميرية علة العلل واصل معظم الفتن ، وغضب سليمان باشا العظم (١١٦١) على الانكشارية في دمشق فأخرجهم عنها ، فحضر رئيسهم احمد آغا القلطيقي ومعه عدة اغوات الى جبل الشوف ، واجتمعوا عند المشايخ بني يزبك وكانوا ينزلون وينهبون من نواحي دمشق ويقطعون الطريق واحرق الامير ملحم ديار بني تلحوق في الغرب وديار بني عبد الملك في الجرد .

وحاصر سليمان باشا العظم الشيخ ظاهر العمر في قلعة طبرية (١١٦٠) ثلاثة اشهر فادركه ركب الحج فارنفع عنها ولما خرج الباشا الى الحج ارسل الامير ملحم عسكراً الى بلاد بعلبك فطرد الامير حيدر الحرفوش وولى مكانه الامير جسيناً ، وخربت الدروز بلاد بعلبك وقطعت اشجارها . وفيها حضر خط شريف بقتل اغوات الانكشارية بدمشق فقبض الوالي على بعضهم وقتل ابن الفلاقنسي . وذكر ابن بدير انه بلغ متسلم دمشق سنة ١١٦٢ ان بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاؤا دمشق ينهبون ويحرقون فأرسل الى الموالي والمفتي والقاضي يأمرهم بان يأخذوا معهم الاعلام وينادوا هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله والسلطان ليخرج الى قتالهم . فخرج الناس فقتلت الحامية زمرة وكان الدروز يحتجون بان قدومهم كان لاجراج اخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا في حارة الميدان والقيبات كل من لا يخرج للقتال معنا نهب ماله وداره ، فانضم جماعة من الحارات ونزلوا الى السويقة ووقع القتال بينهم

وبين القبوقول والدالاتية ، واغلقت البلد حوانيتها وحصرت الحارات ونبه المتسلم على اهلها ان لا يخرجوا الى الازقة ليحرسوا دورهم ، ثم جرت مقتلة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم والقبوقول .

ثم فتح عسكر الباشا الدكاكين في باب الجابية ليلاً ونهبوا ما فيها من طعام وهدموا مصاطبها وصيروها متاريس ومن الغد باكروا القتال وزحفوا الى السويقة ومعهم العملة والبنائون فحرقوا الدور والقصور واطلقوا المدافع على الاشقياء فولوا الادبار ، فامر المتسلم عسكره ان يقعوا في نهب الدور والدكاكين . وروي انه اخرج فتوى وحجة وامراً قاضياً بان ينهب الجند من حد السويقة ويقتلوا ويهدموا ولا يعفوا عن انسان ، فسلبوا الاموال وسبوا الحريم ، ودام الامر الى وقت العصر فردم الاشقياء والدروز ونصرهم اهل الميدان .

ولما هرب الدروز نودي في البلد بالامان وان تفتح الاسواق ويكف عن النهب قال ابن بدير : وقد سرت مع من سار فرأيت فضائح الميدان ، والقنلى مجذلة ، والابواب محطمة ، والدكاكين مقفرة ، ثم اضطرب اهل القبيبات والميدان والسويقة وباب المصلى واخذوا ينقلون اثاثهم الى داخل المدينة مثل باب السريجة والقنوات وغيرهما من الحارات . وخاف الاكابر والحكام والعامّة فجعلوا يعزلون الدكاكين ويخبأون ما حوته في البيوت وبلغ عدد الدور المنهوبة في هذه الواقعة كما قيل الفاً وتسعمائة دار واما الحوانيت فكثيرة جداً .

هذا وقد اخذ القبوقول يمسكون الناس ويأتون بهم الى الحكام ويقولون : هذا كان يقاتل مع الاشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة ولا اثبات ، ولا قصد للقبوقول الا اخذ ثارات لهم مضت مع الانكشارية ، الى آخر ما اصاب دمشق الشام في ذلك العام من حرق ونهب وغلاء وفضائح وفظائع . وكان من العادة ان تغلق ارجحة الفيحاء وحوانيتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول والانكشارية وبينهم وبين الدالاتية والاشراف والاكراد والدروز ، حتي ينادي منادي من قبل الحاكم بأمر بفتح الدكاكين وبطمن الناس .

وجاء دمشق (١١٦١) أحد موالي اسعد باشا العظم وكانه نقل بعد ولايته دمشق

الى حلب ، فذكر الانكشارية والعامّة ظلمه ايام كان سيده حاكماً في دمشق فقاموا
 قومة رجل واحد فالتجأ الى القلعة وحماه القبولول ولما أريد على الخروج من دمشق ابي
 فأغلقت البلدة دكا كينها ومحالها وتجمع الانكشارية وتبعهم الناس وتعصب العنابة
 والاكراد والدالاتية مع القبولول وأهل حارة العمارة وحدثت غارة في سوق الدرويشية
 وأطلقت النيران على الانكشارية ثم قاموا على أهل حي العمارة فانهزم أهلها منها
 وأحرقوها حتى صارت بلقماً وراح أهلها الى الجامع الأموي ودامت الفتنه اياماً
 حتى قر رأي الاكابر والامراء على اخراج مولى ابن العظم من دمشق فأخرج ولم
 تطفأ جذوة الفتنه لان الثائر بن مازالوا يملظون بطعم الغنائم ويزددون حلوى الغارة
 وجاء الخبر بان الجالين عن دمشق نهبوا الضياع في طريقهم وقتلوا الانفس وهتكوا
 الاعراض وصادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم وقتلوا منهم فريقاً . وأخذ
 القبولول يطلقون النار على الرعية وظلت الفتنه قائمة في البلد بين القبولول
 والانكشارية والاشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة اولاد وثار الحرب
 في شوارع المدينة اياماً ثم عتا الانكشارية على حاكم دمشق فصاح في جنده وركب
 الى الميدان فهربوا أمامه فأعمل وجنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ومن
 لم يمت بالسيف قاده بالسلاسل والاغلال ، وعم نهب العسكر الكبير والصغير والناس
 بين قتيل وأسير ، ونهبت الدور والدكاكين وانكبت الفقهاء نكبة عظيمة فعريت
 النساء وخطفن الجوارى والعذارى ، وتمنى العقلاء الموت ثم نهض جماعة الحاكم الى
 النهب فمنعهم وأمر بجمع ما نهبوه فما وصل الا القليل أودعه بعض الجوامع وأمر منادياً
 ينادي لتأخذ الاسلاب اصحابها ، فأخذ بعضها وذهب الاكثر ، واما أتباع الوالي
 فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه ويقطعون رأسه او يجلسونه ، ونناول أذاهم من في
 الدور وتعست الحال .

ووصف ابن النجار هذه الفتنه فقال : ان السلطان ارسل والياً آخر غير الذي كان
 وجرت هذه الوقعة في عهده فقتل الاشقياء من المسلمين والدروز والنصارى وخرّبوا
 وحرّقوا الدور ونهبوا الاماكن قال : وتعطلت الاسواق والمعاملات بسببهم في دمشق
 قريبا من سنة لا تقام جمعة ولا يسمع اذان ولا يفتح جامع ولا يتمكن احد من الخروج

من منزله حاجة ولا لغيرها ، لفسادهم وفسادهم وتعديهم على اخاص والعام . وانما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود والٍ بدمشق فان واليها كان خرج منها الى الحج اميراً فجاء الوالي الثاني وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر وسلب دورهم ومتاعهم واثاثهم ولحق دمشق واهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده كل بؤس ، وذلك بسبب قيامهم على اولئك الاشقياء ، وانتهبت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من الابرياء وتوطن هذا الجند انكثير من دور الناس واخرجوا اهلها منها عنفاً وظهر من اتباع هذا الوالي ما انسى اهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند اليهم وقال : ان هذه الفتن وقعت سنة ١١٧٠ وارسل عبد الله باشا الشنجي والياً ليرفع الحيف عن الدمشقيين واعادة الامن الى طريق الحج ، واشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول والانكشارية ثم فر الانكشارية طالبين البراري والقفار فتبعهم نفر من الجند وقتلوا منهم عدداً ، ثم ان الجند اخذ في قتل من يراه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والخوانيت من حدود الحلقة الى باب الجابية والجند يأتون بالرؤوس الى الوزير ، فقتل من الرعايا على هذه الحال عدد كثير وانتهب المال والمتاع ، وظلم رئيسهم وحواشييه واختطف النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع ، والجند يقولون ان جميع الدمشقيين كفرة وانهم قوم يزيد . قال الشهابي في دخول والي دمشق الجديد الى المدينة : انه كان مع الشنجي ثلاثة عشر الف رجل فاجتمعت اهلالي دمشق الى الميدان ليمنعوه من الدخول فدهمهم ليلاً وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وفي سنة ١١٦٣ حصل بين سعد الدين باشا العظم وبين اهل حلب وحشة فرحل عنها جرداويّاً « وكان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لانه لم يتول هذه الايالة في الدولة العثمانية احد استقلاً لقلّة دخلها ووفرة خرجها فولوه طرابلس جرداويّاً لاختيه اسجد باشا الوزير فأقام جرداويّاً فيها وفي صيدا وحلب اثنتي عشرة سنة » روى الشهابي في حوادث سنة ١١٧١ انه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق والقبوقول وكانت دروز الجبل تعين الانكشارية في القتال فأنصروا وقتل من الفريقين اربعون قتيلاً ، وحاصرت القبوقول في القلعة وجرى بينهم اربع وقائع ، والانكشارية

ننصر بامداد الدروز ، ثم وقعت الفتن بين عسكر الباشا وعسكر الانكشارية فانكسر
عسكر الوزير وخرج الانكشارية من دمشق نحو الف فارس ووقع القتال بين اهل
البلد وعسكر الوزير فقتل من اهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالامان .
وعدد ابن بدير كثيراً من مظالم الدقتردار فتحجي افندي ومما قال : ان الاهلين
لما ضاقوا به ذرعاً استعدوا الباب العالي فاعدهم ، فأحضر الى العاصمة ليمثل بين يدي
السلطان ، فاخذ ينجح المناجح لارباب المظاهر حتى ادخلوا على السلطان شخصاً آخر
بدلاً منه واوهموه انه هو المشتكى منه فأمر بقتله فقتل . اما فتحجي فسفره اعوانه من
النظار تحت جنح الدجى فأب الى دمشق ينعل الافاعيل المنكرة ، حتى اذا ضاق الخناق
ورد الامر بقطع رأسه فقطع وجراً في شوارع المدينة وترك للكلاب نهبه ومثل
بعض اعوانه وصودرت امواله .

* * *

عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث وبعض الاحداث في ايامها
وبينا كانت دمشق تموج بالفتن وتستل فيها
الارواح بسوء ادارة الولاة وتلاعب رؤساء
الجند كان لبنان وهو ربيب القوة والمقاومة لا يخلو
على ذاك العهد من فتن تدك العمران ، ونفني الانسان والحيوان ، فقد ذكر المؤرخون
ان المشايخ المناكرة تطاولوا (١١٦٣) على اقليم جزين فعظم ذلك على الامير ملحم الشهابي
وركب لحرب جباع الخلاوة فهربت المتأولة من وجهه وأحرق اكثر بلادهم ، وكان
قد اصاب منهم جماعة في جبل الشوك فوق جباع وقتل من المتأولة نحو ثلاثمائة نفس
وحرقت حارة جباع وقطع الاشجار هناك ، واحرق بلاد الشقيف وبلاد بشارة ، ثم حدث
بين جماعة الامير ملحم الشهابي ووالي دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع في البقاع
على المسافرين في طريق دمشق فقتل أناس من عسكر الفريقين ، ثم وقع الصلح بين
امير لبنان ووالي دمشق على ان يؤدي الاول للثاني نفقة الحملة . وفي سنة ١١٦٥
وقعت فتنة بين المشايخ بني ابي نكد فغضب الامير ملحم الشهابي عليهم وأرسل فنفاهم
من البلاد فزجوا الى وادي التيم وهدم منازلهم في دير القمر ثم رضي عنهم . وكانت

للسيد احمد باشا الذي كان والياً في حلب سنة ١١٦٥ الحظوة عند رجال الاستانة قال ابو الفاروق : فعينوه والياً على قونية فسبقه اليها زوربا كورد محمد ، واثار افكار أهلها عليه لما عرف به من المظالم ، فخاربوه وهلك أناس في هذا السبيل ، ثم عينه الدولة والياً على حلب فسبقه اليها كورد محمد ايضاً ومثل الرواية التي مثلها في قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر ، ودامت الحرب في حلب مدة وأحرقت البيوت وخربت البساتين وقطعت المياه عن البلدة .

وفي سنة ١١٦٨ توفي السلطان محمود الاول بعد سلطنة خمس وعشرين سنة وتولي السلطنة السلطان عثمان الثالث وهو الخامس والعشرون من آل عثمان ولم يعمل عملاً يذكر اللهم ما كان من تبديل وزرائه والافراط في هذا التبديل ، وكان يميل الى الطرب والصفا ويعمر الابنية في العاصمة وأسس بعض دور الكتب . وفي خلال ذلك تولى دمشق وامارة الحاج حسين باشا مكي او الفخر الغزي ولم يكن شرهاً في جمع المال ويميل الى العدل وحسن الرياسة غير انه كما قال المرادي : كان بطيئ الحركة عن شهامة الوزراء ، فبسبب ذلك حصل من البرلية (الجند الوطني) والقبوقول (الحرس) وغيرهما من طوائف الاكراد والعسكر فتن وحروب ، وحصل للاعيان والرؤساء الضيق العظيم وقامت عليهم الناس .

وفي سنة ١١٧٢ هلك السلطان عثمان بعد ان ملك ثلاث سنين وثمانية اشهر وخلفه السلطان مصطفى الثالث فافتتح العهد بالاعلان بتبديل السياسة ولكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام وسيادة الاشتمزاز على الناس ، ووضع ثقته في وزيره رجب باشا فأحسن وكان رجب باشا ذكياً ومخلصاً .

وفي سنة ١١٧٤ كان والياً على دمشق عثمان باشا الكرجي وكان يلقب بالصادق وسبب هذا اللقب انه كان من بعض مماليك اسعد باشا العظم وهذا يحبه لنباهته . ولما قتل اسعد باشا وضبطت الدولة داره وامواله طلبوا عثمان هذا فاخبرهم بخرائن مولاه ثم وجدت قائمة بين تلك الاموال فكانت مطابقة لكلامه فانعمت عليه الدولة ولقبته بالصادق ، وتولى ولاية دمشق احدى عشرة سنة (١١٧٤-١١٨٥) ومما وقع في ايامه ركوبه لحرب محمد الجرار الى قلعة صانور من عمل عكا ، ارسل الى الامير

يوسف فبعث بعسكره والتقى به عثمان باشا فعظم امره عنده واكرمه ، واصلىح الامير اسمعيل الشهابي حاكم حاصبيا قلعة بانياس وبني ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن واقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة وجيزة ثم سلمه القلعة ونهب عثمان باشا كل ما كان فيها وامر بهدمها .

سيرة ظاهر العمر } استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود والٍ مخلص لها في
الزيداني وسياسته } دمشق عثمان باشا الكرجي الصادق ، فتركته وشأنه يعمل
باسمها ويقا تل اعداءها ، فطالت ولايته على حين ثقلت حلب في مدة حكمه على دمشق
احدى عشرة سنة في أيدي عشرة ولالة . وكانت البلاد تتمتع في خلال ذلك
بظهور رجلين في العقدين الاخيرين من هذا القرن كما تخضت أواخر النصف الاول
منه بظهور آل العظم ، ونعني بهذين الرجلين الشيخ ظاهر الممر الزيداني واحمد باشا
الجزار . فانهما شغلا البلاد بامرهما ، واهتمت لعظم شوكتها الامة والدولة ، وجاء
الثاني على اثر الاول فبزه ظلماً وعدواناً . ولم يكن قيام امر الرجل في ذاك العهد
يتوقف على نباهة فيه وعلم مهم ، بل غاية ما يحتاجه شيء من المعرفة بطبائع من يقوم
فيهم ، وتلطف باستمالة قلوب أفراد يعول عليهم ، ورأس مال قليل يؤديه ثمن
اقطاع او نفقة الظهور ، ومهارة في البطشة الكبرى الاولى ودهاء وحيلة ، وعندها
يزيد كل يوم قوة ولا تلبث الدولة ان ترعاه ، والاهلون ان ينفيتوا ظله وحماه .

في اواسط القرن الحادي عشر للهجرة جاء الى جهات فلسطين الشمالية من الحجاز
رجل يدعى زيدان وله ولد اسمه عمر ولعمر ولدان اسمها ظاهر وسعد . ظعنوا عن
بلادهم لخصومة وقعت بينهم وبين عدو اقوى منهم مراساً ، فجاءوا وضربوا خيبتهم في
الاطراف الشمالية من سهل البطوف في ارض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس ولما
كانت قرية العرابة اقرب القرى اليهم جاء وجهاء القرية وزاروهم وحيوهم وسألوهم ان
يأتوا الى قريتهم بضربون خيامهم في ارضها لانهم كانوا على اربعة اميال منها . وكان
في قرية سلامة المعروفة اليوم بخربة سلامة الواقعة على منحدر الوادي المسمى بهذا
الاسم شيخ درزي قوي الجانب برجاله الاشداء باسط اجنحة نفوذه على ما جاوره من

البلاد . مر بعرابة ذات يوم ووقع نظره على فتاة اعجبه حسننها وطمع فيها لنفسه . ونزل بيت احد وجهاء القرية ودعا اليه الزعماء وطلب منهم الفتاة ، فشق على سكان عرابة ذلك خصوصاً وهو درزي وهم سنة . وارتبك اهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع فقال لهم : اخطب سهل على ان تعاهدوني ان تعملوا ما اسألكم اياه ولا تبوحوا به فقال : اجيبوا الدرزي الى ما طلب وعينوا له وقتاً يوافقكم فيه لاختد العروس واذا جاء مع جماعته رحبوا به فاذا استقر بهم المقام خذوا اسلحتهم ثم اتركوهم يهزجون ويرقصون الى حين الرقاد ، وكل واحد منكم يأخذ واحداً الى داره ليؤويه ولما رقد الجميع هب زيدان وافنى جماعة الدروز ، ثم اغار وجماعته على سلامة مع سكان عرابة فبطشوا بمن بقي فيها وخربوها فعظم قدر زيدان وانضم اليه اناس ممن يحبون الغزو والشقاوة وألف منهم جيشاً يغزو بهم فينزل بارباب النفوذ الويل والخراب . ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة وكان منهم حاكماً طبرية والناصره فقتلها ، فاضحى المقادحة بلا زعماء فاحتل اهل عرابة نمرين وغيرها . ولما كبر ظاهر رزق ستة اولاد ذكور فكفله سكان عرابة لدى والي صيدا سنين طويلة فالتزم الجباية وكان بعض السنين يتلصقاً عن اداء ما تعهد به واحياناً يؤدي للدولة حقها ، حتى نمت ثروته واقام في عكا فجعل اخاه سعداً في دير حنا ، واولاده علي في صفد وعثمان في شفا عمرو ، وسعيد في الناصرة وجهات مرج ابن عامر ، وصليبي في طبرية واحمد في تبنة وجبل عجلون (لخصته من مقال في مجلة الزهرة) .

كانت جبال بيروت واعمالها بيد حكامها الامراء الشهابيين يدفعون الاموال لوالي صيدا المعين من قبل الدولة ، وكانت صور وعملها بيد المتاوله يضمنون اموالها من والي صيدا واما جبال عكا وما اليها فكانت بيد مشايخها ومن جملتهم بيت ابي زيدان كانوا يضمنونها من والي صيدا ايضاً ، فما زال الامر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتاوله وتزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه واقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس وعمرؤا قلعة طبرية وقلعة صفد وغيرهما وبدأوا بسطوط على عكا وصور واطيروا الشقاوة وقطع الطريق فنجبر منهم والي صيدا واضطر ان يضمّن مدينة عكا الى الشيخ ظاهر العمر وضمّن صور للمشايخ المتاوله وابتدأ الشيخ ظاهر العمر ببني عكا سرايا

عظيمة وسوراً وإبراجاً ويجمع اليه العسكر وانتشرت اعلامه في تلك البقعة واطاعته مشايخ
المتاولة ودخلت عرب البادية تحت حكمه « وكان عادلاً في الرعية وسار معهم سيرة
مرضية » وسأدته المتاولة في اطراف لبنان بخافه السلطان واوهمه انه يجعله نائبه في
القدس ويوليه عكا والناصرية وطبرية وصفد وسائر البلدان التي في تلك الاطراف
وانه امير العرب فصدق وكف عن المحاربة . وذكر شوفيه وايزامير : ان الظاهر عمر
نشط الزراعة وقضى على غزو القبائل المجاورة لبلاده من العرب فوفق الى توطيد الامن
في الاقاليم ، فكان المسيحيون والمسلمون يهرعون الى نزول بلاده من جميع اطراف الشام ليعموا
فيها بالراحة والتساهل الديني .

وقال واصفوه انه ما زال في ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة
الروسية فضعفت الدولة في الاقطار الشامية ، فزاد ظاهر العمر قوة وعدا علي والي
صيدا وطرده منها وتملكها وارسل لها حاكماً من عنده ، فاستمر يحارب الوزراء سبع
سنين ولم يدفع مالا للدولة ، وله معهم عدة وقائع انتصر فيها على عساكر الترك وعسكر
الدروز والعربان . وفي هذه الاثناء صادق دولة روسيا بمشورة وكيله الخاص ابراهيم
الصباغ من اهل عكا ، وكان هذا صاحب عقل وتميز الا انه يحب المال كثيراً كما حالف
الامير نجر الدين المعني الثاني في القرن الماضي امراء طشقانه في ايطاليا .

واستمر الشيخ ظاهر حاكماً على عكا نحو اربعين سنة الى سنة ١١٨٩ . والسبب
في وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر وولادة الاطراف ان عثمان باشا الصادق والي دمشق
لما وليها سنة ١١٧٤ وكان شديداً المكر كثيراً البهاء ولي اولاده الاثنين صيدا وطرابلس ،
فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر ويطلب المال للسلطان ، فبدأت الحرب بينهما فانكسر
عثمان باشا وخلفت خزائنه من المال فأخذ يلج على الاهالي في طلب المال ففج الناس
من ظلمه وعصاه اهل الرملة وغزة ويافا ولم يطيعوه الا بعد حروب كثيرة فوقع
البغضاء في قلوب اهل بر القدس وتمنوا حكم علي بك صاحب مصر عليهم وكان هذا
قد قوي في بلاده فاطاعته البلاد المصرية .

وحاول عثمان باشا سنة ١١٨٣ ان يغزو ظاهر العمر بالانفاق مع امراء نجبل
الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالي مصر علي بك وكان هذا عزم على رفع لواء العصيان

على الدولة ، وفي قلبه حقد على عثمان باشا فهدى لاقترح الشيخ ظاهر لانه كان يريد امتلاك بلاد العرب من عريش مصر الى بغداد ، وكان قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالباً منها ان تمده بالمراكب والرجال وهو يملكهم المدن البحرية في الشام . ولما وصلت اليه رسالة الشيخ ظاهر جيز له ستة سناجق كبار ورأس عليهم اسماعيل بك وأصحابهم بعشرة آلاف من الغز والعربان والمغاربة وأمرهم ان يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر ثم ساروا الى اراضي المزييب في حوران وكانوا نحو عشرين الفا لقتال عثمان باشا فعدل اسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من تمرد اولاد الظاهر العمر وعشيرته فشكا الشيخ ظاهر الى الامير علي بك مالتى من اسماعيل بك فابتدأ الامير علي يجهز العساكر والجنود على نية الخروج ليملك بلاد الشام .

وفي هذه السنة قبض الامير يوسف الشهابي على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا الى وزير طرابلس فأتوا بعسكر الى قرية بزيزا ووقع القتال بينهم في قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس وحاصر بعضهم في برج في أسفل القرية وقتل عدة أشخاص ثم سلموا وساروا الى طرابلس ، وفيها بلغ الباب العالي ما فعله علي بك المنقلب اعلى مصر . فأمر والي دمشق ان يسير بخمسة وعشرين الفا لمنع جنود عكا من معاضدة علي بك فسار الوالي بالعساكر ، فوافاه الشيخ ظاهر العمر في ستة آلاف بين جبل النيران وبحيرة طبرية وردده على أعقابيه .

حملة ابي الذهب } استكثر امير مصر علي بك (١١٨٤) من جمع طوائف
على الشام } العسكر وامر بسفر تجر بدة الى الشام واميرها اسماعيل بك
وكان أرسل أحد رجاله فقتل سليطاً شيخ عربان غزوة هو واخوته واولاده ، فذهبت تجر بدة من البر وأخرى من البحر ووقعت بين جنده وحكام الشام وأولاد العظم حروب ومناوشات . وفي سنة ١١٨٥ أخرج علي بك من مصر تجر بدة عظيمة وأميرها محمد بك ابو الذهب في جند كثير من المغاربة والترك والهنود واليمنية والمتولة ، وسافرت من طريق دمياط في البحر ، فلما وصلوا الى الديار الشامية حاصروا يافا وضيقوا عليها حتى ملكوها ، ثم توجهوا الى باقي المدن والقري وجار بهم النواب والولاة فهزموا

وقتلوا وفروا من وجه الجيش المصري ، فاستولى على الممالك الشامية الى حدود حلب .
قال هذا الجبرتي وقال غيره : ان محمد بك ابو الذهب لما وصل الى بلاد الشام حضر
اليه اولاد ظاهر العمر ومشايخ المتأولة وانضموا الى عسكره فصار جيشاً عظيماً ينيف
على الستين ألفاً ، فسار محمد بك ابي الذهب طالباً دمشق ، وكان عثمان باشا قد رجع
من الحج فجمع العساكر لقتاله ، فمالبث عثمان باشا ان انكسر فنجى ابو الذهب حول
المدينة قاصداً حصارها ، وأرسل الى اهلها كتاباً يشير فيه الى ما اتاه عثمان باشا من
الظلم واهانة الحجاج والزوار وظلم المسافرين والتجار ، وانه يريد ان يظهر هذه الارض
منه نصرة للدين وغيره على المسلمين ، ويذكر ما فعله بعلماء غرة في العام السابق من
دفنهم في الارض احياء ، وانه اخذ فتوى المذاهب الاربعة في قتاله ، وصرف
الاموال والعساكر ليردوا الظالم ويستردوا المظالم ، فخرج العلماء والعوام من اهل
دمشق كافة الى محمد بك ابي الذهب وطلبوا منه الامان فامنهم واكرمهم ، ودخل
المدينة وجلس في دار الوزارة ونادى بالامان . وكانت القلعة لم تزل محاصرة فأمر
باطلاق المدافع عليها فطلب المحاصرون الامان فتسلم القلعة . وتراجع عثمان باشا الى
حمص وجيز العساكر الكثيرة . وابتدأ اسماعيل بك يغير قلب محمد بك ابي الذهب
على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور وخوفه عاقبة التمرد على السلطان فنهض
بعساكره ليلاً من دمشق وسار طالباً الديار المصرية ، وشاع رحيله من الغد فتعجب
أهل الشام كل العجب من ذلك ولم يعملوا السبب فيه ، ورجعت اولاد ظاهر العمر
والمشايخ والمتأولة كل منهم الى مكانه وقد ذهولوا من قيامه وتأسفوا على سعيهم .

وفي رواية ان السبب في ترك العسكر المصري بزعامه محمد بك ابي الذهب حصار
دمشق ان عثمان باشا واليها لما اشرف على الهلاك بعث الى قائد المماليك بصرة ثقيلة
بالدنانير للرجوع عن محاربته فارتضى منه وامر عسكره بترك المحاصرة وتركوا حصار
قلعة دمشق ، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم وانهم قد فارقوه وتركوه وحده عجز عن
فتح القلعة فرجع الى دياره ، فتخلص عثمان باشا وعاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج
لمحاربة ظاهر العمر ودخل اراضيه وحاصره في عكا وجدة في المحاصرة حتى صعب الحال
على الشيخ وكاد عثمان باشا يفتح عكا فلما نجا الشيخ في هذه المرة الا بمساعدة ولديه ،

فقد جمعا العرب وهجما على الترك ليلاً فكسروهم وشردوهم فهرب منهم عثمان باشا ، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره وحارب الدروز فغلبهم وتملك بلادهم التابعة لعامل صيدا . ولما بلغ السلطان خبر فنوحه وهو مشغل بحرب روسيا صعب الحال عليه فأرسل السلطان الى الشيخ يعرض عليه الصلح ، وقد عزل عثمان باشا وولديه عن ولاية دمشق وصيدا وطرابلس واما الشيخ ظاهر فقد اضمح في نفسه ان يدخل في طاعته الشام كله وهو يستند في ذلك على مساعدة علي بك امير مصر .

وذكر المرادي انه كان مع محمد بك ابي الذهب تسعة الوية وخمسة من اولاد الظاهر امير بلدة عكا ومشايخ المتأولة والصفدية ونحو ثمانين مدفعا واربعون الف مقاتل ، وعينت الدولة لقتاله والي حلب عبدالرحمن باشا ووالي كليش خليل باشا ووالي طرابلس محمد باشا ، فخرج للقائه هؤلاء الوزراء مع وزير دمشق بالعساكر الشامية والاجناد ، وصارت المعركة في سهل داريا وفي اقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقي وفر هارباً كل من خليل باشا وعبدالرحمن باشا وعساكرهما ، وقتل منهم شرذمة قليلة وثبت كافل دمشق عثمان باشا وولده محمد باشا والعساكر الشامية وحصل القتال معهم ثلاثة ايام ، وفر اعيان البلد الى حماة واستولى الفزع على الناس ، وغص الجامع الأموي باهالي القرى فانهم نزلوا جميعاً باهالهم وامتعنهم ومواشيهم اليه . ولما عاد ابو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا وولده محمد باشا ورئيس « اليرلية » يوسف اغا جبري من جبل الدروز ومعه خمسة آلاف درزي وبعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبري ، لانه كان السبب في نقوية الدولة المصرية على العساكر الشامية طمعاً منه في قتل عثمان باشا وصيرورته مكانه كافلاً بدمشق .

عاد ابو الذهب ادراجه الى مصر فرجع الى دمشق عثمان باشا وحضر اليه الامير يوسف الشهابي لانه كان قد ارسل اليه نائبه يوسف اغا جبري يستنجد به ، وكان الامير يوسف قد جمع عسكراً وتجهز للسير فاتفق قيام ابي الذهب عند ذلك . ولما فرغ بال عثمان باشا وقتل نائبه يوسف اغا جبري رئيس الانكشارية ونهب امواله اقام مكانه رجلاً من اهل دمشق يقال له عثمان اغاشيب ، ثم خرج بعسكر عظيم الى ارض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر والمتأولة الذين كانوا السبب في تلك الفتنة فجمع

ظاهر العمر رجاله واجتمعت المتأولة من تلك البلاد وكبسوا عثمان باشا في الليل فذعرت
عساكره وقتل منهم خلق كثير . وهزمهم الشيخ ظاهر وما زال في اثرهم حتى وصلوا
الى بحيرة الحولة فالتقى كثير منهم انفسهم في البحيرة وماتوا غرقاً . وحرب عثمان باشا
بنهر قليل فاستولى ظاهر العمر والمتأولة على اسبابه واسلابه . وكتب الشيخ ظاهر الى
الامير علي بك يخبره بما كان ويحقق له خيانة محمد بك ابى الذهب بعد ان ملك الاقطار
الشامية ودخل الناس كافة تحت طاعته . فخرج علي بك من مصر فالتقاء ظاهر العمر
بالاكرام ودخل به الى عكا فارسل كتباً منه (١١٨٥) ومن الشيخ ظاهر العمر الى
ملكة السكوب يسألونها الاسعاف على الدولة العثمانية ، وان ترسل اليها المراكب
الحربية ليسلمها اليار المصرية . واقام علي بك ينتظر الجواب ، وقويت مشايخ المتأولة
على الدولة ، وتناولت على اطراف جبل الشوف ومرج عيون والحولة ، فانفق الامير
يوسف وخاله الامير اسمعيل حاكم وادي التيم الادنى وجمع الامير يوسف نحو عشرين
الف جندي وسار قاصداً قرية جبباج الخلاوى واحرق اقليم التفاح وحرق جبباجاً وقطع
اشجارها وهدم بنيانها .

وكان عسكر المتأولة مجتمعاً في النبطية نحو ثلاثة آلاف ، ولما وصل الامير يوسف
الشهابي الى كفر دمان احرقها وتوجه الى النبطية فالتقى بشرذمة من عسكر المتأولة
نحو خمسمائة خيال ووقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الامير يوسف كسرة هائلة ،
ومات كثير من عسكره تعباً وعطشاً ومنهم من اختلعت عقولهم ، وفقد من عسكره في هذه الواقعة
اكثر من الف وخمسمائة قتيل ، وركب الشيخ كايب نكد من حاصيها الى دير القمر
وغزا المتأولة في قرية علمات فهزمهم ومنعهم من الحضور الى اقليم الخرنوب وتلك
الاطراف . وسارت عساكر الدولة مع عسكر الامير يوسف لحصار مدينة صيدا
وانقاذها من يد ظاهر العمر وكانوا في اكثر من عشرين الفاً معهم المدافع والزبركات
فأقاموا على حصارها سبعة ايام . وجاءت المراكب الروسية الى عكا التي استنجد بها
ظاهر العمر فأرسلها الى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة وجيش لبنان ،
وساق ظاهر العمر عسكره وقدره بعشرة آلاف جندي والنقي بعسكر لبنان وجيش
الدولة في سهل الغازية ، وانتشب القتال فانكسر عسكر الدولة وقتل منه نحو

خمسائة نفس وانقلب راجعاً الى دمشق ، واما المراكب الروسية فسارت الى بيروت وملك جانباً منها وأحرقت بعض الابراج فهربت الشهابية من المدينة وخرج اهلها الى البر ودخلت الفرنج بيروت ونهبت كل ما وجدته فيها ثم رحلت الى عكا بعد ان أعطاهما حاكم لبنان ٧٥٠٠ قرش تعويضاً ثم عادوا وأطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ ، حتى ظن الناس ان القيامة قامت وسمع صوت المدافع على ما قيل الى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف ، وأحاطوا بالمدينة بجرأ مدة اربعة اشهر ليل نهار فتضايق المتحاصرون فيها ونفذ ما عندهم من الزاد فكانوا يأكلون لحوم الخيل والحمير والكلاب ، وهناك اضطر الجزار الى التسليم وطلب الامان عن يد ظاهر العمر وتسلم الامير يوسف بيروت وغرم المسلمين ثلاثمائة الف قرش وسلمها للسفن المسكوكة . قال احد المؤرخين : ضرب الروس بيروت ونهبوها في القرن الثامن عشر وكانت فيها بيوت امراء الجبل ومشايخه ، وكانوا بنوا فيها خانات وقيساريات وكان الفرنسيين يدعونها « باريز الموارنة الصغرى » وكثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا .

ووقعت في هذه السنة بين الشهابيين والحماديين في العاقورة واقعة . وفي سنة ١١٨٦ اخذ الامير سيد احمد من والي دمشق حكم البقاع فتوجه الى قب الياس وبنى ما كان هدم فيها من الزلازل وحصنها بالمدافع والرجال . وفي هذه السنة أحرق يوسف الشهابي بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بني رعد حكاه الضنية مع المشايخ بني حمادة . وفي سنة ١١٨٧ حمل عثمان باشا والي دمشق في خمسة عشر الف جندي على الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان في جهات البقاع . وجرت عدة وقائع بين العسكرين وانهزم والي دمشق في الليل تاركاً المدافع والذخائر ثم انقصل الفريقان على غير نتيجة .

عهد عبد الحميد الاول } هلك السلطان احمد الثالث (١١٨٧) وخلفه ابنه
وثمة اخبار ابي الذهب } السلطان عبد الحميد خان الاول وفي ايامه استولى
العجم على العراق ولم يبلغه الخبر الا بعد خمس سنين ، وهو السابع والعشرون من آل

عثمان ، مضت مدة على رحيل ابي الذهب من الشام وبقي ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا وكسرتنه والى دمشق غير مرة واتهام ابي الذهب بالخيانة أمام والى مصر متمماً بولايته حتى سنة ١١٨٩ ، وفيها سافر ابو الذهب الى البلاد الشامية — رواية الجزقي — لمحاربة الظاهر عمر واستخلاص ما بيده من البلاد وكانت الدولة أذنت له بالمسير الى الظاهر عمر وخراب بلاده فوصل الى أرجاء غزة وارتجت البلاد لوروده ، ولم يقف احد في وجهه وتحصن أهل يافا بها وكذلك الظاهر عمر تحصن في عكا فلما وصل الى يافا (١١٨٨) حاصرها وضيق على أهلها وامنعوا هم ايضاً عليه وحاربوه من داخل وخارجهم من خارج ، والنهى عليهم المدافع والمكاحل والقناير عدة ايام وليال ، فكانوا يصعدون الى اعلى السور ويسبون المصريين وأميرهم سباً قبيحاً ، فلم يزلوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية ومكوها عنوة ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم بالحبال والسلاسل وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم جمعوا الاسرى خارج البلد وأعملوا فيهم السيف وقتلهم عن آخرهم ولم يميزوا بين المسلم والمسيحي والاسرائيلي والعالم والجاهل والعامي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم . وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوها بارزة تلسف عليها الاتربة والرياح والزوابع ، ثم ارتحل عنها طالباً عكا . ولما بلغ الظاهر عمر ما وقع بها فاشتد خوفه وخرج من عكا هارباً فوصل اليها ابو الذهب ودخلها من غير مانع واذعنت له باقى البلاد ودخلوا تحت طاعته وهدم قلعة ديرمار يوحنا وديرمار الياس في صفد وقتل رهبانها .

ويقول جودت : ان ابا الذهب قام من مصر في ستين الف جندي الى يافا ، وبعد ان حاصرها خمسين يوماً استولى عليها وأعمل السيف في أهلها كبيرهم وصغيرهم ، وان ظاهر العمر طلب مدداً من الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان فأبى ان يمدده فلم يسعه الا الهرب من عكا والتجأ الى عرب غزة ، ولما حصل ابو الذهب في عكا استولت الدهشة على الناس حتى ان بعض الأسر الكبيرة هاجرت بيروت خروفاً وعلماً ، اما الامير يوسف حاكم لبنان فقدّم هدايا الى ابي الذهب طيب بها قلبه ، وجاءه متسلم صيدا احمد اغا الدكرلي ملتسماً رضاه . مظهرأ طاعته ، فأمنه على نفسه ومركزه كما جاءه مشايخ بني متوال فاكرمهم ابو الذهب ثم استدعى ان يولّي

امور مصر والشام فجاءه من السلطنة المنشور بذلك ولكن كان قد قضى نحبه وتفرقت
جموعه وعادوا الى مصر ، فلم تنل الدولة مأربها من ظاهر العمر ولم تستفد البلاد
سوى ان قتل من أهلها جمهور كبير ولا سيما في حصار يافا . وجرى على أثر هذه
الواقعة بين المتأولة والغز الذين في صيدا قتال عظيم فانكسرت المتأولة كسرة هائلة
وقتل منهم جماعة .

خاتمة ظاهر العمر } قال جودت : لما سمع ظاهر العمر بوفاة أبي الذهب عادالي
وولاية حلب } عكا وأخذ يطيل أيدي الأذى أكثر من قبل ، فأرسلت
عليه الدولة سنة ١١٨٩ قائد البحر حسن باشا الجزائري ، وكتب الى والي دمشق
اذ ذاك محمد باشا العظم والي والي إيالة صيدا والي الجزائر احمد باشا الذي نصب
محافظة السواحل الشامية والي متصرف القدس ، فبعث قائد البحر أولاً يطلب من
الظاهر ما في ذمته للدولة من الاموال الاميرية (وهي خراج سبع سنين) فلم يوافق
على ذلك مستشار ظاهر العمر ابراهيم الصباغ ، وكان بيده جميع أموال الظاهر عمر ،
وقال له : ان الدولة لا يرضيها شيء ، وأراد سيده على المقاومة ولكن عسكر ظاهر العمر
استماله متمسلم صيدا وقال لم : لا يجوز مقاتلة عسكر السلطان فأبوا ان يقاتلوا . فلما
علم الظاهر عمر بالامر فرّ على وجهه لا يلوي على شيء هو وأولاده ، فضبط قائد
البحر أموال الظاهر عمر وذخائره وجيء بابراهيم الصباغ فأخذت منه أموال الظاهر
عمر ثم قتل . ويقول بعض المؤرخين ان ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان وثمانون
الف كيس من النقد قال جودت : سبحان الله ! بمثل هذا المال والنوال وتمسلم صيدا
احمد اغا الدكرلي يطلب عشر معشاره لأرضاء الدولة فنتشع نفس ابراهيم الصباغ ،
فيجلب البلاء على نفسه ويكون سبباً لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان .

وذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر انه في اواخر سنة ١١٨٩ حضر قائد
البحر حسن باشا الجزائري بالاسطول السلطاني ، لان السلطان عبد الحميد الاول
لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة ١١٨٧ التفت لتنظيم البلاد فوجه قائد البحر الى
حيفا ، وذلك بعد موت أبي الذهب وزجوع العساكر المصرية بمدة قليلة ، وإن مطالب

القائد كانت اموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر ان ليس عنده مال وانه مستعد
 لحرب قائد البحر لان عنده باروداً وكلاً وثلاثة مدافع فاطلق قائد البحر اربعة ايام
 النار على عكا وكان عدد قنابله ٧٧٥٠ كلة ولم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلاً من
 المحلات ، وقيل بل سقطت قنبلة على مخزن البارود فاحترق ، فخرج الشيخ ظاهر بعياله
 فقتله احد المغاربة في الطريق في محل يسمى الرقايق ، وكان قتله عبداً من عبيده
 منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد التركي به خيائنه سيده ، وحزوا رأسه وحمل الى
 الاستانة ونهب العسكر المدينة ساعتين . وكان قائد السفينة الفرنسية التي جاءت لحماية
 تجار عكا الفرنسيين وحملتهم الى بلادهم نهب على التجار الفرنسيين بان كل من
 عنده وديعة لابراهيم الصباغ وكل من يلوذ به ملزم بحسب اوامر السلطان ان يقدمها
 الى قائد البحر العثماني فأعطوها وكانت ٣٦ الف كيس ذهب عدا الجواهر والتحف ،
 وضبطت حواصله وكانت مشحونة باصناف البضائع وضبط مبلغ كبير ممن يلوذ بابراهيم
 الصباغ الذي اخذ وقتل في الاستانة ، وكذلك احمد اغا الدكري الذي خاف مولاه
 فقد صلبه قائد البحر في صاري المركب ، وسلم قائد البحر ولاية عكا الى احمد باشا
 الجزائر ، سلمه عكا وصيدا وما يليهما ، فاحتال الجزائر على اولاد الظاهر عمر واقام
 الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ ويقول مشاققة : ان حسن باشا طلب من ظاهر العمر
 خمسين الف قرش تبلغ باسعار ذاك الوقت خمسة وعشرين الف ريال فرنسا فأشار
 اكثر معتمدي الشيخ بالدفع الا الطبيب التاجر ابراهيم الصباغ . فانه خالف رأي
 الجماعة . وقيل انه وصل من اموال ظاهر العمر واولاده وابراهيم عبود الصباغ الى
 خزينة السلطان ثلاثمائة وثمانون الف كيس تساوي خمسة ملايين ليرة وخمسة وعشرين
 مليون فرنك خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه .

وفي اوائل سنة ١١٩٠ رجع حسن باشا الجزائري بالاسطول الى عكا وحضر
 محمد باشا العظم والي دمشق بعسكره وابراهيم باشا والي القدس بعسكره ونصبوا
 بعسكراتهم خارج مدينة عكا وظلع معهم احمد باشا الجزائر بعساكره وساروا جميعاً
 مع امير البحر قاصدين البطش باولاد الظاهر عمر فأمنوهم وحملهم قائد البحر الى الاستانة
 وقتل في الطريق احدهم واسمه احمد لانه طعن فيه جهاراً وبقي احد اولاد الظاهر واسمه

الشيخ علي يتنقل في البراري، فبلغ الدولة خبره فارسلت الى محمد باشا العظم ان يرسل اليها رأس علي الظاهر او يقتل هو به، فأرسل والي دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته وانكر جماعة احمد باشا الجزار الرأس المحمول، وقالوا: انه ليس رأس الشيخ علي الظاهر فاحضرت الحكومة ولديه الحسن والحسين وكانا في الاستانة وقالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقبل لهما: ما بكيكما فاجابا هذا رأس والدنا علي الظاهر وقد عرف من كبار عارضيه لانه كان يدعى ابوسبعة شهاب، وبذلك انقضت دولة الظاهر واندثر ذراريها وقامت دولة الجزار احمد باشا الذي ضيق على اولاد الظاهر وذراريه وبعث احد جواسيسه الى ابنه علي وقتله في مرج عمار الخيط.

والغالب ان الشيخ ظاهر العمر الذي حكم صيدا وعكا ويافا وحيفا والرملة وبلاد نابلس واربد وصفد وجميع المتأولة كانت تحت امره، كان الى السداجة والقطرة، استسلم لوكيله ابراهيم الصباغ وكان هذا مثلاً سائراً في الامساك وحب المال، فحاول ان يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه اضعاف اضعافها من الذهب، دع سائر العروض والجواهر، واغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان في ذلك ذهاب دولته وهلاكه وهلاك وكيله، ولم يثمر جمع الاموال الثمرة المرجوة، ولو قد رله ان يعمل بما رسمه له السلطان سنة ١١٨٨ من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه وذنوب غيره على شرط ان يؤدي الخراج لبق في عزه ان كانت الدولة تريد دوام العز لاجد.

كانت الشكوى قليلة من ادارة ظاهر العمر فان ما جمعه في اربعين سنة قد جمع غيره من حكام الاقاليم مثله في مدة قليلة. ذكر فولنه ان علي باشا المعروف بجه طنجلي الذي تولى حلب مرتين آخرها سنة ١١٩٣، وكان من معاصري الجزار، جمع في خمسة عشر شهراً زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هي الفرنك الطلياني) وانه سلب جميع أرباب الحرف حتى انتهى سلبه الى منظمي الغلابين. وقال غيره: ان مدينة حلب التزمها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو أربعين الف جنيه وبعطي الوالي ٨٣٣٠ جنيناً في السنة لتنفقات الولاية لكنه يكثر ابتزاز الاموال الطائلة من الاكراد والتركمان وسائر السكان، وقد جمع منهم عبيد باشا الذي كان والياً قبل عهد فولنه ١٦٠ الف جنيه في سنة واحدة وضرب ضريبة على كل واحد وكل صناعة.

قال بعض معاصريه وقد فر من حلب غالب تجارها ووجوه الناس ومن له شهرة وسجن الاعيان وان الكوسج خادمه لما خرج الى قتال التركمان صار يخرب القرى ويسلب أموالها حتى قام أهالي حلب وحاصروه واخرجوه من البلدة . ونقل في اعلام النبلاء في حوادث سنة ١١٩٤ ابن عبيد باشا والي حلب جاء في جيش عظيم الى كلز لتأديب الاشقياء وأصدر أمره الى هذه البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض والرعايا الى طرف الباشا وبقي الاشقياء فأجابوه بلسان واحد ليس في بلدنا أهل عرض صلاح بل كلنا أشقياء فزحف الوالي على البلد فحاصرها وفتحها ووقع القتل والنهب في كلز وهتكت الاعراض وذبحت الاطفال . وأن الوالي اخذ يسلب أموال الناس في حلب وفي سجونه من الاكابر والمشايخ والاشراف خلا الرعايا وأهل الذمة مقدار عظيم وعسكره كثير يرتكب في حلب أنواع الرذائل وبلغ من سوء فعل اتباعه ان كسروا غراريف بساتين حلب ودواليبها واخشاب بيوتها وطياراتها من حدود قرية بابل (باب الله) الى قرب بستان الدبابة وحرقوها وحرقوا اخشاب قرى البلد باجمعها وسلبوا متاعها ونهبوا مواشيها وتركوها قاعاً صفصفاً الا ما حماه الله من القرى البعيدة ، وجاء الوالي الجديد فنبه ان لا يجعل احد سلاحاً وكل من وجد من اهالي المحلات خارجاً عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه ان يخبروا عنه ليقتله ومن شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لاحد عليه وصار يقتل كل من اخبر بسوء حاله ، وامر الناس ان يفتحوا دكاكينهم وارباب القرى ان يتعاطوا زراعتهم وان ماضى لا يعاد ومن لم يفتح دكانه ينهبها ويشنق صاحبها .

وروى في أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذي تولى حلب بعد عبيد باشا انه صار يأخذ بالمجان ممالك وجواري من اصحابها قهراً ، ويحضر التجار وغيرهم ويكرمهم ويقول لهم : « انا وزير افشعوا خاطري لا يعلم بها أحد حتى لا يمشيها غيري » وأرسل فطلب من كل بلد حصاناً . وجاء بعده عبيد باشا وسار على اقدام سميه الاول سيف الظلم والجور على صورة لم يسبق لها مثيل واخذ يأخذ بدل القرش اربعة وصادر القوم وعذبهم وصارت حبوسه ملائ بالناس .

وصف فولنه ظاهر العمر بانه لم تشهد له الشام مثيلاً في الازمان الغابرة ، وكان

داهية باقعة في السياسة حكماً محمداً ولكنه كان طامحاً طامعاً ومن محاسن صفاته انه لم يكن يحب الاحتياال و يجاهر بما يضمّر ولو قاسى من ذلك العنت وانه احب المسيحيين ورفع شأنهم وعدل في الناس .

وقال بعض المعاصرين : حكم الظواهرية البلاد نحو ثمانين سنة وامتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالاً الى أطراف جبال القدس جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى جبل عجلون شرقاً ، وكانوا يرجعون في احكامهم الى اصول العشائر حسبما توحى اليهم ضمائرهم ، وقد شادوا في البلاد أبنية ضخمة فرم الظاهر عمر بعض ما تمكّن من ترميمه مما خربته الحروب الصليبية ورفع سورها الداخلي ، وشاد فيها جامع محلة الجرنية وبني علي في صفد القلعة الباقي شيء من آثارها الى اليوم ، وبني صليبي في طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة الى عرب الصقر الذين صال عليهم صليبي واكتسحهم ، وعمر الجامع الواقع جنوب السراي ، وبني عثمان قرية شفا عمرو ، وبني احمد قلعة تبنا ، وشيد سعد قلعة دير حنا . وهذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة ، وعمر في دير حنا الجامع الموجود الى اليوم وكان بناؤه سنة ١١٤٤ هـ .

أخذ الجزائر بعد استلام ولاية صيدا سنة ١١٩١ يقوى وتشتد أولية الجزائر ثم شكيمته خصوصاً بعد أن ولي دمشق (١١٩٠) مع بقاء عكا عليه ثم استقل بولاية عكا واخذ يغزو متغلبة تلك الارحاء ف وقعت بينه وبين الامير يوسف الشهابي وقعة في سنة ١١٩١ في نقار السعديات بين صيدا وبيروت فلم يسلم من جماعة الشهابي الا القليل ، وأحرق عسكر بيروت اي الجزائر المكس والجديدة والدكوانة في لبنان وقتل اناساً من اهلها ، ثم وقعت بين عسكر الدولة وعسكر لبنان في المغيشة عدة وقائع انتصرت الدولة فيها على اهل الجبل وقتل منهم قتلى كثيرة واكثرهم من المتن ودام عسكر الدولة بني الحرفوش في بعلبك واحرق الدولة زحلة . وقوي الجزائر بمجيئ ستائة فارس من اللوند وكانت الدولة امرت بقتل جماعتهم وكانوا ستة عشر ألفاً ، فلم يسلم منهم الا الذين جاؤا الجزائر ، ولما عزم على الاقامة في عكا ابتداءً باصلاح

اسوارها وانقان بنيانها وجعل على كل قرية من تلك البلاد ان يحضر أهلها جميعاً ثلاثة ايام في الاسبوع بالسخرة لاجل العمارة .

وجرت حروب كثيرة بين الشيخ علي بن الشيخ ظاهر العمر وعساكر الجزائر حتى قتل على ما سلف وكذلك بين هذا والامير يوسف الشهابي والثقى مرة في طريق صيدا عسكر الجزائر بالنكدية وكانوا يكمنون له فقتل الجزائر اكثرهم وقبض على بعض اعيانهم فجعل الامير يوسف يعتذر للجزائر ويستشفع في اطلاقهم مقابل مئة الف قرش ولما طلب الامير المال من الجبل الى الامراء الدفع فطلب الامير من قائد عسكر الجزائر ان يتلف اشجار بيروت ففعل وتتل جماعة من رجالهم ، ثم سار الى بعلبك وعظم امره وحينئذ خرجت بيروت من يد الامير يوسف ودخلت في حكومة الجزائر ، واقتتل الامير يوسف مع الجزائر فانهمز في عدة مواقع ثم تصالح الشهابي والجزائر .

وارسل احمد باشا الجزائر (١١٩١) احدث رجاله من الاكراد في جماعة منهم فاجتازوا قب الياس فعلم أهلها فخصنوها ، وردوهم عنها باطلاق المدافع فذهب الاكراد الى بعلبك وصادروا كباذ المتأولة ، ولا سيما الامير محمد الحرفوش وسجنوه ثم شنوا الغارة على سعد نابل وقتلوا بعض سكانها ونهبوها ، ثم حاربوا الدروز في البقاع وقتلوا بعضهم وقتل من الاكراد اربعون رجلاً فأحرقوا قرى كثيرة في البقاع وهاجموا سغبين ثم عادوا عنها ، وقد قتل منهم نحو مائتين ثم امرهم الجزائر فعادوا اليه ، وكان سبب ارسالهم ان الامراء اللعبيين لم يدفعوا الضريبة الشاشية التي فرضها الجزائر على اللبنانيين في السنة السابقة . وفي سنة ١١٩٢ او ٩٣ نقل الجزائر مركزة الى عكا لحصانتها . وزاد الجزائر (١١٩٤) المكوس والمغارم على لبنان .

وفي سنة ١١٩٥ وقعت فتن ومناوشات بين عسكر الجزائر وعسكر الامير سيد احمد وعسكر دمشق في ارض قب الياس في البقاع قتل فيها كثيرون وانتهصر الجزائر ووقعت وقعة في الظهر الاحمر في وادي التيم لاجل النفوذ والمال ، وفي سنة ١١٩٧ استولى الجزائر على بلاد بشارة بعد وقعة مهمة مع مشايخها من بني متوال ، وتسلم هونين وتبنين وشقيف ارنون ، اخذ هذه القلعة الاخيرة بالامان وقتل من بها وتسلم جبجبا وباد اسم بني علي الصغير وبني منكر . وفي هذه السنة توفي محمد باشا العظم وكان وزيراً عادلاً

مهلباً على قول ميخائيل الدمشقي وقال المرادي : انه كان من رؤساء الوزراء عقلاً وكلاً وعدلاً ودينياً وسخاء ومروءة وشجاعة وفراسة وندبياً وكان واسع الرأي مهلباً وضرب على ايدي البغاة وقطاع الطريق ، وراقت دمشق وما والاها في ايامه ، وصفا لاهلها العيش ونامت الفتن ، فعين محمد بن عثمان باشا وكان ظالماً قاسياً ثم تولى اخوه درويش باشا ثم تولى محمد بطال باشا وكان حدثاً جاهلاً ليست له خبرة بالمقاطعات . وقتل (١١٩٧) الوزير حسين مكي باشا والي غزة وصادرت الدولة امواله وكان خارب بني صخر وعرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم .

وفي سنة ١١٩٨ تولى احمد باشا الجزائر ولاية دمشق وفي سنة ١١٩٩ وقعت فتن ايضاً بين عسكر الدولة واللبنانيين قتل فيها فريق من الطرفين . وانتهى القرب والبلاد على هذه الحالة . ومن جملة الفتن ما ذكره من عصيان يوسف الجرار وتحصنه في قلعة صانور على مقربة من عمل جنين في نابلس ، فحاصرها الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل فطمع أهل بلاد نابلس وأخذوا يتهبون الناس ، فذهب الباشا ونهب بعض قراها وقتل أناساً كثيرين ثم حاصر صانور ثانية ، وأصبحت بلاد نابلس في فوضى والجزار كل مرة يغزوها ويخرب في قراها ويقتل من أهلها ولم ينل احمد الجزار من يوسف الجرار ما كان يتطال اليه حتى مات الجرار . قال بعضهم : ان نابلس لم تبرح بعصيانها تعلق الادارة التركية . وكان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور . هذا وقد تولى حلب في هذا القرن سبعون والياً قضى معظمهم أشهراً في الولاية واكثرهم لم يتجاوز الخمس سنين وكان ولاية دمشق في هذا القرن ستة واربعين والياً كان منها نحو خمس واربعين سنة في حكم آل العظم .

الحكم على القرن () قرن كله ذل ومسكنة ، وثقائل وتشاحن ، عرف بتغلب الثاني عشر () القيسية على اليمنية بعد وقعة عين دارة ، ورجوع ابن معن الى الامارة في لبنان ، وانقراض دولة المعنيين بموت الاخير منهم ، وظهور بني شهاب حكام وادي التيم بمظير جديد فخلعوا المعنيين في لبنان ، وبظهور ابناء علي الصغير في بلاد بشارة وانقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالي لبنان ، وظهور بني العظم حكاماً

في الولايات الشامية وتراجع امرهم ، ثم ظهور ظاهر العمر في عكا وما اليها و دوام حكومته اربعين سنة ، ثم ارسال والي مصر تجريدة بقيادة اسماعيل بك وأخرى بقيادة محمد ابي الذهب ورجوع هذا عن البلاد بعد ان فتحها الا قليلاً واعتصام الظاهر عمر بمملكة روسيا وحصار اسطول الروس بعض الساحل ولا سيما بيروت ، ثم ظهور الجزائر الذي قرض بيت الظاهر عمر .

والدولة فلما جيزت جيشاً خاصاً للقضاء على سلطة احد المتغلبين اللذين الاجبوشاً اشبه بنجدات يوم مجيء ابي الذهب لفتح الشام ، واستغاثت بابي الذهب لشنقذ البلاد من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر ، اي ان الدولة كانت تستعين بالجار على جاره و بابين العم على ابن عمه وتضعفهم جميعاً ، ومعظم حملاتها كانت للانتقام ممن يتلكأ في تأدية الجباية لها ، وقلما سمع بانها نحت عاملاً كبيراً لسوء ادارته ، وكثرة نهيمته في جمع ثروته والعاقلة المستقيم من ولايتها لا تطول ولايته كثيراً حتى يتمكن من اصلاح بعض الشؤون ، وكان الولاة في الحقيقة يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها الى مراجعة الاستانة في كل امر ، ولكن اين العامل الشيط فيهم الذي يعرف يدبر امور الناس ، واذا تهيأ الرجل هل تحدثه نفسه بذلك فيتهم حالاً بارادة الاستقلال ويشي فيه جيرانه والطامعون في ولايته .

اما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطاً والوسط لا يعمل عملاً نافعاً ، ولم ينشأ للسلطنة صدور عظام عرفوا بالمضاء وحب العمل امثال ابناء كوبرلي وصوقوالي ، في القرن الماضي بيد ان اعمالهم لم يصل الى الشام منها الا الصدى ، ولم يخرج من الشام نابعة بعقله وادارته من ارباب الاقطاعات وغيرهم كما كان في القرن المنصرم ، وجل همهم مصروف الى دفع عادية خصمائهم من اقربائهم او غيرهم ، وكانوا دون من يأتي من الاستانة من الولاة عقلاً وعدلاً ، ومما ظهر في هذا القرن من النقص المحسوس في البلاد قلة السكان فقلق العقلاء ، وكان في حلب قبل استيلاء العثمانيين ٣٢٠٠ قرية ينقاضي منها الخراج فنزل عددها الى اربعمائة قرية حتي ان ابن معين لم يقبل ان يتولى بلاد بني حمادة لانها خربت الا قليلاً ، وهام الفلاحون على وجوههم في المدن والجبال وهكذا الحال في ولاية دمشق وفلسطين . وقال فولانه : ان سكان كسروان وحده ضعفنا سكان

فلسطين . وهكذا كان السكان يكثررون في المقاطعات التي تُتخلص مباشرة من ادارة الباب العالي مثل لبنان ووادي التيم و نابلس وعجلون وان لم تكن حالتها مما يستحب .
 اما اعمال العمران فلم يقم فيها الا قصور لارباب الدولة امثال قصر لاسعد باشا العظم في دمشق وقصره في حماة الى غير ذلك وقامت من المدارس مدرسة اسماعيل باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم في دمشق وبعض مدارس في حلب ، ولكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة بمقياس واسع ، وتدهأت المساجد والجوامع ، ولم يتم من المشاريع النافعة ما يستحق الذكر لان البلاد لا صاحب لها يغار عليها ، فالمتغلبة من ابناءها والقادمون من الولاة عليها ، لا يهتمون لمثل هذا الشأن ، وسلاطينها ضعاف ان افلح احدهم فعمّر له جامعاً ومقبرة خاصة في دار الملك عدوه محباً للعمران ، منقرباً بعمله الصالح من الباري الديان :

ولا تغير من قوم نعيمهم الا تكدر منه الورد والصدر



— فهرس الجزء الثاني —

« من خطط الشام »

صفحة	صفحة
٣٤	٣ (الدولة النورية من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩) — فئنة الاسماعيلية ووقعة دمشق
٣٦	٥ دخول آل زنكي الشام
٣٩	٦ استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين واستقرار حال دمشق
٤٠	٨ خيانة صاحب دمشق وقتل أمه له
٤١	١٠ توحيد الحكم على يد زنكي وقضاؤه على امارة صليبية
٤٣	١٤ الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين
٤٧	١٦ صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين
٤٩	١٨ الحملة الصليبية الثانية وغزوها دمشق
٥١	٢٢ تقدم نور الدين في فتوحه
٥٤	٢٤ انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين
٥٨	٢٧ مقاصد نور الدين وفتح دمشق
٦٠	٣٠ الداعي لنور الدين علي فتح دمشق
٦٣	
٦٦	

صفحة	صفحة
١١٦ مقتل الملك المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس واحداث	٦٨ مزايا صلاح الدين ووفاته
١١٨ حروب الظاهر وفتوحه	٧٣ (الدولة الايوبية من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧) — ابناء صلاح الدين
١٢١ وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنة الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون	٧٦ واختلافهم ودهاء عمهم الملك العادل استئثار العادل بالملك الصلاحي
١٢٦ وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واخثانه في فرنج الساحل	٨٠ الاحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين .
١٢٨ الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية	٨٢ الحملة الصليبية الخامسة
١٣٧ (دولة المماليك من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠) — فتوح ارمينية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية	٨٦ وفاة العادل
١٣٩ وقائع النار	٨٨ فتح الصليبيين دمياط وذلثمهم بعد العزة
١٤٣ غزوة الارمن والكسروانيين وترزع السلطنة	٨٩ اختلاف بين ابناء العادل وتقدم الكامل عليهم
١٤٦ الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة	٩٣ الحملة الصليبية السادسة
١٤٩ سياسة المماليك مع اكبر عمالمهم ووفاة الناصر وتولي المنصور	٩٥ اختلافات جديدة بين آل العادل
١٥٠ خلع الملك المنصور ومقتل غيره واحد من اخوته الذين خلفوه	٩٨ وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده
١٥٣ احداث وكوائن وعصيات ومخمرات	١٠١ (انقراض الايوبيين وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠) — ظهور الخوارزمية
	١٠٣ اختلاف بني ايوب واعتضاد بعضهم بالفرنج وعودة الخوارزمية
	١٠٧ وفاة الملك الصالح ومبدأ دولة المماليك
	١١٠ هولاكو التتري

صفحة	صفحة
١٩٣ الملك السكير وقتله	١٥٦ مقتل الاشرف شعبان والاحداث بعده
١٩٥ الخليفة السلطان وسلطنة شيخ	١٥٩ سلطنة برقوق وحالة الممالك البحرية والشراسة
١٩٦ هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القماط	١٦١ (وقائع تيمورلنك من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣) — بدءا تيمورلنك ومناوشة جيشه
١٩٧ وفاة ططر وسلطنة ابنه ثم تولي الاشرف برسباي	١٦٣ القتال على الملك
١٩٩ الملك العزيز يوسف والملك الظاهر جقمق	١٦٤ عوامل الخراب قيس ويمين
٢٠٠ المنصور والاشرف والمؤيد والظاهر خشقدم والظاهر بلباي والاشرف قايتباي	١٦٧ الخوارج على ملوك مصر
٢٠١ مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية	١٧٠ وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
٢٠٤ وقعة مشؤومة وأحداث	١٧٢ الحرب الاولى مع تيمورلنك
٢٠٥ اول مناوشة مع الاتراك العثمانيين	١٧٣ تيمورلنك على ابواب حلب
٢٠٨ وفاة الاشرف قايتباي وتولي ابنه ناصر الدين محمد	١٧٥ تيمورلنك على حماة وسلمية وحمص
٢٠٩ الملوك المتأخرون وآخرهم الغوري	١٧٦ تيمورلنك على دمشق
٢١١ سلطنة طومان باي	١٧٧ وصف افعال تيمورلنك في دمشق
٢١٢ القضاء على مملكة ذي القدرية وطبيعة دولتي الممالك البحرية والممالك البرجية	١٨١ الخراب الاعظم واخلاق تيمور ونجاة فلسطين منه
٢١٥ (الدولة العثمانية من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ) — حالة الشام قبل الفتح العثماني	١٨٥ (عهد الممالك الاخير من سنة ٨٠٣ الى ٩٢٢) — البلاد بعد الفتنه التيمورية ومخامرة العمال
	١٨٨ وقائع التركمان مع الناشئين على السلطان

صفحة	صفحة
٢١٦	مقائل الغوري ومقدمات الفتح
٢١٨	صلات العثمانيين مع المماليك ووقعة مرج دابق
٢٢٠	قوة الغالب والمغلوب وغنائم الغالبين واضطراب البلاد
٢٢٢	دخول السلطان سليم حلب ودمشق
٢٢٣	مقابلة امراء البلاد سلطانيهم الجديد وتغير الاحكام
٢٢٥	السلطان في دمشق وفي الطريق لفتح مصر
٢٢٧	فتوق وغارات وتأذي السكان
٢٢٩	محاسن السلطان سليم ومساويه ومهلكه
٢٣٢	خارجي خان اولاً وثانياً
٢٣٤	طبيعة الدولة العثمانية
٢٣٧	كوائن داخلية وامراء المقاطعات
٢٣٨	ملك السلطان سليمان وتولي سليم السكير
٢٣٩	عهد السلطان مراد الثالث وحملات على ارباب الدعارة
٢٤١	بنو عساف وبنو سيفنا وابن فرنج وخراب البلاد
٢٤٣	حالة البلاد في الحكم العثماني
٢٤٧	(العهد العثماني من سنة ١٠٠٠)
٢٥٠	عهد احمد الاول وفننه ابن جانبولاذ وغيرها
٢٥٥	الامير نغرا الدين المعني وآل شهاب وقتن
٢٥٧	عهد مصطفى الاول وعثمان الثاني
٢٥٨	عداء على الفرنج وقتن داخلية
٢٦٠	حملات على الامير نغرا الدين المعني وغيره
٢٦٢	القضاء على الامير نغرا الدين المعني
٢٦٥	فتن في الساحل
٢٦٧	ابراهيم الاول وسفاحته
٢٧٠	فتنة وال اخرق في حلب
٢٧٢	محمد الرابع وصدارة كوبرلي
٢٧٧	عهد سليمان الثاني والحكم على الخوارج
٢٨١	(العهد العثماني من سنة ١١٠٠)
٢٨٤	دور احمد الثاني وقتن
٢٨٥	دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن
٢٨٦	عهد احمد الثالث وسياسة الدولة

صفحة	صفحة
٣٠٠ سيرة ظاهر العمر الزيداني وسياسته	مع من ينكر الظلم ووقعة عين دارة
٣٠٣ حملة ابي الذهب على الشام	٢٨٨ فتن ومظالم مستجدة وظهور آل
٣٠٧ عهد عبد الحميد الاول ونعمة اخبار	العظم
ابي الذهب	٢٩٠ عهد محمود الاول
٣٠٩ خاتمة ظاهر العمر وولاية حلب	٢٩٣ فتن ومشاغب
٣١٣ اولى الجزار	٢٩٨ عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث
٣١٥ الحكم على القرن الثاني عشر	وبعض الاحداث في ابامهما

